هذا. فقال الملك: كيف نسجد لغير إلهنا!. قال شمعون: ألم تخبرني أنه لا يبصر ولا يسمع
ولا يضر ولا ينفع، فما قدرته عليك إن سجدت لغيره! قال: صدقت. وسجد الملك
وسجد قومه لسجوده. ثم قال شمعون ليوحنا وبولس: إني أسألكما عن أمر، فإن قدر
عليه إلهكما فالحجة إذاً لكما والقول قولكما. قالا: سل عما بدا لك. قال: تسألان ربكما
أن يحيي لنا ميتاً حتى يكلمنا ويخبرنا ما خبره، ويعلمنا ما كان فيه وما لقي بعدنا. قالا:
نعم، إن الذي سألت يسير على الله وهين عليه. فوضع شمعون يده على رأسه كالمعظم
والمنكر لما قالا. ثم خلا بالملك وقال: إنك قد رميت بأمر عظيم، وإني أخاف إن أحيا
إلههما الموتى أن يميل الناس إليهما. قال الملك: إنا نرجو ألا يأتيا بشيء إلا أتيت أنت
بمثله. قال شمعون: إني لا أغركم، إن إلهي لا يحيي الموتى، ولا أعلم في الأرض من يقدر
على ذلك. قال الملك: فهل تدعهما يدعاننا وندعهما، فإن أبيا قاتلناهما؟. قال شمعون:
كيف نقاتل من لهما إله يحيي الموتى! ولكن أرجو أن أدعو الإله الذي صنع ما رأيتم
فيعيننا على ما نريد. قال شمعون: هل يقدر إلهكما على أن يحيي الموتى؟ قالا نعم. قال
الملك: إن عندنا ميتاً قد مات منذ سبعة أيام وهو ابن دهقان مدينتنا، فدعا به الملك
فأحضر في نعش، وقد تغير لونه وأروح، فقال: دونكما ادعوا أن يحييه إلهكما. فدعوا الله،
فالبث أن تفتقت عنه أكفانه ورد الله إليه روحه. فسألوه متى مات وماذا لقي. فقال: مت
منذ سبعة أيام، ثم عرضت على عملي فقذفت في سبعة أودية من نار، وذكر ما في الأودية
من العذاب والحيات وغير ذلك. قال: فلما صرت إلى الوادي السابع خفف عني العذاب.
قالوا: فمن أين خفف عنك العذاب؟ قال: أحياني الله ورد علي روحي، فجاءني شيء
مثل الريح فدخل في رأسي، فلما صار في جسدي حييت، ثم قيل لي: انظر فوقك،
فشخصت ببصري وفتحت أبواب السماء، فنظرت فإذا برجل شاب حسن الوجه نحيف
الجسم أبيض يخالطه حمرة متعلق بالعرض يشفع لهؤلاء الرهط الثلاثة، يعني عيسى بن

مريم. فقال له الملك: أي رهط تعني؟. قال: هذا الشيخ الأجلخ، وهذا الكهل الأنزع،
وهذا الفتى الرجل. فما زالوا مجتهدين في الدعاء حتى شفعوا، والشافع لهم مصغ إليهم
بأذنه كأنه يسمع ما يقولون ثم يرفعه إلى الله فيدعو به. فلما فرغ من كلامه قال: إني أحذركم
أيها القوم مثل ما كنت فيه، فإنه لا إله إلا إله عيسى بن مريم وشمعون وبولس ويوحنا. قال
شمعون: اعتصمنا بالله وتوكلنا عليه، ثم اخبر الملك بخبره وخبر أصحابه ودعاهم إلى الله،
فمنهم من آمن، ومنهم من تولى. وكان الملك ممن آمن به في عصبة يسيرة. وأرسل الله على
من تولى منهم صيحة من السماء فإذا هم خامدون.
قال: وكان قد نعى إلى الدهقان ابنه، وكان اسم الدهقان حبيباً النجار، ثم لم يلبث أن
جاءته البشارة بحياة ابنه، ولم يكن له ولد غيره، وأخبر خبر الحواريين، فآمن بهم قبل أن
يراهم، فأقبل مسرعاً. فلم قص عليه ابنه قصته ازداد أيماناً ويقيناً. قال وهب: فيقال: -
والله أعلم - إن هذا هو الذي ذكره الله تعالى في قوله: "وجاء من أقصى المدينة رجل
يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين" الآية. فأوجب الله له بكلامه الجنة، وخير أن يعمر هو
وابنه مائة عام أو يجعل بهما إلى الجنة، فاختارا الجنة؛ وهو قوله تعالى: "أأتخذ من دونه آلهة
إن يردن الرحمن بضر" الآية. قال: ولم يزل يجاهد قومه قبل أن تأخذهم الصيحة ويدعوهم
إلى الله حتى قتلوه، فقيل له: ادخل الجنة "قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني
من المكرمين".

توما الحواري
مع ملك الهند وإيمانه به

قال الكسائي قال وهب: وجاء توما إلى أرض الهند والسند. فبينما هو يتردد على
ساحلهم إذا هو بغلام لملك الهند يقال له حيان، وكان تاجراً. فأتاه توما فقال له: هل لك
أن تبتاعني للملك؟ فقال له حيان: من أنت أيها الرجل الكريم؟. قال له توما: إني كنت
عبداً مملوكاً فاعتقني سيدي وأمرني بالطلب لنفسي، فلم أصادف من الحرية ما كنت أظن،
وكان حالي يوم كنت عبداً خير منه اليوم وأحسن. فقال له حيان: ما أرى عليك ميسم

العبودية، وإني لأرى عليك أثر الخير، ثم قال له: ما الذي تحسن من الأعمال؟ قال: أعمل
سائر الأعمال. فاشتراه بثلاثمائة مثقال من الذهب وانطلق به إلى الملك. فلما رآه أجله
وعظمه، وسأل التاجر عنه فأخبره أنه اشتراه على أن يعمل سائر الأعمال. فقال له الملك:
أريد أن تبني لي قصراً لم يعمل مثله لأحد قط. قال توما: لك ذلك علي، ولكن أرضك
حارة، وإذا بني في زمن الحر كان حاراً لا يسكن من حره، وكذلك في زمن البرد يكون
بارداً، وإني لأرى أن يعمل في زمن الاعتدال، فوافقه الملك على رأيه،. وعرض للملك غزاة
فخرج إليها واستخلف أخاه على الملك، وأمره أن يدفع لتوما ما يحتاج إليه من الأموال
للنفقة على القصر، فصرف له أموالاً كثيرة، ففرقها توما في الفقراء والمساكين حتى أغناهم،
ثم مرض أخو الملك مرضاً شديداً وغاب عن حسه وحركته سبعة أيام. فقدم الملك وهو
على تلك الحال، فلما رد الله عليه روحه قال الملك لتوما: ما فعلت في القصر؟ قال: قد
فرغت منه. فقال الملك لأخيه: ما الذي أعطيته من مالي؟ قال: جميع ما في بيت مالك.
قال: فهل رأيت القصر؟ قال: بنيته لك في السماء. قال: وكيف لي بسلم أنال به السماء؟
قال: تنال السماء بالسلم الذي نالها به أخوك. فقال له أخوه: اسمع مني أيها الملك أخبرك
بالعجب؛ فإنك لو ...لم ما أ...ل عليك هذا الرجل من الخير وصرف عنك من الشر
لقبلت قدميه وجعلته فوق رأسك. قال: أخبرني خبره. قال: أخبرك أن الله عز وجل عرج
بوحي، فعرضني على النار فرأيت أمر عظيماً مهولاً ووصفه لأخيه، ووصف له ما يعذب به
أهل الشرك باله وعبدة الأوثان. قال: ثم قيل لي: إن الله عرضك على النار فأراك ما رأيت
لتكون ملن خلفك نذيراً ، وسيريك الجنة، لتبشر بها قومك، ولتخبر من خلقك بما رأيت.
قال: فأدخلت الجنة فرأيت كذا وكذا، ووصف الجنة ونعيمها وما فيها. قال: وانتهيت إلى
قصر عظيم من أعظم قصورها وأبوابه مغلقة، فقلت لخزنة الجنة: إني أحب أن أشاهد
باطن هذا القصر فإني لم أر مثله. قالوا: إن صاحبه الآن في الدنيا ومفاتيحه عند ملك من

الملائكة. قلت: فلمن ادخر هذا القصر؟ قالوا: هذا لأخيك فلان وهو الآن في الدنيا،
وعنده رسول من عند الله يقال له توما الجواري من حواريى عيسى بن مريم. فإذا رجعت
إليه فبشره وأخبره أنه القصر الذي بناه له توما في السماء، وأنفق فيه بيت ماله. ثم رد الله
بعد ذلك على روحي، وأنت تعلم يا أخي أن لي شطر مالك وملكك وخزائنك، وتعلم ما
لي بعد ذلك من الأموال والخزائن، وأنا أعطيك جميع ذلك على أن تعطيني قصرك الذي
رأيته لك في الجنة. قال: يا أخي، ما كنت لأعطيك الباقي بالفاني. ثم أقبل على توما وآمن
به هو وأهل مملكته، ولم تزل تلك الأمة على دين عيسى حتى أبادها الموت.

لوقا الحواري مع ملك فارس

قال: وأصبح لوقا على باب مدينة من مدائن فارس، وهي التي يسكنها الملك، فإذا غلمان
من أبناء الملوك وأبناء الوزراء جلوس على قارعة الطريق يلعبون. فجلس الحواري إلى
جانب غلام منهم وسأله كيف يلعب، فغلب جميع أولئك. فلما تفرقوا دعاه الغلام إلى
منزله، فقال له: اذهب إلى أبيك واستأذنه في ذلك. فانطلق الغلام إلى أبيه وأخبره بخبر
الشيخ، فأذن له أن يأتيه به، فرجع إليه، وقال له: إن أبي يدعوك، فأقبل معه. فلما ولج باب
الدار قال: باسم الله، فخرج كل شيطان في الدار، وصاحب الدار ينظر إلى ذلك، وكانت
الشياطين تظهر لهم وتشاركهم في طعامهم وشرابهم، فعجب صاحب الدار من ذلك. وقدم
الطعام فأقبلت الشياطين لتأكل على عادتها، فقال لوقا: باسم الله، فنفرت الشياطين وفرت
من الدار. فقال الشيخ: قد رأيت منك اليوم ما لم أره من أحد، وإن لك لشأناً، وخلا به
وقال: لا بد أن تخبرني خبرك ولا تكتمني أمرك. قال: على أن تكتمه ولا تذكره إلا أن آذن
لك، قال نعم. فاستوثق منه وأخبره بخبره. ثم قال له لوقا: أخبرني أي مال الملك أحب إليه
وأعجب عنده؟ قال: ما شيء من ماله أحب إليه وأعجب عنده من برذون حتى يركبه
من سريره. ثم أقام مدة، فقدم البرذون إلى الملك ليركبه على عادته، فلما صار إلى جانب

السرير خر ميتاً، فشق ذلك على الملك وآلمه وقال: وددت لو فديته بمال عظيم، وحزن
جلساء الملك وخواصه لحزنه. قال: وجاء الرجل إلى لوقا وقد حزن لحزن الملك، فسأله
عن سبب حزنه فذكر له قصة البرذون، فقال له: ارجع إلى الملك وقل له: إني أحييه له إن
أطاعني فيما أقول. فرجع إلى الملك وأخبره بذلك، وقال: إن هذا الرجل لما عبر إلى منزلي
نفرت منه الشياطين ولم تطعم من طعامنا، وكانت تأكل معنا قبل ذلك وتشرب كما علمت،
وقد قال: إن أطاعني الملك أحييت له برذونه. فقال الملك: إن نفسي لتطيب بكل شيء
أحيي به هذا البرذون، فعلي بالرجل، فأحضره إلى الملك. فلما دخل الدار لم يبق بها
شيطان إلا خرج. ثم جلس لوقا إلى جانب الملك، فقال له: بلغني أنك تحيي الموتى، فأحي
لي برذوني هذا. فقال له: إن أطعتني فيما أقول لك أحي برذونك. قال الملك: مرني بما
شئت. قال: ادع ابنك وامرأتك، وكان ابنه ولي عهده وامرأته منه بمكان، فدعاهما، فأخذ
لوقا بقائمة من قوائم البرذون، وكل من الملك وابنه وامرأته بقائمة، قم قال الحواري
بالفارسية: "اللهم رب السموات والأرض، خالق السموات والأرض وما فيهما لا إله إلا أنت
وحدك لا شريك لك، أحي هذا العضو الذي في يدي" فتحرك ذلك العضو. ثم قال للملك:
قل كما قلت، فقال الملك مثل قوله: فتحرك العضو الذي في يده. ثم قال لابنه: قل كما أقول،
فقال فتحرك العضو الثالث، ثم قال لامرأته: قولي كما قلت، فدعت بدعائه، فتحرك العضو
الذي في يدها. ثم قال لهم: قولوا جميعاً كما أقول، فقالوا كلهم: "اللهم رب السموات
والأرض خالق السموات والأرض وما فيهما لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك أحي هذا
البرذون". فقام البرذون حياً ينفض ناصيته. فعجب الملك والناس من ذلك. وسأله الملك
عن خبره فأخبره أنه رسول عيسى بن مريم إليه وإلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله تعالى،
فآمنوا به. وقد قيل: إن الذي أرسل إلى أرض فارس متى الحواري، وإنه لما دخل على
الملك كان الملك سكراناً، فلما أحيا الفرس أمر الملك أصحابه بقتل متى فقتلوه. فلما أفاق

الملك من سكره سأل عنه فقيل له: إنك أمرت بقتله فقتلناه، فقال: ما علمت بذلك. فقاموا
إليه وغسلوه وكفنوه ودفنوه. ويقال: إن الله تعالى بعد دفنه خسف بالملك وأولاده وأهله.
والله أعلم. ولنصل أخبار الحواريين بخبر جرجيس وإن لم يكن منهم، فقد كانت له قصة
عجيبة تلتحق بهم.

جرجيس

قال أبو إسحاق الثعلبي رحمه الله تعالى في كتابه المترجم بيواقيت البيان في قصص القرءان
بإسناده عن وهب بن منبه قال: كان بالموصل ملك يقال له داديه، وكان قد ملك الشام كله
ودان له أهله، وكان جباراً عاتياً، وكان يعبد صنماً يقال له أفلون، وكان جرجيس عبداً
صالحاً من أهل فلسطين قد أدرك بقايا من حواريى عيسى -ع-، وكان تاجراً عظيماً كثير
المال عظيم الصدقة، وكان لا يأمن ولاية المشركين عليه مخاف أن يفتنوه عن دينه. فخرج
يريد الموصل ومعه مال يريد أن يهديه إليه حتى لا يجعل لأحد من الملوك عليه سلطاناً دونه.
فجاءه حين جاءه وقد برز في مجلس له وأمر بصنمه أفلون فنصب وأوقد ناراً، فمن لم
يسجد لصنمه ألقي في النار. فلما رأى جرجيس ذلك قطع به وهاله وأعظمه وحدث نفسه
بجهاده، وألقى الله تعالى في نفسه بغضه ومجاهدته. فعمد إلى المال الذي أراد أن يهديه له
فقسمه في أهل ملته حتى لم يبق منه شيء وكره أن يجاهده بالمال. ثم أقبل عليه وقال له:
إنك عبد مملوك لا تملك لنفسك شيئاً ولا لغيرك، وإن فوقك رباً هو الذي ملكك وغيرك،
وهو الذي خلقك ورزقك ويحييك ويميتك ويضرك وينفعك، وإنك عمدت إلى خلق من
خلقه قال له: كن، فكان أصم أبكم لا ينطق ولا يسمع ولا يغني عنك من الله شيئاً، فزينته
بالذهب والفضة فتنة للناس، ثم عبدته من دون الله. فكان من جواب الملك إياه أن سأله
عن حاله وأمره ومن هو ومن أين هو. فأجابه جرجيس: أنا عبد الله وابن عبده وابن أمته
أذل عباده وأفقرهم إليه، من التراب خلقت وإليه أصير. فقال له الملك: لو كان ربك الذي
تزعم كما تقول لرئي عليك أثره كما رئى أثري على من حولي وفي طاعتي. فأجابه

جرجيس بتحميد الله وتعظيم أمره وقال: أتعدل أفلون الأصم الأبكم الذي لا يغني عنك
شيئاً برب العالمين الذي قامت السموات والأرض بأمره!. أو تعدل طرفلينا وما نال بولايتك
فإنه عظيم قومك بما نال إلياس بولاية الله تعالى؛ فإن إلياس كان في بدء أمره آدمياً يأكل
الطعام ويمشي في الأسواق فلم تزل به كرامة الله تعالى حتى أنبت له الريش وألبسه النور
فعاد إنسياً ملكياً سماوياً أرضياً يطير مع الملائكة! أم تعدل مخلنطيس وما نال بولايتك فإنه
عظيم قومك، بالمسيح بن مريم وما نال بولاية الله تعالى فإن الله فضله على رجال العالمين
وجعله وأمه آية للمعتبرين! أم تعدل أمر هذه الروح الطيبة التي اختارها الله لكلمته
وسودها على إمائه وما نالت بولاية الله تعالى، بأزبيل وما نالت بولايتك فإنها كانت من
شيعتك وعلى ملتك، فاسلمها الله مع عظم ملكها حتى اقتحمت عليها الكلاب في بيتها
فانتهشت لحمها وولغت في دمها، وقطعت الضباع أوصالها!.
فقال الملك: إنك لتحدثنا عن
أشياء ليس لنا بها علم؛ فأتني بالرجلين اللذين ذكرت أمرهما حتى أنظر إليهما، فإني أنكر
أن يكون هذا من البشر. قال له جرجيس: إنما جاءك الإنكار من قبل الغرة بالله تعالى.
وأما الرجلان فلن تراهما ولا يريانك إلا أن تعمل بعملهما فتنزل منازلهما. فقال له الملك: أما
نحن فقد أعذرنا إليك وتبين لنا كذبك لأنك فخرت بأمور عجزت عنها. ثم خيره الملك بين
العذاب وبين السجود لأفلون. فقال جرجيس: إن كان أفلون هو الذي رفع السماء ووضع
الأرض فقد أصبت، وإلا فاخسأ أيها النجس الملعون. فلما سمعه الملك غضب وسبه
وسب إلهه وأمر بخشبة فنصبت له وجعل عليها أمشاط الحديد فخدش بها جسده حتى
تقطع لحمه وجلده وعروقه، ونضح خلال ذلك الخل والخردل، فحفظه الله تعالى من ذلك الألم
والهلاك. فلما رأى ذلك لم يقتله أمر بستة مسامير من حديد فأحميت، حتى إذا جعلت
ناراً سمر بها رأسه حتى سال دماغه، فحفظه الله من الألم والهلاك. فلما رأى ذلك لم يقتله
أمر بحوض من نحاس وأوقد عليه حتى إذا جعله ناراً أمر به فأدخل في جوفه وأطبق عليه

فلم يزل فيه حتى برد حره. فلما رأى أن ذلك لم يقتله دعا به فقال: يا جرجيس، أما تجد
ألم هذا العذاب الذي تعذب به؟ فقال: إن ربي الذي أخبرتك به حمل عني ألم العذاب
وصبرني لأحتج عليك. فلما قال له ذلك أيقن الملك بالشر وخافه على نفسه وملكه،
واجتمع رأيه أن يخلده في السجن. فقال له الملأ من قومه: إنك إن تركته طليقاً في السجن
يكلم الناس يوشك أن يميل بهم عليك، ولكن مر له بعذاب في السجن يشغله عن كلام
الناس. فأمر به فبطح في السجن على وجهه ثم أوتد له في يديه ورجليه أربعة أوتاد من
حديد في كل ركن منها وتد. ثم أمر بأسطوان من رخام فوضع على ظهره، وحمل ذلك
الأسطوان ثمانية عشر رجلاً، فظل يومه ذلك موتداً تحت الحجر. فلما أدركه الليل أرسل
الله تعالى إليه ملكاً فقلع عنه الحجر ونزع الأوتاد وأطعمه وسقاه وبشره وعزاه. فلما أصبح
أخرجه من السجن وقال له: الحق بعدوك فجاهده في الله حق جهاده، فإن الله يقول لك:
أبشر واصبر فإني قد ابتليتك بعدوك هذا سبع سنين يعذبك ويقتلك فيهن أربع مرات، في
كل ذلك أرد إليك روحك، فإذا كانت الرابعة تقبلت روحك وأوفيتك أجرك. قال: فلم
يشعر الملك وأصحابه إلا وجرجيس قد وقف على رءوسهم وهو يدعوهم إلى الله تعالى.
فقال له الملك: يا جرجيس من أخرجك من السجن؟ قال: أخرجني الذي سلطانه فوق
سلطانك. فلما قال له ذلك ملئ غيظاً ودعا بأصناف العذاب حتى لم يخلف منها شيئاً.
فلما رآها جرجيس أوجس في نفسه خيفة وفزعاً منها، ثم أقبل على نفسه يعاتبها بأعلى
صوته وهم يسمعون. فلما فرغ من عتابه نفسه مدوه بين خشبتين ثم وضعوا سيفاً على
مفرق رأسه فنشروه حتى سقط من بين رجليه وصار قطعتين، فعمدوا إلى أجزائه
فقطعوها قعطعاً، وللملك سبعة أسود ضارية، وكانوا صنفاً من أصناف عذابه، فرموا
بجسده إليها. فأمرها الله تعالى فخضعت له برءوسها وأعناقها وقامت على براثنها، فظل
يومه ذلك ميتاً وهي أول موتة ماتها. فلما أدركه الليل جمع الله جسده الذي قطعوه بعضه

إلى بعض حتى سواه، ثم رد الله تعالى إليه روحه وأرسل ملكاً فأخرجه من قعر الجب
فأطعمه وسقاه وبشره وعزاه. فلما أصبحوا قال له الملك: يا جرجيس، قال: لبيك! قال:
اعلم أن القدرة التي خلق الله تعالى بها آدم من التراب هي التي أخرجتك من قعر الجب،
الحق بعدوك وجاهده في الله حق جهاده ومت موت الصابرين.
فلم يشعر الملك وأصحابه
إلا وقد أقبل جرجيس وهم في عيد لهم عكوف عليه صنعوه فرحاً بموت جرجيس. فلما
نظروا إليه وقد أقبل قال الملك: ما أشبه هذا بجرجيس! قالوا: كأنه هو. قال الملك: ما
بجرجيس من خفاء إنه لهو، ألا ترون إلى سكون ريحه وقلة هيبته. قال جرجيس: أنا هو،
بئس القوم أنتم! قتلتم ومثلتم فأحياني الله بقدرته، فهلموا إلى هذا الرب العظيم الذي أراكم
ما أراكم. فلما قال لهم ذلك أقبل بعضهم على بعض وقالوا: ساحر سحر أعينكم.
وجمعوا من كان ببلادهم من السحرة. فلما جاءوا قال الملك لكبيرهم اعرض علي من
كبير سحرك ما يقر عيني. قال: ادع لي بثور من البقر. فلما أتى به نفث في إحدى أذنيه
فانشقت باثنتين، ثم نفث في الأخرى فإذا هو ثوران، ثم دعا ببذر فحرث وبذر، فشب
الزرع واستحصد، ثم درس وذرى وطحن وعجن وخبز، كل ذلك في ساعة واحدة. فقال
الملك: هل تقدر أن تمسخه لي دابة؟ قال الساحر: أي دابة أمسخه لك؟ قال: كلباً. قال:
ادع لي بقدح من ماء. فلما أتى بالقدح نفث فيه الساحر ثم قال: اعزم عليه أن يشر به،
فشربه جرجيس حتى أتى على آخره. فلما فرغ منه قال له الساحر: ماذا تجد؟ قال: ما
أجد إلا خيراً، قد كنت عطشت فلطف الله بي بهذا الشراب فقواني به عليكم. فأقبل
الساحر على الملك فقال له: اعلم أيها الملك إنك لو كنت تقاسي رجلاً مثلك إذاً لقد كنت
غلبته، ولكنك تقاسي جبار السموات والأرض. وهو الملك الذي لا يرام.
قال: وكانت امرأة مسكينة من أهل الشام سمعت بجرجيس وما يصنع من الأعاجيب،
فأتته وهو في أشد ما هو فيه من البلاء، فقالت له: يا جرجيس، إني امرأة مسكينة ولم

يكن لي مال إلا ثوراً أحرث عليه فمات، فجئتك لترحمني وتدعو الله تعالى أن يحيي لي
ثوري. فذرفت عيناه، ثم دعا الله تعالى أن يحيى لها ثورها، وأعطاها عصاً وقال لها:
اذهبي إلى ثورك فاقرعيه بهذه العصا وقولي له: احي بإذن الله. فقالت: يا جرجيس، مات
ثوري منذ أيام ومزقته السباع، وبيني وبينه أيام. فقال: لو لم تجدي منه إلا سناً واحدة ثم
قرعتها بالعصا لقام بإذن الله تعالى. فانطلقت حتى أتت مصرع ثورها، وكان أول شيء بدا
لها أحد روقيه وشعر أذنيه، فجمعت أحدهما إلى الآخر ثم قرعتهما بالعصا وقالت كما
أمرها، فقام الثور بإذن الله تعالى وعملت عليه. قال: فلما قال الساحر للملك ما قال، قال
رجل من أصحاب الملك، وكان أعظمهم من بعد الملك، إنكم قد وضعتم أمر هذا الرجل
على السحر، وإنكم عذبتموه فلم يصل إليه عذابكم، وقتلتموه فلم يمت، فهل رأيتم ساحراً
يدرأ عن نفسه الموت وأحيا ميتاً قط؟ فقالوا له: إن كلامك رجل قد صغا إليه فلعله
استهواك. فقال: بل آمنت بالله، واشهدوا أني بريء مما تعبدون فقام إليه الملك وأصحابه
بالخناجر فقتلوه. فلما رأى القوم ذلك اتبع جرجيس أربعة آلاف رجل. فعمد إليهم الملك
فأوثقهم، ثم لم يزل يعذبهم بأنواع العذاب حتى أفناهم. فلما فرغ منهم قال لجرجيس: هلا
دعوت ربك فأحيا لك أصحابك هؤلاء الذي قتلوا بجريرتك!. فقال له جرجيس: ما خلى
بينك وبينهم حتى حان لهم. فقال رجل من عظماء أصحابه يقال له مخلنطيس: إنك
زعمت يا جرجيس أن إلهك هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وإني سائلك أمراً إن فعله
إلهك آمنت بك وصدقتك وكفيتك، إن حولنا أربعة عشر كرسياً ومائدة، وبيننا أقداح
وصحاف وهي من أشجار شتى، فادع إلهك ينشء هذه الكراسي والأواني كما بدأها أول
مرة حتى تعود خضراء يعرف كل عود منها بلونه وورقه وزهره. فقال له جرجيس: قد
سألت أمراً عزيزاً علي وعليك، وإنه على الله لهين، ودعا الله عز وجل، فما برحوا من
مكانهم حتى اخضرت تلك الكراسي والأواني كلها وساخت عروقها وألبست اللحاء

وتشعبت فأورقت وأزهرت وأثمرت. فلما نظروا إلى ذلك انتدب له مخلنطيس الذي تمنى
عليه ما تمنى فقال: أنا أعذب لكم هذا الساحر عذاباً يضل عنه كيده. فعمد إلى نحاس
فصنع منه صورة ثور أجوف واسع، ثم حشاه نفطاً ورصاصاً وكبريتاً وزرنيخاً، ثم أدخل
جرجيس مع الحشو في جوفه، ثم أوقد تحت الصورة حتى التهبت وذاب كل شيء فيها
واختلط، ومات جرجيس في جوفها. فلما مات أرسل الله عز وجل ريحاً عاصفاً فملأت
السماء سحاباً أسود مظلماً، فيه رعد وبرق وصواعق، وأرسل الله تبارك وتعالى إعصاراً
ملأت بلادهم عجاجاً وقتاماً حتى اسود ما بين السماء والأرض ومكثوا أياماً متحيرين في
تلك الظلمة لا يفصلون بين الليل والنهار، وأرسل الله تعالى ميكائيل فاحتمل الصورة التي فيها
جرجيس، حتى إذا أقلها ضرب بها الأرض ففزع من روعها أهل الشام أجمعون فخروا
على وجوههم صعقين، وانكسرت الصورة فخرج منها جرجيس حياً. فلما وقف يكلمهم
انكشفت الظلمة وأسفر ما بين السماء والأرض ورجعت إليهم أنفسهم. فقال له رجل يقال
له طرفلينا: لا ندري يا جرجيس أأنت تصنع هذه الأعاجيب أم ربك! فإن كان ربك هو
الذي يصنع هذا فادعه يحيى موتانا؛ فإن في هذه القبور أمواتاً منه من يعرف ومنهم من لا
يعرف. فقال له جرجيس: لقد علمت ما يصفح الله عنكم هذا الصفح ويريكم هذه
الأعاجيب إلا كانت عليكم حجة، فتستوجبوا غضبه، ثم أمر بالقبور فنبشت وهي عظام
رفات وأقبل على الدعاء، فما برحوا من مكانهم حتى نظروا إلى سبعة عشر إنساناً: تسعة
رهط وخمس نسوة وثلاثة صبية، وإذا فيهم شيخ كبير. فقال له جرجيس: يا شيخ، ما
اسمك؟ فقال: يا جرجيس اسمي نوبيل. قال: متى مت؟ قال: في زمان كذا وكذا.
فحسبوا فإذا هو مات منذ أربعمائة سنة. فلما نظر الملك وأصحباه إلى ذلك قالوا: ما بقي
من أصناف العذاب شيء إلا وقد عذبتموه به إلا الجوع والعطش، فعذبوه بهما. فعمدوا
إلى بيت عجوز كبيرة، وكان لها ابن أعمى أصم أبكم مقعد، فحصروه في بيتها ولا يصل

إليه من عند أحد طعام ولا شراب. فلما بلغ به الجوع قال للعجوز: هل بقي عندك من
طعام أو شراب؟ قالت: لا والذي يحلف به ما عهدنا الطعام منذ كذا وكذا، وسأخرج
ألتمس لك شيئاً. فقال لها جرجيس: هل تعرفين الله تعالى؟ قالت نعم. قال: فإياه
تعبدين؟ قالت لا. فدعاها إلى الله عز وجل فصدقته، وانطلقت تطلب له شيئاً، وفي بيتها
دعامة من خشبة يابسة تحمل خشب البيت، فأقبل على الدعاء، فاخضرت تلك الدعامة
وأنبتت له كل فاكهة تؤكل أو تعرف، حتى كان فيا اللوبيا واللبان مثل البردى يكون بالشام،
وظهر للدعامة فروع من فوق البيت أظلته وما حوله. فأقبلت العجوز وهو فيما شاء يأكل
رغداً. فلما رأت الذي حدث في بيتها من بعدها قالت: آمنت بالذي أطعمك، فادع هذا
الرب العظيم ليشفى ابني. قال: ادنيه مني، فأدنته، فبصق في عينيه فأبصر، ونفث في أذنيه
فسمع. قالت له: أطلق لسانه ورجليه رحمك الله. قال: خذيه فإن له يوماً عظيماً. وخرج
الملك يوماً ليسر في مدينته، إذ وقع بصره على الشجرة، فقال: إني أرى شجرة بمكان ما
كنت أعرفها به. قالوا: تلك شجرة نبتت لذلك الساحر الذي أردت أن تعذبه بالجوع، فهو
فيما شاء وقد شبع منها وأشبع العجوز الفقيرة وشفى لها ابنها. فأمر الملك بالبيت فهدم
وبالشجرة لتقطع. فلما هموا بقطعها أيبسها الله تعالى وردها كما كانت أول مرة، فتركوها.
وأمر بجرجيس فبطح على وجهه وأوتد له أربعة أوتاد، وأمر بعجلة وأوقرها أسطواناً
وجعل في أسفل العجلة خناجر وشفاراً، ثم دعا بأربعين ثوراً فنهضت بالعجلة نهضة
واحدة وجرجيس تحتها، فانقطع ثلاث قطع، فأمر بقطعه فأحرقت بالنار، حتى إذا عادت
رماداً بعث بذلك الرماد وبعث معه رجلاً فذروه في البحر، فلم يبرحوا من مكانهم حتى
سمعوا صوتاً من السماء: يا بحر، إن الله يأمرك أن تحفظ ما فيك من هذا الجسد الطيب،
فإني أريد أن أعيده كما كان. ثم أرسل الله تعالى الريح فأخرجته ثم جمعته حتى صار
الرماد صبرة كهيئته قبل أن يذروه؛ فخرج منه جرجيس مغبراً ينفض رأسه، فرجعوا ورجع

جرجيس، فأخبروا الملك خبر الصوت الذي سمعوا والريح التي جمعته، فقال: هل لك يا
جرجيس فيما هو خير لي ولك ما نحن فيه؟ ولولا أن يقول الناس إنك قهرتني وغلبتني
لاتبعتك وآمنت بك، ولكن اسجد لأفلون سجدة واحدة واذبح له شاة واحدة، ثم إني
أفعل ما يسرك. فقال له نعم، مهما شئت فعلت، فأدخلني على صمتك. ففرح الملك بقوله
فقام وقبل يديه ورجليه ورأسه وقال: إني أعزم عليك ألا تظل هذا اليوم إلا عندي، ولا
تبيت هذه الليلة إلا في بيتي وعلى فراشي، حتى تستريح ويذهب عنك وصب العذاب،
ويرى الناس كرامتك علي، فأخلى له بيت فظل فيه جرجيس، حتى إذا أدركه الليل قام
يصلي ويقرأ الزبور، وكان أحسن الناس صوتاً. فلما سمعت امرأة الملك استجابت له، فلم
يشعر إلا وهي خلفه تبكي معه، فدعاها جرجيس إلى الإيمان فآمنت به، وأمرها فكتمت
إيمانها. فلما أصبح غدا به الملك إلى بيت الأصنام ليسجد لها. وقيل للعجوز التي كان
سجن في بيتها: هل علمت أن جرجيس قد فتن بعدك فأصغى إلى الدنيا وقد خرج به
الملك إلى بيت أصنامه ليسجد لها فخرجت العجوز تحمل ابنها على عاتقها وتوبخ
جرجيس والناس مشغولون عنها. فلما دخل جرجيس بيت الأصنام ودخل الناس معه
نظر فإذا العجوز وابنها على عاتقها أقرب الناس إليه مقاماً؛ فدعا ابن العجوز باسمه فنطق
وأجابه ولم يكن يتكلم قبل ذلك، ثم اقتحم عن عاتق أمه يمشي على رجليه وهما مستويتان
وما وطئ على الأرض قبل ذلك قط. فلما وقف بين يدي جرجيس قال: اذهب فادع لي
هذه الأصنام وهي حينئذ سبعون صنماً على منابر من ذهب، وهم يعبدون الشمس
والقمر معها. فقال له الغلام: كيف أدعو الأصنام؟ قال: قل لها إن جرجيس يسألك ويعزم
عليك بالذي خلقك إلا أجبتيه. قال: فلما قال لها الغلام ذلك أقبلت تدحرج إلى
جرجيس، فلما انتهت إليه ركض الأرض برجله فخسف بها وبمنابرها، وخرج إبليس من
جوف صنم منها هارباً فرقاً من الخسف، فلما مر بجرجيس أخذ بناصيته، فخضع له

وكلمه جرجيس فقال له: أخبرني أيها الروح النجسة والخلق الملعون، ما الذي يحملك على
أن تهلك نفسك وتهلك الناس وأنت تعلم أنك وجندك تصيرون إلى جهنم؟ فقال له إبليس:
لو خيرت بين ما أشرقت عليه الشمس وأظلم عليه الليل وبين هلكة واحد من بني آدم
وضلالته وطرفة عين لاخترته على ذلك كله، وإنه ليقع لي من الشهوة واللذة في ذلك مثل
جميع ما يتلذذ به جميع الخلائق. ألم تعلم يا جرجيس أن الله تعالى أسجد لأبيك آدم جميع
الملائكة فسجدوا كلهم وامتنعت أنا من السجود وقلت أنا خير منه!. فلما قال هذا أخلاه
جرجيس. فما دخل إبليس منذ ذلك اليوم جوف صنم ولا يدخله بعدها فيما يذكرون
أبداً. فقال الملك: يا جرجيس خدعتني وغدرتني وأهلكت آلهتي. فقال جرجيس للملك:
إنما فعلت ذلك لتعتبر ولتعلم أنها لو كانت آلهة لامتنعت مني فكيف ثقتك - ويلك – بآلهة
لم تمنع أنفسها مني! وإنما أنا مخلوق ضعيف لا أملك إلا ما ملكني ربي. فلما قال جرجيس
هذا كلمتهم امرأة الملك وكشفت لهم إيمانها، وعددت عليهم أفعالهم أفعال جرجيس والعبر
التي أراهم الله تعالى، وقالت لهم: ما تنظرون من هذا الرجل إلا د..رةً فيخسف الله بكم
الأرض كما خسف بأصنامكم. الله الله أيها القوم في أنفسكم!. فقال لها الملك: ويحك يا
سكندرة! ما أسرع ما أضلك هذا الساحر في ليلة واحدة وأنا أقاسيه منذ سبع سنين
فلم يظفر مني بشيء قط! فقالت: أما رأيت الله كيف يظفره بك ويسلطه عليك فيكون له
الفلج والحجة عليك في كل مواطن!. فأمر بها الملك عند ذلك فحملت على خشبة
جرجيس التي كان عليها علق، وحملت عليها الأمشاط التي جعلت على جرجيس. فلما
تألمت قالت: ادع ربك يا جرجيس فيخفف عني فإني قد آلمني العذاب. فقال لها: انظري
فوقك. فلما نظرت ضحكت. فقال لها: ما الذي يضحكك؟ قالت: أرى ملكين فوقي
معهما تاج من حلي الجنة ينتظران به روحي أن تخرج. فلما خرجت أتيا بذلك التاج ثم
صعدا بها إلى الجنة. قال: فلما قبض الله تعالى روحها أقبل جرجيس على الدعاء فقال:

اللهم أنت أكرمتني بهذا البلاء لتعطيني فضائل الشهداء، فهذا آخر أيامي التي وعدتني فيه
الراحة من بلائك، فإني أسألك ألا تقبض روحي ولا أزول من مكاني هذا حتى تنزل بهؤلاء
القوم من سطوتك ونقمتك ما لا قبل لهم به حتى تشفي به صدري وتقربه عيني؛ فإنهم
ظلموني وعذبوني. اللهم وأسألك ألا يدعو بعدي داع في بلاء وكرب فيذكرني ويشير باسمي
إلا فرجت عنه ورحمته وأجبته وشفعني فيه. فلما فرغ من هذا الدعاء أمطر الله عليهم
ناراً من السماء. فلما رأوا ذلك عمدوا إليه وضربوه بالسيوف غيظاً عليه من شدة الحريق
ليعطيه الله تعالى بالقتلة الرابعة ما وعده. ثم احترقت المدينة بجميع ما فيها وصارت
رماداً، فحملها الله من وجه الأرض وجعل عاليها سافلها، فمكثت زماناً يخرج من تحتها
دخان منتن لا يشمه أحد إلا سقم سقماً شديداً. وكان من آمن بجرجيس وقتل معه أربعة
وثلاثون ألفاً وامرأة الملك. قالوا: وكان جرجيس في أيام ملوك الطوائف.
وحيث انتهى بنا القول في سرد ما شرحناه من قصص الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين،
وما اتصل بذلك من الأخبار؛ فلنذكر الآن التذييل الذي شرحناه في ترجمة هذا القسم
للسبب الذي قدمناه. وبالله المستعان.

التذييل

على القسم الثالث من الفن الخامس

يشتمل على ذكر الحوادث التي تظهر قبل نزول عيسى بن مريم إلى الأرض، وما يكون من
الفتن والحروب، وخروج من يخرج ويتغلب على البلاد، وخروج المهدي والدجال ونزول
عيسى بن مريم وقتله الدجال، وخروج يأجوج ومأجوج وهلاكهم، ووفاة عيسى بن مريم،
وما يكون بعده من أشراط الساعة ويوم القيامة والنفخ في الصور والحشر والمعاد. مما أورد
إن شاء الله تعالى ذلك من كتب الحديث الصحيح النبوي، ومن كتاب المبتدا للكسائي،
ومن كتاب العاقبة للشيخ أبي محمد عبد الحق بن عبد الحق بن عبد الله الأزدي الإشبيلي
على سبيل الاختصار.

الباب الأول من التذييل على القسم الثالث من الفن الخامس في ذكر الحوادث التي تظهر قبل نزول عيسى بن مريم

ولنبدأ بذكر الملاحم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ستصالحكم الروم صلحاً
آمناً، ثم تغزون أنتم وهم عدوا فتنتصرون وتغنمون وتسلمون ثم تنصرفون حتى تنزلوا بمرج
ذي تلول، فيرفع الرجل من أهل الصليب الصليب فيقول غلب الصليب، فيغضب رجل من
المسلمين فيقوم إليه فيدقه، فعند ذلك تغدر الروم ويجتمعون للملحمة فيأتون حينئذ تحت
ثمانين غاية تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً". وعنه صلى الله عليه وسلم: "إذا وقعت الملاحم
بعث الله بعثاً من الموالي هم أكرم العرب فرساً وأجوده سلاحاً يؤيد الله بهم الدين". وعنه
صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الملحمة الكبرى وفتح القسطنطنية وخروج الدجال في
سبعة أشهر". وعنه صلى الله عليه وسلم: "لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً صغار
الأعين ذلف الأنوف كأن وجوههم المجان المطرقة ولا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً نعالهم
الشعر". وفي الحديث الآخر: "إن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قوماً عراض الوجوه كأن
وجوههم المجان المطرقة. وإن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قوماً ينتعلون الشعر". وعنه
صلى الله عليه وسلم: "لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً صغار الأعين عراض الوجوه كأن
أعينهم حدق الجراد كأن وجوهم المجان المطرقة ينتعلون الشعر ويتخذون الدرق يربطون
خيولهم بالنخل". خرج هذه الأحاديث ابن ماجة.

ذكر خبر المتغلبين على البلاد
وذلك مما يظهر من الفتن قبل نزول عيسى -ع-

قال أبو الحسن الكسائي عن كعب الأحبار: ولا بد أن يحدث بين يدي نزول عيسى
علامات وحروب وفتن، فأول من يخرج ويغلب على البلاد رجل اسمه الأصهب من بلاد
الجزيرة، ويخرج الجرهمي من بلاد الشام، ويخرج القحطاني بأرض اليمن، وهو أمثل هؤلاء
الثلاثة شوكة. فبينا هؤلاء الثلاثة في مواضعهم وقد تغلبوا على أمكنتهم بالظلم والجور إذا
هم بالرجل السفياني قد خرج من غوطة دمشق، وقيل: إنه يخرج من الشام، وقيل: إنه يخرج
من الوادي اليابس. وأخواله من كلب، واسمه معاوية بن عنبسة، وهو ربع من الرجال،

دقيق الوجه، طويل الأنف، محدودب، جهوري الصوت، يكسر عينه اليمنى؛ يحسبه الذي
يراه كأنه أعور وليس بأعور، يظهر في أول أمره بالزهد ويبذل الأموال، ويخطب له على منابر
الشام، ويكون جريئاً على سفك الدماء لمن خالفه، ويعطل الجمعة والجماعة. وعلامة بدء
أمره أنه يخرج في كل مدينة دجال يدعو إلى نفسه، ويظهر الفسق حتى إنهم يفجرون في
المساجد، فيخرج عليهم السفياني حتى ينزل أرض دمشق، فيجتمع إليه القوم ويبايعونه،
ويفرق الأموال الكثيرة بينهم حتى يقولوا هذا خير أهل الأرض. ثم يسير في الشام وعلى
مقدمته رجل من جهينة يقال له ناجية حتى ينزل العراق، فيخرج إليه القحطاني جيشاً
كثيراً فيهزمهم ناجية هزيمة قبيحة، فعند ذلك يوجه السفياني ثلاث جيوش: جيش إلى
الكوفة فيقتلون قتلاً ذريعاً، وجيش إلى خراسان فيقتلون ويحرقون، جيش إلى الروم حتى
يكثر القتل منهم في الدنيا وفي كل طريق. فعند ذلك يجتمع الصالحون على السفياني.
ويخوفونه عقوبة الله في سفك الدماء، فيأمر بقتلهم وقتل العلماء والزهاد في جميع الآفاق.
فعند ذلك يجتمع المسلمون على رجل من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقال
له محمد بن علي فيبايعونه ويسمونه المهدي. والله أعلم.

ذكر خبر خروج المهدي

قال ابن عباس رضي الله عنهما: يبايع بين مكة والركن، ويكون أول أمره على عدد أهل
بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً. وقيل: إنه يخرج قبل هذا ولي من قرية قرى حرس في ثلاثين
رجلاً، ثم يجتمع إليه المؤمنون من كل ناحية، ثم ينكسف القمر ثلاث ليال متواليات، ثم يظهر
المهدي بمكة ويشيع أمره؛ فيبلغ ذلك الزهراني صاحب السفياني، فيبعث إلى المهدي
جيشاً ثلاثين ألفا فينزلون في البرية. ثم يخرج السفياني إلى البيداء، فإذا استقر بالموضع
خسف الله تعالى بهم الأرض، فيأخذهم إلى أعناقهم حتى لا يفلت منهم إلا رجلان
يخرجان بفرسيهما، فإذا وصلوا إلى القوم رأوهم وقد خسف الله بهم، فيخسف الأرض
بواحد منهما، ويحول الله وجه الآخر إلى قفاه، فيبقى كذلك مدة حياته. ثم يخرج المهدي

بمن معه إلى بلاد الروم فيسير حتى يسمع بهلاك السفياني وأصحابه. قال: وذلك قوله
تعالى: "ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب". فيحمد المهدي الله تعالى
على ذلك، ويخرج إلى بلاد الروم في نحو مائة ألف فيصل إلى القسطنطينية، فيدعوا ملك
الروم إلى الإسلام فيأبى فيقاتله، ويدوم القتال بينهم شهرين، ثم ينهزم ملك الروم. ويدخل
المسلمون إلى القسطنطينية، فينزل المهدي لى بابها، ولها سبعة أسوار، فيكبر سبع
تكبيرات فينهدم كل سور منها بتكبيرة. ويدخلها المهدي ويقتل خلقاً كثيراً ويقتل ملك
الروم، ثم يرفع عنهم السيف، ويأخذ المسلمون من الغنائم ما لا يحصى، حتى إن الرجل
ليأخذ من الجوهر ما يعجز عن حمله. فبينما هم كذلك إذ يأتيهم الخبر من خليفة المهدي
بخروج الدجال واجتماع الناس عليه، فيتركون تلك الغنائم وينصرفون إلى بلادهم مسرعين
لمحاربة الدجال. فيقال: إن المهدي يسير نحو الدجال وعلى رأسه عمام رسول الله صلى
الله عليه وسلم، فيلتقون ويقتتلون قتالاً شديداً، فيقتل من أصحاب الدجال أكثر من ثلاثين
ألفاً، ثم ينهزم الدجال فيمر نحو بيت المقدس، فيأمر الله الأرض بإمساك قوائم خيله، ويرسل
عليهم ريحاً حمراء فتقتل منهم أربعين ألفاً. قال: ثم يقبل المهدي بجيشه زهاء مائة ألف، في
أيديهم الرايات البيض. فيقول المهدي لعسكر الدجال: ويلكم! أتشكون في هذا الأعور
الكذاب أنه الدجال؟ فيقولون: لا، ولكنا نعيش في طعامه. فيمسخون في الحال قردة
وخنازير. ثم ينزل عيسى بعد ذلك إلى الأرض ويصلي خلف المهدي، على ما نذكره إن
شاء الله تعالى.

ذكر خبر خروج الدجال وصفته
وما يكون من أمره إلى أن ينزل عيسى -ع-

قال كعب: إن الدجال رجل طويل، عريض الصدر، مطموس العين اليمنى، واليسرى كأنها
كوكب دري، مكتوب بين عينيه: "كافر"، يقرؤه كل كاتب أو غير كاتب. ويدعى أنه الرب،
ومعه يومئذ جبل من خبز، وجبل من لحم، وأجناس الفواكه والخمور، ومعه أصحاب

الملاهي يمشون بين يديه بالطبول الطنابير والمعازف والعيدان والنايات والصنوج وغير ذلك،
فلا يسمعه أحد إلا وتبعه وفتنه إلا من عصمة الله. ويكون معه نار وجنة، وهو يقول: من
أطاعني أدخلته الجنة، ومن عصاني ولم يسجد لي ألقيته في النار. قال: وعلامة خروجه أن
تهب ريح مثل ريح قوم عاد، وتسمع صيحة عظيمة مثل صيحة قوم صالح، ويكون مسخاً
كمسخ أصحاب الرس، وذلك عند ترك الناس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فإذا
أخذوا في سفك الدماء، واستحلوا الربا وشيدوا البنيان وشربوا الخمور، واكتفى الرجال
بالرجال، والنساء بالنساء، فعند ذلك يخرج الدجال من جهة المشرق من قرية يقال لها
سيراباد بي الأهواز وأصفهان، ويخرج على حمار له. قال: وهو أحمر الحاجبين، أشعر
الأنف، تخرج من خلل أسنانه رائحة لا يشمها أحد ألا صار إليه نتنه، في جبهته قرن
مكسور تخرج منه الحيات والعقارب، محدودب الظهر، قد صورت آلات السلاح في جسده
حتى الرمح والفأس والسهم والدرق. وهو يتناول السحاب بيده، ويخوض البحار إلى
كعبيه، ويستظل في ظل أذن حماره خلق كثير من أولاد الزنا، عليهم خفاف مخروطة،
لخفافهم مناقير كمناقير العقبان، لأصابعهم أظافير كالمناجل، ومعه قوم من السحرة يقلبون
الجبال خبزاً والأنهار شراباً، ولا يطعم ولا يسقى إلا من آمن به. ومعه صاحب لوائه من
قريته ينادي بأعلى صوته: هذا ربكم فاعرفوه. فإذا سار الدجال سارت معه جبال طعامه
وأنهار شرابه، وإذا وقف وقفت. يطوف الأرض شرقها وغربها حتى يدخل أرض بابل
فيلقاه الخضر، فيقول له الدجال: أنا رب العالمين. فيقول له الخضر: كذبت يا دجال! إن رب
العالمين رب السموات والأرضين. فيقتله الدجال ويقول: لو كان لهذا إله كما يزعم لأحياه.
فيحي الله الخضر من ساعته فيقوم ويقول: ها أنا يا دجال، قد أحياني الله ربي. ثم يقبل
الخضر على أصحابه ويقول: ويلكم! لا يفتننكم هذا الكافر.
ويقال: إنه يقتل الخضر ثلاث
مرات ويحييه الله تعالى. ثم يخرج الدجال نحو مكة، فإذا دنا منها رأى الملائكة محدقين

بالبيت الحرام قد نشروا أجنحتهم على الكعبة، يخرج من خلل أجنحتهم مثل شرر النيران،
فلا يقدر على دخولها. ثم يسير إلى المدينة فيجدها كذلك. ثم يمضي إلى بيت المقدس فلا
يقدر على دخوله لكثرة من حوله من الملائكة. واختلف في مدة إقامته في الأرض، فقيل
أربعين سنة، وقيل أربعين يوماً، على ما نورد ذلك من الحديث الصحيح النبوي الذي يشمل
ذكر هذه الفتن كلها. قال: وأما المسلمون فإنهم يصومون ويصلون كما كانوا غير أنهم في غم،
قد تركوا المساجد ولزموا البيوت، وتطلع الشمس متلونة: مرة بيضاء، ومرة صفراء، ومرة
حمراء، ومرة سوداء، وتكون الأرض في الزلزلة والرجفة، ثم يكون بينه وبين المهدي ما
قدمنا، ثم ينزل عيسى بن مريم -ع-.
الباب الثاني من التذييل
على القسم الثالث من الفن الخامس
في خبر نزول عيسى بن مريم -ع- وقتله الدجال
وخروج يأجوج ومأجوج وفسادهم وهلاكهم، ووفاة عيسى -ع-
لما رأيت أهل السير قد أكثروا من القول في نزول عيسى -ع- وزادوا في القول ونقصوا منه،
عدلت عن أقوالهم، وأوردت ما أذكره من ذلك من الحديث الصحيح النبوي، وكذلك خروج
يأجوج ومأجوج وهلاكهم. وختمت هذا الباب بالحديث الشامل في خروج الدجال، ونزول
عيسى بن مريم -ع- وغير ذلك. وهذه الأحاديث خرجتها من كتاب السنن للإمام الحافظ
أبي عبد الله محمد ابن يزيد بن ماجة القزويني، رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين.
ذكر نزول عيسى بن مريم -ع-
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد ذكر فتنة الدجال وما يلاقيه الناس منه، قال:
"فبينما هم كذلك إذ بعث الله عيسى بن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق
بين مهرودتين واضع كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفع رأسه يتحدر
منه جمان كاللؤلؤ، ولا يحل لكافر أن يجد ريح نفسه إلا مات. ونفسه ينتهي حيث ينتهي
طرفه، فينطلق حتى يدرك الدجال فيقتله عند باب لد". قال: "ثم يأتي نبي الله عيسى
-ع- قوماً قد عصمهم الله فيمسح وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة". والله أعلم.

ذكر خبر يأجوج ومأجوج
صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل
يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فستحفرونه غداً فيعيده
الله عز وجل أشد ما كان حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم إلى الناس حفروا
حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله واستثنوا
فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الأرض فينشفون المياه
ويتحصن الناس منهم في حصونهم فيرمون بسهامهم إلى السماء فيرجع عليهم الدم الذي
أجفط فيقولون قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء فيبعث الله عليهم نغفاً في أقفائهم
فيقتلهم بها". قال صلى الله عليه وسلم: "والذي نفسي بيده إن دواب الأرض لتسمن
وتشكر شكراً من لحومهم ودمائهم". وفي الحديث الآخر: "إن الله تعالى يوحي إلى عيسى
أني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم فاحرز عبادي إلى الطور. ويبعث الله
يأجوج ومأجوج وهم كما قال الله تعالى "من كل حدب ينسلون" فيمر أوائلهم على بحيرة
طبرية فيشربون ما فيها ثم يمر آخرهم فيقولون لقد كان في هذا ماء مرة وليحصر نبي الله
عيسى -ع- وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم
فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم
فيصبحون فرس كموت نفس واحدة ويهبط نبي الله عيسى وأصحابه فلا يجدون موضع
شبر إلا قد ملأه زهمهم ونتنهم ودماؤهم فيرغبون إلى الله عز وجل فيرسل عليهم طيراً
كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله عز وجل، ثم يرسل الله عليهم مطراً لا
يكن منه بيت مدر ولا وبر فيغسله حتى يتركه كالزلفة، ثم يقال للأرض أنبتي ثمرتك وردي
بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة فتشبعهم ويستظلون بقحفها، ويبارك الله في الرسل
حتى إن اللقحة من الإبل تكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر تكفي القبيلة، واللقحة

من الغنم تكفي الفخذ. فبينما هم كذلك إذ بعث الله عليهم ريحاً طيبة فتأخذ تحت
آباطهم فتقبض روح كل مسلم ويبقى سائر الناس يتهارجون كما يتهارج الحمر، فعليهم تقوم
الساعة". وفي الحديث الصحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: "لما كان ليلة
أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم لقي إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام
فتذاكروا الساعة فبدءوا بإبراهيم فسألوه عنها فلم يكن عنده منها علم، ثم سألوا موسى
فلم يكن عنده منها علم، فرد الحديث إلى عيسى بن مريم فقال قد عهد إلي فيما دون
وجبتها، فأما وجبتها فلا يعلمها إلا الله، فذكر خروج الدجال قال فأنزل فأقتله فيرجع الناس
إلى بلادهم فيستقبلهم يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، فلا يمرون بماء إلا
شربوه ولا بشيء إلا أفسدوه، فيجئرون إلى الله تعالى فأدعو الله أن يميتهم فتنتن الأرض من
ريحهم، فيجئرون إلى الله فأدعو الله فيرسل السماء بالماء فيحملهم فيلقيهم في البحر ثم
تنسف الجبال وتمد الأرض مد الأديم فعهد إلي متى كان ذلك كانت الساعة من الناس
كالحامل لا يدري أهلها متى تفجأهم بولادتها". قال العوام بن حوشب وهو من رواة هذا
الحديث: ووجد تصديق ذلك في كتاب الله تعالى: "حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم
من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق". وفي الحديث الآخر عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم أنه قال: "يفتح يأجوج ومأجوج فيخرجون كما قال الله تعالى: "وهم من كل
حدب ينسلون" فيعمون الأرض وينحاز منهم المسلمون حتى تصير بقية المسلمين في مدائنهم
وحصونهم ويضمون إليهم مواشيهم، حتى إنهم ليمرون بالنهر فيشربونه حتى ما يذرون فيه
شيئاً. فيمر آخرهم على أثرهم فيقول قائلهم لقد كان بهذا المكان مرة ماء. ويظهرون على
الأرض، فيقول قائلهم هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم ولننازلن أهل السماء، حتى إن
أحدهم ليهز حربته إلى السماء فترجع مخضبة بالدم، فيقولون قد قتلنا أهل السماء. فبينما
هم كذلك إذ بعث الله دواب كنغف الجراد فتأخذ بأعناقهم فيموتون موت الجراد يركب

بعضهم بعضاً، فيصبح المسلمون لا يسمعون لهم حساً، فيقولون من رجل يشري نفسه
وينظر ما فعلوا، فينزل منه رجل قد وطن نفسه على أن يقتلوه فيجدهم موتى، فيناديهم ألا
أبشروا فقد هلك عدوكم، فيخرج الناس ويخلون سبيل مواشيهم فما يكون لهم رعي إلا
لحومهم فتشكر عليها كأحسن ما شكرت من نبات أصابته قط".
وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "سيوقد المسلمون من قسي يأجوج ومأجوج ونشابهم وأترستهم
سبع سنين. والله المعين.
الحديث الجامع لأخبار عيسى بن مريم -ع- والدجال قال الإمام الحافظ
أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة القزويني في سننه: حدثنا علي بن محمد
قال حدثنا عبد الرحمن المحاربي عن إسماعيل بن رافع أبي رافع عن أبي
زرعة السيباني يحيى بن أبي عمرو عن أبي أمامة الباهلي قال: خطبنا
رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان أكثر خطبته حديثاً حدثناه عن
الدجال وحذرناه، فكان من قوله أن قال: "إنه لم تكن فتنة في الأرض منذ
ذرأ الله ذرية آدم صلى الله عليه وسلم أعظم من فتنة الدجال، وإن الله عز
وجل لم يبعث نبياً إلا حذر أمته الدجال. وأنا آخر الأنبياء وأنتم آخر الأمم،
وهو خارج فيكم لا محالة. فإن يخرج وأنا بين ظهرانيكم فأنا حجيج لكل
مسلم، وإن يخرج من بعدي فكل امرئ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل
مسلم. وإنه يخرج من حلة بين الشام والعراق فيعيث يميناً ويعيث شمالاً يا
عباد الله فأثبتوا فإني سأصفه لكم صفة لم يصفها إياه نبي قبلي: إنه يبدأ
فيقول أنا نبي، ولا نبي بعدي، ثم يثني فيقول أنا ربكم، ولا ترون ربكم حتى
تموتوا، وإنه أعور وإن ربكم عز وجل ليس بأعور، وإنه مكتوب بين عينيه
كافر يقرءه كل مؤمن كاتب أو غير كاتب. وإن من فتنته أن معه جنة وناراً،

فناره جنة، وجنته نار. فمن ابتلى بناره فليستغث بالله وليقرأ فواتح الكهف
فتكون عليه برداً وسلاماً كما كانت النار على إبراهيم. وإن من فتنته أن
يقول لأعرابي أرأيت إن بعثت لك أباك وأمك أتشهد أني ربك فيقول نعم،
فيتمثل له شيطانان في صورة أبيه وأمه فيقولان يا بني اتبعه فإنه ربك. وإن
من فتنته أن يسلط على نفس واحدة فيقتلها وينشرها بالمنشار حتى تلقى
شقين، ثم يقول انظروا إلى عبدي هذا فإني أبعثه الآن، ثم يزعم أن له رباً
غيري، فيبعثه الله ويقول له الخبيث من ربك؟ فيقول ربي الله وأنت عدو
الله أنت الدجال، والله ما كنت بعد أشد بصيرة بك مني اليوم".
قال أبو
الحسن الطنافسي فحدثنا المحاربي حدثنا عبيد الله ابن الوليد الوصافي عن
عطية عن أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ذلك
الرجل أرفع أمتي درجة في الجنة". قال قال أبو سعيد: والله ما كنا نرى
ذلك الرجل إلا عمر بن الخطاب حتى مضى لسبيله. قال قال أبو سعيد:
والله ما كنا نرى ذلك الرجل إلا عمر بن الخطاب حتى مضى لسبيله. قال
المحاربي ثم رجعنا إلى حديث أبي رافع قال: "وإن من فتنته أن يأمر السماء
أن تمطر فتمطر، ويأمر الأرض أن تنبت فتنبت. وإن من فتنته أن يمر بالحي
فيكذبونه فلا تبقى لهم سائمة إلا هلكت. وإن من فتنته أن يمر بالحي
فيصدقونه فيأمر السماء أن تمطر فتمطر ويأمر الأرض أن تنبت فتنبت حتى
تروح مواشيهم من يومهم ذلك أسمن ما كانت وأعظمه وأمده خواصر وأدره
ضروعاً. وإنه لا يبقى شيء من الأرض إلا وطئه وظهر عليه إلا مكة
والمدينة لا يأتيهما من نقب من نقابهما إلا لقيته الملائكة بالسيوف صلته
حتى ينزل عند الظريب الأحمر عند منقطع السبخة فترجف المدينة بأهلها

ثلاث رجفات فلا يبقى منافق ولا منافقة إلا خرج إليه، فتنفى الخبث منها
كما ينفي الكير خبث الحديد، ويدعى ذلك اليوم يوم الخلاص. فقالت أم
شريك بنت أبي العكر يا رسول الله فأين العرب يومئذ؟ قال هم يومئذ
قليل وجلهم بيت المقدس وإمامهم رجل صالح. فبينما إمامهم قد تقدم
يصلي بهم الصبح إذ نزل عليهم عيسى بن مريم -ع- الصبح، فرجع ذلك
الإمام ينكص يمشي القهقري ليتقدم عيسى -ع- يصلي بالناس، فيضع -ع-
يديه بين كتفيه ثم يقول له تقدم فصل فإنها لك أقيمت فيصلي بهم إمامهم،
فإذا انصرف قال عيسى -ع- افتحوا الباب فيفتح ووراءه الدجال ومعه
سبعون ألف يهودي كلهم ذو سيف محلى وساج، فإذا نظر إليه الدجال
ذاب كما يذوب الملح في الماء فينطلق هارباً، ويقول عيسى -ع- إن لي فيك
ضربة لن تسبقني بها فيدركه عند باب اللد الشرقي فيقتله فيهزم الله اليهود
فلا يبقى شيء مما خلق الله عز وجل يتوارى به يهودي إلا أنطق الله ذلك
الشيء لا حجر ولا شجر ولا حائط ولا دابة إلا الغرقدة فإنها من شجرهم
لا تنطق إلا قال يا عبد الله المسلم هذا يهودي فتعال اقتله. قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم وإن أيامه أربعون سنة، السنة كنصف السنة، والسنة
كالشهر، والشهر كالجمعة، وآخر أيامه كالشررة يصبح أحدكم على باب
المدينة فلا يبلغ بابها الآخر حتى يمسي. فقيل له يا رسول الله كيف نصلي
في تلك الأيام القصار؟ قال تقدرون فيها الصلاة كما تقدرونها في هذه الأيام
الطوال ثم صلوا. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيكون عيسى بن
مريم في أمتي حكماً عدلاً وإماماً مقسطاً، يدق الصليب، ويذبح الخنزير،
ويضع الجزية، ويترك الصدقة فلا يسعى على شاة ولا بعير، وترفع الشحناء

والتباغض، وتترع حمة كل ذات حمة حتى يدخل الوليد يده في في الحية فلا
تضره، وتفر الوليدة الأسد فلا يضرها، ويكون الذئب في الغنم كأنه كلبها،
وتملأ الأرض من السلم كما يملأ الإناء من الماء، وتكون الكلمة واحدة فلا
يعبد إلا الله، وتضع الحرب أوزارها، وتسلب قريش ملكها، وتكون الأرض
كماثور الفضة - وقيل كفاثور الفضة - تنبت نباتها بعهد آدم حتى يجتمع
النفر على القطف من العنب فيشبعهم، ويجتمع النفر على الرمانة فتشبعهم،
ويكون الثور بكذا وكذا من المال، ويكون الفرس بالدريهمات. قالوا يا
رسول الله: وما يرخص الفرس؟ قال: لا يركب لحرب أبداً. قيل له: فما
يغلي الثور؟ قال تحرث الأرض كلها. وإن قبل خروج الدجال ثلاث سنوات
شداد يصيب الناس فيها جوع شديد، يأمر الله السماء في السنة الأولى أن
تحبس ثلث مطرها ويأمر الأرض فتحبس ثلث نباتها، ثم يأمر السماء في
السنة الثانية فتحبس ثلثي مطرها ويأمر الأرض فتحبس ثلثي نباتها، ثم يأمر
السماء في السنة الثالثة فتحبس مطرها كله فلا تقطر قطرة ويأمر الأرض
فتحبس نباتها كله، فلا تنبت خضراً، ولا تبقى ذات ظلف إلا هلكت إلا
ما شاء الله عز وجل. قيل: فما يعيش الناس في ذلك الزمان؟ قال: التهليل
والتكبير والتسبيح والتحميد ويجري ذلك عليهم مجرى الطعام". قال
المحاربي: ينبغي أن يدفع هذا الحديث إلى المؤدب حتى يعلمه الصبيان في
المكاتب.

الباب الثالث من التذييل
على القسم الثالث من الفن الخامس
في ذكر ما يكون بعد وفاة عيسى بن مريم -ع- إلى أن ينفخ إسرافيل
في الصور النفخة الأولى
ذكر خروج الدابة وطلوع الشمس من مغربها

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "تخرج الدابة
ومعها خاتم سليمان بن داود وعصا موسى بن عمران، فتجلو وجه المؤمن بالعصا، وتحطم
أنف الكافر بالخاتم، حتى إن أهل الحواء ليجتمعون فيقول هذا يا مؤمن ويقول هذا يا كافر".
وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه رضي الله عنهما قال: ذهب بي رسول الله صلى الله
عليه وسلم إلى موضع بالبادية قريب من مكة فإذا أرض يابسة حولها رمل، فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم: "تخرج الدابة من هذا الموضع" فإذا فتر في شبر. قال ابن بريدة:
فحججت بعد ذلك بسنين فأرانا عصاً له، فإذا هي بعصا هذه كذا وكذا. وعن أبي هريرة
رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لا تقوم الساعة حتى
تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمن من عليها؛ فذلك حين لا ينفع نفساً
إيمانها لم تكن آمنت من قبل". وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم: "أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة
على الناس ضحى". قال عبد الله: فآيتهما ما خرجت قبل الأخرى فالأخرى منها قريب.
قال عبد الله: ولا أظنها إلا طلوع الشمس من مغربها. وعن رسول الله صلى الله عليه
وسلم: "إن من قبل مغرب الشمس باب مفتوحاً عرضه سبعون سنة، فلا يزال ذلك الباب
مفتوحاً للتوبة حتى تطلع الشمس من نحوه، فإذا طلعت من نحوه لم ينفع نفس إيمانها لم تكن
آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خير". والله الهادي للصواب.

ذكر خبر قيام الساعة والنفخة الأولى

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما زال صاحب
الصور مذ وكل به مستعداً ينظر نحو العرش إلى أن يؤمر فينفخ قبل أن يرتد إليه طرفه كأن
عينيه كوكبان دريان" . وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الصور؟ فقال: "قرن
ينفخ فيه". وعنه صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: "ونفخ في الصور" قال: "الصور كهيئة

القرن". وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا
تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة دعوتهما واحدة، وحتى
يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله، وحتى يقبض العلم ويكثر
الزلازل ويتقارب الزمان وتظهر الفتن ويكثر الهرج، وهو القتل، وحتى يكثر فيكم المال
فيفيض حتى يهم رب المال من يقبل صدقته، وحتى يعرضه فيقول الذي يعرضه عليه لا
أرب لي به، وحتى يتطاول الناس في البنيان، وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول يا ليتني
مكانه، وحتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين
لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً. ولتقومن الساعة وقد
نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه. ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل
بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقى فيه. ولتقومن الساعة
وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها". هذا من صحيح البخاري. و عن عبد الله بن عمرو
بن العاص وذكر خبر الدجال وقتله قال: .... ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين
عداوة. ثم يرسل الله عز وجل ريحاً باردة من قبل الشام فلا يبقى على وجه الأرض أحد
في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته، حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبل
لدخلته عليه حتى تقبضه. قال فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون
معروفاً ولا ينكرون منكراً، فيتمثل لهم الشيطان فيقول ألا تستجيبون! فيقولون فما تأمرنا؟
فيأمرهم بعبادة الأوثان، وهم في ذلك دار رزقهم حسن عيشهم، ثم ينفخ في الصور فلا
يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً ورفع ليتاً. قال وأول من يسمعه رجل يلوط حوض أبله، قال
فيصعق ويصعق الناس، ثم يرسل الله - أو قال ينزل الله - مطراً كأنه الطل أو الظل -
الشك من الراوي - فتنبت منه أجساد الناس؛ ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون،
ثم يقال يأيها الناس هلموا إلى ربكم". ويروى أن هذا المطر الذي تنبت منه الأجساد كمني

الرجال.
الباب الرابع من التذييل على القسم الثالث من الفن الخامس
في أخبار يوم القيامة والحشر والمعاد والنفخة الثانية في
الصور
ذكر يوم القيامة وأسمائه
هو اليوم الذي وصفه الله عز وجل بالعظمة فقال: "يأيها الناس
اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة
شيء عظيم، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع
كل ذات حمل حملها وترى
الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد". ووصفه
الله بالطول فقال: "في
يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، فأصبر صبراً جميلاً".
وليوم القيامة أسماء جاء بها القرآن، وقد ذكرها عبد الحق في
كتاب العاقبة فقال: "يوم
القيامة وما أدراك ما يوم القيامة! يوم الحسرة والندامة، يوم
يجد كل عامل عمله أمامه، يوم
الدمدمة، يوم الزلزلة، يوم الصاعقة، يوم الواقعة، يوم الراجفة،
يوم الرادفة، يوم الغاشية، يوم
الداهية، يوم الآزفة، يوم الحاقة، يوم الطامة، يوم الصاخة، يوم
التلاق، يوم الفراق، يوم الميثاق،
يوم الانشقاق، يوم القصاص، يوم لات حين مناص، يوم التناد،
يوم الأشهاد، يوم الميعاد، يوم
المآب، يوم العذاب، يوم الفرار، يوم القرار، يوم المرصاد، يوم
السائلة، يوم المناقشة، يوم
الحساب، يوم القضاء، يوم الجزاء، يوم البكاء، يوم البلاء، يوم
تمور السماء موراً وتسير الجبال
سيراً، يوم الحشر، يوم النشر، يوم الجمع، يوم البعث، يوم
العرض، يوم الوزن، يوم الحق، يوم
الحكم، يوم الفصل، يوم الخزي، يوم عقيم، يوم عظيم، يوم
عسير، يوم عبوس، يوم قمطرير، يوم
النشور، يوم المصير، يوم الدين، يوم اليقين، يوم النفخة، يوم
الصيحة، يوم الرجفة، يوم الرجة، يوم
الزجرة، يوم الشدة، يوم الفزع، يوم الجزع، يوم القلق، يوم
العرق، يوم الميقات، يوم تخرج الأموات
وتظهر المخبآت، يوم الإشفاق، يوم الانشقاق، يوم الإنكدار،
يوم الانتشار، يوم الانفطار، يوم
الافتقار، يوم الوقوف، يوم الانصداع، يوم الانقطاع، يوم
معلوم، يوم موعود، يوم مشهود، يوم تبلى
السرائر، يوم تخرج الضمائر، يوم لا تجزي نفس عن نفس شيئاً،
يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً،
يوم يدعي فيه إلى النار، يوم تسجر فيه النار، يوم تقلب فيه
الوجوه في النار، يوم البروز فيه

إلى الله، يوم الصدور إلى الله، يوم لا تنفع المعذرة، يوم لا يرضى إلا المغفرة. قال: وأهول
أسمائه وأشنع ألقابه: يوم الخلود، يوم لا انقطاع لعذابه، ولا آخر لعقابه، ولا يكشف عن كافر
ما به. نعوذ بالله من غضبه وبلائه، برحمته وآلائه. والله معين العاجزين.
ذكر الحشر والمعاد والنفخة الثانية
جاء في بعض التفاسير في قوله تعالى: "ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في
الأرض إلا ما شاء الله" قيل: جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت. قال: ثم يأمر الله
ملك الموت أن يقبض روح جبريل وميكائيل وإسرافيل، ثم يأمر ملك الموت أن يموت فيموت
ولا يبقى إلا الله، فينادي جل جلاله: "لمن الملك اليوم" فلا يجيبه أحد، فيقول: "لله الواحد
القهار". ثم يمكث الناس في البرزخ أربعين عاماً، ثم يحيي الله عز وجل إسرافيل فيأمره أن
ينفخ النفخة الثانية؛ قال الله تعالى: "ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون". وقال تعالى:
"منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى". وقال تعالى: "وهو الذي يبدأ
الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه". روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:
"يأكل التراب كل شيء من الإنسان إلا عجب الذنب". قيل: يا رسول الله، وما هو؟ قيل:
"مثل حبة خردل ومنه ينشأ". وفي الحديث الآخر: "ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون
كما ينبت البقل". وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يقول الله وعزتي
وجلالي ليرجعن كل روح إلى جسده، فتدخل الأرواح في الأرض إلى الأجسام، فتدخل في
الخياشيم ثم تمشي مشي السم في اللديغ". قال: "وتجتمع الأرواح كلها في الصور، ثم ينفخ
إسرافيل فيه فتخرج الأرواح كأنها النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض، ثم تدخل في
الأجساد" كما تقدم. وفي الحديث الصحيح أن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله،
كيف يحشر الناس يوم القيامة؟ قال: "حفاة عراة". قالت: يا رسول الله، والنساء؟ قال:
"والنساء". قالت: يا رسول الله، فما نستحي؟ قال: "يا عائشة الأمر أهم من أن ينظر

بعضهم إلى بعض". وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم: "يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات، فأما عرضتان فجدال ومعاذير،
وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي، فآخذ بيمينه وآخذ بشماله". وعن ابن
عمر رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: "يوم يقوم الناس
لرب العالمين" قال: "يقوم أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه وهو اليوم الذي قال الله تعالى
فيه "كلا لا وزر، إلى ربك يومئذ المستقر، ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر". وقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم: "يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد فيسمعهم الداعي
وينفذهم البصر" يريد أرضاً مستوية لا جبل فيها ولا أكمه ولا ربوة ولا وهدة، أرض بيضاء
لم يسفك عليها دم قط، ولا عمل عليها خطيئة ولا ارتكب فيها محرم. قال الله تعالى: "يوم
تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار". وفي حديث ثوبان: أن النبي
صلى الله عليه وسلم سئل أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟
فقال: "هم في الظلمة دون الجسر" والجسر هو الصراط. وفي حديث عائشة "إنهم على
الصراط". قال الله عز وجل: "ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار". وقال
تعالى: "يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشراً" أي يقول بعضه لبعض سراً، فيقول أعدلهم قولاً
وأرجحهم عقلاً: إن لبثتم إلا يوماً. قال الله عز وجل: "نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم
طريقة إن لبثتم إلا يوماً". وروي عن مجاهد أنه قال: للكفار هجعة قبل يوم القيامة يجدون
فيها طعم النوم، فإذا بعثوا قالوا: يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا! فنخرج الخلائق مذعورين
خائفين وجلين، وإذا المنادي ينادي: "يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون"،
فيطمع في ذلك النداء المؤمنون والكافرون، فينادي المنادي: "الذين آمنوا بآياتنا وكانوا
مسلمين". وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف ركباناً ومشاة وعلى وجوههم". قيل: يا رسول الله،

وكيف يمشون على وجهوهم؟ قال: "إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم
على وجوههم أما إنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك". وفي حديث مسلم بن الحجاج
عن أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله، كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال:
"أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة".
والأحاديث الصحيحة في هذا الباب كثيرة جداً لو استقصيناها لطال الكلام وانبسط
القول، وخرج التأليف عن شرط الذي قدمناه، فلنختم هذا الباب بحديث لقيط بن عامر
العقيلي فإنه حديث جامع لأكثر ما في هذا الباب.
حديث لقيط بن عامر
قال أبو بكر بن أبي خيثمة بإسناده إلى لقيط بن عامر العقيلي قال: خرجت أنا وصاحب
لي حتى قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة لانسلاخ رجب، فأتينا رسول
الله صلى الله عليه وسلم، فوافيناه حين انصرف من صلاة الغداة فقام في الناس خطيباً
فقال: "أيها الناس! ألا إني قد خبأت لكم صوتي منذ أربعة أيام لأسمعكم اليوم. ألا فهل
من امرئ بعثه قومه فقالوا اعلم لنا ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم. ألا ثم لعله
أن يلهيه حديث نفسه أو حديث صاحبه أو يلهيه الضلال. ألا إني مسئول هل بلغت. ألا
أسمعوا تعيشوا ألا اجلسوا" فجلس الناس وقمت أنا وصاحبي، حتى إذا فرغ لنا فؤاده
وبصره قلت: يا رسول الله، ما عندك من علم الغيب؟ فضحك لعمر الله وهز رأسه وعلم
أني أبتغي لسقطه فقال: "ضن ربك عز وجل بمفاتيح خمس من الغيب لا يعلمها إلا الله".
فقلت: وما هن يا رسول الله؟ قال: "علم المنية قد علم متى منية أحدكم ولا تعلمونه.
وعلم المني حين يكون في الرحم قد علمه ولا تعلمونه وعلم ما في غد وما أنت طاعم غداً
ولا تعلمه. وعلم يوم الغيث يشرف عليكم آزلين مسنتين فيظل يضحك قد علم أن غوثكم
قريب". قال لقيط: لم لن نعدم من رب يضحك خيراً. "وعلم يوم الساعة". قلت: يا رسول
الله، إني سائلك عن حاجتي. قال: "سل عما شئت". قلت: يا رسول الله، علمنا مما لا

يعلم الناس ومما تعلم فإنا من قبيل لا يصدقون تصديقنا أحداً من مذحج التي تدنو إلينا،
وخثعم التي تواليناً، وعشيرتنا التي نحن منها. قال: "تلبثون ما لبثتم ثم يتوفى نبيكم ثم
تلبثون ما لبثتم ثم تبعث الصيحة، فلعمر إلهك ما تدع على ظهرها من شيء إلا مات
والملائكة الذين مع ربك، فأصبح ربك يطوف في الأرض وقد خلت عليه البلاد، فأرسل
ربك السماء بهضب من عند العرش، فلعمر إلهك ما تدع على ظهرها من مصرع قتيل ولا
مدفن ميت إلا شقت القبر عنه حتى تخلقه من قبل رأسه فيستوي جالساً، فيقول ربك
مهيم لما كان فيه، فيقول: يا رب أمتني أمس اليوم، لعهده بالحياة يحسبه حديثاً بأهله".
فقلت: يا رسول الله، كيف يجمعنا بعد ما تمزقنا الرياح والبلى والسباع؟ قال: "أنبئك بمثل
ذلك في إلِّ الله الأرض أشرقت عليها وهي مدرة بالية فقلت لا تحيا أبداً ثم أرسل ربك
عليها السماء، فلم تلبث عليها إلا أياماً حتى أشرفت عليها فإذا هي شرية واحدة، فلعمر
إلهك لهو أقدر على أن يجمعهم من الماء على أن يجمع نبات الأرض فتخرجون من الأصواء
ومن مصارعكم فتنظرون إليه ساعة وينظر إليكم". قلت: يا رسول الله، وكيف ونحن ملء
الأرض وهو شخص واحد ينظر إلينا وننظر إليه؟ قال: "أنبئكم بمثل ذلك في إلِّ الله
الشمس والقمر آية منه صغيرة ترونهما ساعة واحدة ويريانكم لا تضارون في رؤيتهما ولعمر
إلهك لهو أقدر على أن يراكم وتروه منهما أن تروهما ويرياكم لا تضارون في رؤيتهما". قلت:
يا رسول الله، فماذا يفعل بنا ربنا إذا لقيناه؟ قال: تعرضون عليه بادية له صفحاتكم لا
يخفى عليه منكم خافية، فيأخذ ربك بيده غرفة من الماء فينضح بها قبلكم، فلعمر إلهك
ما تخطئ وجه واحد منكم منها قطرة، فأما المسلم فتدع وجهه مثل الريطة البيضاء، وأما
الكافر فتخطمه بمثل الحمم الأسود. ألا ثم ينصرف نبيكم ويتفرق على أثره الصالحون،
فتسلكون جسراً من النار يطأ أحدكم الجمرة يقول حس، فيقول ربك وإنه. ألا فتطلعون
على حوض الرسول لا يظمأ والله ناهله فلعمر إلهك ما يبسط أحد منكم يده إلا وقع عليها

قدح يطهره من الطوف والبول والأذى. وتحبس الشمس والقمر فلا ترون منهما واحداً".
قلت: يا رسول الله، فبم نبصر الأرض؟ قال: "بمثل ساعتك هذه" وذلك مع طلوع الشمس
في يوم أشرقته الأرض وواجهته الجبال. قلت: يا رسول الله، فبم نجزى من سيئاتنا
وحسناتنا؟ قال: "الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها إلا أن يعفو الله". قلت: يا رسول
الله، ما الجنة وما النار. قال: "لعمر إلهك إن للنار لسبعة أبواب ما منها بابان إلا يسير
الراكب بينهما سبعين عاماً. وإن للجنة لثمانية أبواب ما منها بابان إلا يسير الراكب بينهما
سبعين عاماً". قلت: يا رسول الله. فعلام نطلع من الجنة؟ قال: "على أنهار من عسل
مصفى، وأنهار من كأس ما بها صداع ولا ندامة، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وماء غير
آسن، وفاكهة لعمر إلهك ما تعلمون وخير من مثله معه وأزواج مطهرة". قلت: يا رسول
الله، ولنا فيها أزواج أو منهن مصلحات؟ قال: "الصالحات للصالحين تلذونهن مثل لذاتكم
في الدنيا ويلذذنكم غير أن لا توالد فيها".
انتهى التذييل على القسم الثالث بعون الله تعالى وحسن توفيقه. والله الموفق للصواب.
القسم الرابع من الفن الخامس ويشتمل على خمسة أبواب
ملوك الأصقاع ووقائع العرب
الباب الأول
ذي القرنين
الذي ذكره الله عز وجل في كتابه العزيز في سورة الكهف
قال الله تعالى: "ويسئلونك عن ذي القرنين قل سأتلوا عليكم منه ذكراً، إنا مكنا له في
الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً". واختلف في تسميته ذا القرنين، فقيل: لبلوغه أطراف
الأرض، وإن الملك الموكل بجبل قاف سماه بذلك. وهذا القول محكى عن ابن عباس رضي
الله عنهما. وقيل: إنما سمي بذلك لأنه كانت له ذؤابتان من الذهب. ويعزى هذا القول إلى
علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وقيل: إنما سمي بذلك لأنه رأي في منامه أنه يدنو من
الشمس فيضع يده في قرنيها من شرقها وغربها، فقص رؤياه على قومه فسموه ذا القرنين،
وهذا القول مروي عن وهب. وقيل: إنما سمي به لأن الله تعالى كان قد بعثه إلى قوم

فضربوه على قرنه فمات، فأحياه الله ثم بعثه إليهم فضربوه على قرنه الآخر فمات، ثم أحياه
الله، فسمي ذا القرنين. وقيل: إنما سمي بذلك لأنه أفنى قرنين من الناس. وقيل: لأنه كريم
الطرفين من أهل بيت شرف من قبل أبيه وأمه. وقيل: لأنه أعطى علم الظاهر والباطن
وقيل: لأنه دخل الظلمة والنور. وقيل: لأنه ملك فارس والروم. وقيل غير ذلك. والله تعالى
أعلم.
قال وهب: كان ذو القرنين رجلاً من أهل الإسكندرية يقال له الإسكندروس. والعجب
كونه نسبه أنه من أهل الإسكندرية، وقد نقل جماعة من أهل التاريخ أن الإسكندر هو
الذي أنشأ الإسكندرية وبناها، فكيف يكون من أهلها وهو الذي أنشأها وإليه نسبت!.
وروي عن وهب أيضاً أن ذا القرنين كان خارجياً في قومه، ولم يكن بأفضلهم نسباً ولا
حسباً ولا موضعاً، ثم قال بعد ذلك: إن الله تعالى بعثه نبياً ورسولاً. ولا يكون الأنبياء إلا
من أفضل قومهم حسباً وأشرفهم نسباً. وقد يكون هذا النقل لاختلاف الروايات. وما آفة
الأخبار إلا رواتها.
قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي في تفسيره عن ابن إسحاق قال حدثني من
يسوق الأحاديث عن الأعاجم فيما توارثوا من علم: أن ذا القرنين كان رجلاً من أهل مصر،
اسمه مرزبان بن مرذبة اليوناني من ولد يونان بن يافث ابن نوح. قال وقال ابن هشام: اسمه
الإسكندر، وهو الذي بنى الإسكندرية، فنسبت إليه. قال وقيل: اسمه هرمس، ويقال
هرديس. وقال ابن هشام: هو الصعب بن ذي يزن الحميري. وقال وهب: هو رومي.
وقيل: إنه أفريدون الذي قتل بيوراسب بن أروناسب الملك الفارسي. وقال أبو إسحاق
الثعلبي رحمه الله تعالى في قصصه - وذكر الخلاف في نبوته - قال: الصحيح إن شاء الله
أنه كان نبياً غير مرسل، كما روي عن وهب وغيره من أهل الكتب. قال وقالوا: كان ذو
القرنين رجلاً من الروم ابن عجوز من عجائزهم ليس لها ولد غيره، وكان اسمه
إسكندروس. قال ويقال: كان اسمه ابن عياش، وكان عياش عبداً صالحاً. قال وهب:

ونشأ ذو القرنين في علم وأدب وثروة وعفة، ولم يزل يتخلق بمكارم الأخلاق ويسمو إلى معالي
الأمور حتى بعدت همته، واشتد أمره، وعلا صوته، وعز في قومه، وألقى الله تعالى عليه
الهيبة، وحدث نفسه بمعالي الأمور. قال الثعلبي: فلما استحكم ملكه واستجمع أمره
أوحى الله تعالى إليه: يا ذا القرنين، إني بعثتك إلى جميع الخلائق ما بين الخافقين، وجعلتك
حجتي عليهم، وهذا تأويل رؤياك. وإني باعثك إلى أمم الأرض كلهم وهي سبع أمم مختلفة
ألسنتهم، منهم أمتان بينهما عرض الأرض، وأمتان بينهما طول الأرض، وثلاث أمم في
وسط الأرض، وهم الإنس والجن ويأجوج ومأجوج. فأما الأمتان اللتان بينهما طول الأرض
فأمة عند مغرب الشمس يقال لها ناسك، والأخرى بحيالها عند مطلع الشمس يقال لها
منسك. وأما الأمتان اللتان بينهما عرض الأرض فأمه في قطر الأرض الأيمن يقال لها هاويل،
والأخرى بحيالها في قطر الأرض الأيسر يقال لها تاويل. فلما قال الله تعالى له ذلك قال ذو
القرنين: إلهي إنك قد ندبتني إلى أمر عظيم لا يقدر قدره إلا أنت، فأخبرني عن هذه الأمم
التي بعثتني إليها بأي قوة أكاثرهم، وبأي حيلة وجمع أكابرهم، وبأي صبر أقاسيهم، وبأي
لسان أناطقهم، وكيف لي بأن أفقه لغاتهم، وبأي سمع أسمع أقوالهم، وبأي بصر أنفذهم،
وبأي حجة أخاصمهم، وبأي عقل أعقل عنهم، وبأي قلب وحكمة أدبر أمرهم، وبأي
قسط أعدل بينهم، وبأي حلم أصابرهم، وبأي معرفة أفصل بينهم، وبأي علم أتقن أمرهم،
وبأي يد أسطو عليهم، وبأي رجل أطؤهم، وبأي طاقة أحصيهم، وبأي جند أقاتلهم،
وبأي رفق أتألفهم، وليس عندي يا إلهي شيء مما ذكرت يقوم لهم ويقوى عليهم وأنت
الرءوف الرحيم، الذي لا تكلف نفساً إلا وسعها، ولا تحملها إلا طاقتها، ولا تشقيها؛ بل
أنت ترحمها. فقال الله تعالى له: إني سأطوقك ما حملتك، وأشرح لك صدرك وسمعك
فتسمع وتعي كل شيء، وأوسع لك فهمك فتفقه كل شيء، وأبسط لك لسانك فتنطق بكل
شيء، وأفتح لك بصرك فينفذ في كل شيء، وأحصي لك قوتك فلا يفوتك شيء، وأشد

لك عضدك فلا يهولك شيء، وأشيد لك ركنك فلا يغلبك شيء، وأشد لك قلبك فلا
يفزعك شيء، وأشد لك يديك فتسطو على كل شيء، وألبسك الهيبة فلا يروعك شيء،
وأسخر لك النور والظلمة وأجعلهما جنداً من جنودك، يهديك النور من أمامك، وتحوطك
الظلمة من ورائك. قال: فلما قيل له ذلك حدث نفسه بالمسير، وألح عليه قومه بالمقام، فلم
يفعل وقال: لا بد من طاعة الله تعالى. قال وهب: وكان أول ما بدأ به أن أخذ قومه
بالإسلام فأسلموا قهراً من عند آخرهم، ثم أمرهم أن يبنوا له مسجداً ويجعلوا طوله
أربعمائة ذراع، وعرضه مائتي ذراع، وسمك حائطه اثنين وعشرين ذراعاً، وارتفاعه في
السماء مائة ذراع، وأمرهم أن ينصبوا فيه سواري. قالوا: يا ذا القرنين، كيف لنا بخشب
يبلغ ما بين الحائطين؟ فلما كمل البناء أمرهم بردمه بالتراب، ثم فرض على الموسر قدره من
الذهب وعلى المقتر قدره، وأمرهم أن يجعلوا ذلك الذهب كقلامة الظفر ويخلطوه بالتراب
وكبسوا التراب حتى ساوى البناء، ثم أمرهم بعد ذلك أن يتخذوا أعمدة من النحاس بدلاً
من الخشب فصنعوها، وجعلوا على كل حائط اثني عشر ذراعاً، فكان طول كل عمود من
النحاس مائتين وأربعة وعشرين ذراعاً. فتمكنوا من ذلك بسبب الردم. فلما استقر
السقف بما فيه أمر الإسكندر المساكين أن يحولوا التراب، ومن خرج له شيء من الذهب
فهو له، فسارعوا إلى ذلك ونقوله واستغنوا بما فيه، ثم جند القوم أربعين ألفاً، وهم أول
جند اتبعوه.
وقال الثعلبي رحمه الله. إن الإسكندر جند المساكين بما حصل لهم من قراضة الذهب،
وكانوا أربعين ألفاً، وجعلهم أربعة أجناد، في كل جند عشرة آلاف. قال: ثم عرض جنده
فوجدهم فيما قيل ألف ألف وأربعمائة ألف رجل غير المساكين، وهم أربعون ألفاً، ثم
انطلق يوم الأمة التي عند مغرب الشمس، فسار لا يمر بأمة إلا دعاهم إلى الله تعالى، فإن
أجابوه قبل ذلك منهم، وإن أبوا عليه غشيتهم الظلمة فلبست مدائنهم ومنازلهم وأعشت

أبصارهم، فيتحيروا حتى يجيبوه، أو يأخذهم عنوة. ولم يزل كذلك حتى بلغ مغرب
الشمس. قال الله تعالى: "فاتبع سبباً، حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين
حمئة" أي ذات حمأة، ومن قرأ حامية فمعناه حارة "ووجد عندها قوماً قلنا يا ذا القرنين
إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً" الآيات إلى قوله: "يسراً". قال الثعلبي: فوجد
جمعاً وعدداً لا يحصيه إلا الله تعالى، وقوة وبأساً لا يطيقه إلا الله تعالى، ورأى ألسناً
مختلفة وأهواء متشتتة، وهذه الأمة هي ناسك. فلما رأى ذلك كاثرهم بالظلمة فضرب
حولهم ثلاث عساكر فأحاط بهم من كل مكان حتى جمعهم في مكان واحد، ثم أخذ
عليهم بالنور فدعاهم إلى الله تعالى وعبادته، فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه، فعمد
إلى الذين تولوا عنه فأدخلهم الظلمة، فدخلت في أفواههم وأنوفهم وآذانهم وأجوافهم،
ودخلت في بيوتهم وغشيتهم من فوقهم ومن تحتهم ومن كل جانب، فصاحوا وتحيروا
وأشفقوا من الهلكة، فعجوا إليه بصوت واحد، فكشفها عنهم وأخذهم عنوة فدخلوا في
دعوته، فجند منهم أمماً عظيمة وجعلهم جنداً واحداً، ثم انطلق بهم يقودهم والظلمة
تسوقهم من خلفهم وتحرسهم والنور أمامهم، وسار يريد الأمة التي في قطر الأرض التي يقال
لها هاويل، فكان إذا انتهى إلى بحر أو نهر بنى سفناً من ألواح صغار أمثال النعال نظمها في
ساعة، ثم حمل فيها جميع من معه من تلك الأمم والجنود، فإذا قطع ذلك البحر أو النهر
فتقها ثم دفع إلى كل رجل منهم لوحاً فلا يكرثه حمله، فلم يزل ذلك دأبه حتى انتهى إلى
هاويل ففعل بهم كما فعل بالأمة التي قبلها. قال: ولما فرغ منها مضى حتى انتهى إلى منسك
وهي الأمة التي عند مطلع الشمس. قال الله تعالى: "ثم ابتع سبباً، حتى إذا بلغ مطلع
الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً، كذلك وقد أحطنا بما لديه
خبراً". قال: وقوله تعالى: "لم نجعل لهم من دونها ستراً" وذلك أنهم كانوا في مكان لا يستقر
عليه بناء، وكانوا يكونون في أسراب لهم، حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى معايشهم

وحروثهم. وقال الحسن: كانت أرضهم أرضاً لا تحتمل البناء، فكانوا إذا طلعت الشمس
عليهم تهوروا في الماء، فإذا ارتفعت عنهم خرجوا فتراعوا كما ترعى البهائم. وقال الكلبي:
هم أمة يقال لها منسك عراة حفاة عماة عن الحق. قال: وحدثني عمرو بن مالك بن أمية
قال: وجدت رجلاً بسمرقند يحدث الناس وهم مجتمعون حوله، فسألت بعض من سمع
حديثه فأخبرني أنه حدثهم عن القوم الذين تطلع عليهم الشمس، قال: خرجت حتى
جاوزت الصين، ثم سألت عنهم فقيل: لي إن بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة، فاستأجرت
رجلاً يرينيهم، فسرت بقية عشيتي وليلتي حتى صبحتهم، فإذا أحدهما يفترش أذنه ويلبس
الأخرى. وكان صاحبي يحسن لسانهم فسألوه فقال: جئنا ننظر كيف تطلع الشمس. قال:
فبينما نحن كذلك إذ سمعنا مثل الصلصلة، فغشي علي فوقعت، فلما أفقت وجدتهم
يمسحونني بالدهن فإذا الشمس طلعت على الماء، وهي عليه كهيئة الزيت، وإذا طرف
السماء كهيئة الفسطاط، فلما ارتفعت دخلوا في سرب لهم وأنا وصاحبي، فلما ارتفع النهار
خرجوا إلى البحر فجعلوا يصطادون السمك فيطرحونه في الشمس فينضج.
نرجع إلى تتمة أخبار الإسكندر ومطلع الشمس. قالوا: ولما بلغ الإسكندر مطلع الشمس
فعل بمنسك كما فعل بالأمم التي قبلها وجند منها جنوداً، ثم كر حتى أخذ ناحية الأرض
اليسرى وهي بدء تاويل، وهي الأمة التي بحيال هاويل، وهما متقابلتان بينهما عرض
الأرض. فلما بلغها عمل فيها كما عمل بمن قبلها. ولما فرغ من الأمم الذين هم بأطراف
الأرض وطاف الشرق والغرب عطف منها إلى الأمم التي هي في وسط الأرض من الجن
والإنس ويأجوج ومأجوج. فلما كان في بعض الطريق مما يلي منقطع الترك نحو المشرق قالت
له أمة صالحة من الإنس: يا ذا القرنين، إن بين هذين الجبلين خلقاً من خلق الله ليس فيهم
مشابهة من الإنسان، وهم أشباه البهائم، يأكلون العشب ويفترسون الدواب والوحوش كما
يفترسها السباع، ويأكلون هوام الأرض من الحيات والعقارب وكل ذي روح مما خلق الله

تعالى. وليس لله خلق ينمون نماءهم ولا يزدادون كزيادتهم.
فإن أنت مدة على ما نرى من
نمائهم وزيادتهم فلا شك أنهم سيملئون الأرض ويخلون أهلها
منها ويظهرون عليها
فيفسدون فيها. وليست تمر بنا سنة منذ جاورناهم إلا ونحن
نتوقعهم في أن يطلع علينا
أولهم من بين هذين الجبلين.
قال الشيخ عبد الوهاب بن المبارك الأنماطي في كتابه عن
وهب بن منبه: إن يأجوج
ومأجوج أجفلوا في زمن ذي القرنين يريدون أرضاً وأمة من
الأمم، وكانوا إذا توجهوا لوجه لم
يعدلوا عنه ولا يميلون ولا يعرجون، وكانت تسمع همهمتهم من
مسيرة مائة فرسخ لكثرتهم.
فلما سمعت تلك الأمة حسهم استغاثوا بذي القرنين، وهو يومئذ
في ناحية أرضهم من شرق
أرض الترك والخزر وقالوا: يا ذا القرنين، إنه قد بلغنا ما آتاك
الله من السلطان والملك، وما
ألبسك من الهيبة، وما أيدك به من جنود أهل الأرض ومن النور
والظلمة، وإنا جيران
يأجوج ومأجوج، وليس بيننا وبينهم إلا شواهق الجبل، وليس لهم
إلينا طريق إلا من هذين
الصدفين، فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً.
قال الله تعالى: "ثم اتبع
سبباً، حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون
يفقهون قولاً، قالوا يا ذا
القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك
خرجاً" أي جعلاً وأجراً "على
أن تجعل بيننا وبينهم سداً" أي حاجزاً فلا يصلون إلينا "قال ما
مكني فيه ربي" أي قواني
"خير" من خراجكم ولكن "فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم
ردماً" حاجزاً كالحائط.
قالوا: وما تلك القوة؟ قال: فعلة وصناع يحسنون البناء والعمل
والآلة. قالوا: وما تلك
الآلة: قال "آتوني زبر الحديد" يعني قطعة، واحدتها زبرة،
وأتوني بالنحاس. قالوا: من أين لنا
الحديد والنحاس ما يكفي هذا العمل؟ قال، سأدلكم على معادن
الحديد والنحاس،
فضرب لهم في جبلين حتى فلقهما، ثم استخرج منهما معدنين
من الحديد والنحاس. قالوا:
فبأي قوة نقطع الحديد والنحاس؟ فاستخرج معدن السامور
وهو أشد ما خلق الله بياضاً،

وهو الذي قطع به سليمان صخور بيت المقدس وجواهره، كما تقدم. قال الثعلبي: ولما
شغلهم الإسكندر في استخراج الحديد والنحاس سار نحو يأجوج ومأجوج ليعلم علمهم،
فانطلق يؤمهم حتى انتهى إليهم وتوسط بلادهم، فوجدهم على مقدار واحد ذكرهم
وأنثاهم، يبلغ طول الواحد منهم مثل نصف الرجل المربوع منا. وروي عن علي بن أبي
طالب رضي الله عنه أنه قال: منهم من طوله شبر، ومنهم من هو مفرط في الطول، لهم
مخاليب في أيديهم موضع الأظافر، وأنياب وأضراس كالسباع، يسمع لها حركة إذا أكلوا
كقضم البغل المسن أو الفرس القوي، ولهم من الشعر في أجسادهم ما يواريهم وما يتقون به
الحر والبرد، ولكل واحد منهم أذنان عظيمتان، إحداهما وبرة والأخرة زغبة، يفترش
إحداهما ويلتحف الأخرى، ويصيف في إحداهما ويشتي في الأخرى. وقال الأنماطي في
خبره: ولهم أخفاف كأخفاف الإبل. قالوا: وليس منهم ذكر ولا أنثى إلا وقد عرف أجله
الذي يموت فيه. وذلك أن الذكر منهم لا يموت حتى يخرج من صلبه ألف ولد، ولا تموت
الأنثى حتى يخرج من رحمها ألف ولد، فإذا كان ذلك أيقن بالموت وترك طلب المعيشة.
قالوا: وهم يزقون التنين في أيام الربيع، ويقذفه عليهم السحاب من البحر في كل عام مرة. فإذا
تأخر عنهم وقت عادته استمطروه كما يستمطر الغيث لجينه، فإن قذفوا به أخصبوا
وسمنوا وتوالدوا وكثروا وأكلوا منه حولاً كاملاً لا يأكلون غيره، ويقددونه فيعمهم على
كثرتهم. قال: وهم يتداعون تداعي الحمام، ويعوون عواء الذئاب، ويتسافدون تسافد البهائم
حيث التقوا. فلما عاينهم ذو القرنين انصرف إلى ما بين الصدفين فقاس ما بينهما، ثم أوقد
على ما جمع من الحديد والنحاس فصنع منه زبراً أمثال الصخور العظام، ثم أذاب النحاس
فجعله كالطين وألاط به تلك الصخور الحديد ثم بناه.
قالوا: وكيفية بنائه على ما ذكره أهل السير: أنه لما قاس ما بين الجبلين وجد ما بينهما مائة
فرسخ، ثم حفر له الأساس حتى بلغ الماء، وجعل عرضه خمسين فرسخاً، ثم وضع الحطب

بين الجبلين، ثم نسج عليه الحديد، ثم نسج الحطب على الحديد، فلم يزل يحول الحديد على
الحطب والحطب على الحديد حتى ساوى بين الصدفين، وهما الجبلان، ثم أمر بالنار
فأرسلت فيه، ثم قال انفخوا ثم جعل يفرغ القطر وهو النحاس المذاب فجعلت النار تأكل
الحطب ويصير النحاس مكان الحطب حتى لزم الحديد النحاس فصار كأنه برد حبرة من
صفرة النحاس وحمرته، وسواد الحديد وغبرته؛ فصار سداً طويلاً عظيماً حصيناً. قال الله
تعالى: "فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً". وقد روي أن رجلاً قال يا رسول
الله قد رأيت سد يأجوج ومأجوج. قال: "انعته لي". قال: كالبرد المحبر، طريقه سوداء،
وطريقه حمراء. قال: "قد رأيته". وقد ذكرنا خبر السد فيما سلف من كتابنا هذا عن
سلام الترجمان حين أرسله الواثق إلى السد فرآه، وهو في الباب الثالث من القسم الخامس
من الفن الأول وهو في السفر الأول من كتابنا هذا.
قال الأنماطي قال وهب: فبلغنا - والله أعلم - أنهم يأتونه في كل سنة مرة، وذلك أنهم
يسيحون في بلادهم حتى إذا انتهوا إلى ذلك الردم حبسهم فرجعوا يسيحون في بلادهم، فهم
كذلك حتى تقرب الساعة، فإذا جاء أشراطها فتحه الله عز وجل؛ فذلك قوله تعالى:
"حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون"، وقوله تعالى: "فإذا جاء
وعد ربي جعله دكاً وكان وعد ربي حقاً". والله أعلم.

دخول ذي القرنين الظلمات
مما يلي القطب الشمالي لطلب عين الحياة

قال أبو إسحاق الثعلبي رحمه الله: قال علي رضي الله عنه: ملك ذو القرنين ما بين المشرق
والمغرب، وكان له خليل من الملائكة اسمه رفائيل يأتيه ويزوره. فبينما هما ذات يوم
يتحادثان إذ قال ذو القرنين: يا رفائيل، حدثني عن عبادتكم في السماء. فبكى وقال: يا ذا
القرنين، وما عبادتكم بشيء عند عبادتنا! إن في السماء من الملائكة من هو قائم أبداً لا
يجلس، ومن هو ساجد لا يرفع رأسه أبداً، ومنهم الراكع لا يستوي أبداً قائماً، يقولون:
سبحان الملك القدوس، رب الملائكة والروح، ربنا ما عبدناك حق عبادتك. فبكى ذو

القرنين بكاء شديداً ثم قال: إني لأحب أن أعيش فأبلغ من عبادة ربي حق طاعته. قال
رفائيل: أوتحب ذلك؟ قال نعم. قال: فإن لله عينا في الأرض تسمى عين الحياة فيها من الله
عزيمة، إن من يشرب منها شربة لم يمت أبداً حتى يكن هو الذي يسأل ربه الموت. قال ذو
القرنين: هل تعلم موضع تلك العين؟ قال الملك: لا، غير أنا نتحدث في السماء أن لله تعالى
في الأرض ظلمة لا يطؤها إنس ولا جان، فنحن نظن أن العين في تلك الظلمة. فجمع ذو
القرنين علماء أهل الأرض وأهل دراسة الكتب وآثار النبوة فقال لهم: أخبروني هل وجدتم
فيما قرأتم من كتب الله وما جاءكم من أحاديث الأنبياء ومن كان قبلكم أن الله وضع في
الأرض عيناً سماها عين الحياة؟ قالوا لا. وقال عالم من العلماء: إني قرأت وصية آدم،
وصى أن الله تعالى خلق في الأرض ظلمة لم يطأها إنس ولا جان ووضع فيها عين الخلد.
فقال ذو القرنين: فأين وصيته في الأرض؟ قال: على قرن الشمس. فبعث ذو القرنين وحشر
إليه العلماء والأشراف والملوك، ثم سار يطلب مطلع الشمس، فسار اثنتي عشرة سنة إلى
أن بلغ طرف الظلمة، فإذا ظلمة تقوم مثل الدخان ليست بظلمة ليل، فعسكر هناك، ثم
جمع العلماء وقال: إني أريد أن أسلك هذه الظلمة. قالوا: إنه من كان قبلك من الأنبياء
والملوك لم يطلبوا هذه الظلمة فلا تطلبها، فإنا نخاف أن ينبثق عليك أمر تكرهه فيكون فيه
فساد أهل الأرض. فقال: لا بد من أن أسلكها. قالوا: أيها الملك كف عنها ولا تطلبها فإنا
لو نعلم أنك إن طلبتها ظفرت بما تريد ولم يسخط علينا ربنا لاتبعناك، ولكنا نخاف العتب
من الله عز وجل وفساد الأرض ومن عليها. فقال: لا بد أن أسلكها. قالوا: شأنك بها.
قال: أي الدواب بالليل أبصر؟ قالوا: الخيل. قال: فأي الخيل أبصر؟ قالوا: الإناث. قال:
فأي الإناث أبصر؟ قالوا: البكارة. فجمع ذو القرنين ستة آلاف فرس بهذه الصفة، ثم
انتخب من عسكره أهل الجلد والعقل ستة آلاف رجل، فدفع إلى كل رجل فرساً، وعقد
للخضر -ع- على مقدمته ألفين، وبقي هو في أربعة آلاف. وقال ذو القرنين للناس: لا

تبرحوا من معسكركم هذا إلى اثنتي عشرة سنة، فإن رجعنا إليكم وإلا فارجعوا إلى
بلادكم. فقال الخضر: أيها الملك، إنا نسلك ظلمة لا ندري كم المسير فيها ولا يبصر بعضنا
بعضاً، فكيف نصنع إذا ضللنا! فدفع إلى الخضر خرزة حمراء وقال: حيث يصيبكم
الضلال فاطرح هذه في الأرض فإذا صاحت فليرجع إليها أهل الضلال أين صاحت. فسار
الخضر بين يديه، يرتحل الخضر وينزل ذو القرنين، فبينما الخضر يسير إذ عرض له واد فظن
أن العين فيه وألقى ذلك في قلبه، فقام على شفير الوادي وقال لأصحابه: قفوا لا تبرحوا،
ورمى بالخرزة في الوادي ومكث طويلاً حتى أجابته الخرزة، فطلب صوتها فانتهى إليها فإذا
هي إلى جانب العين. فنزع الخضر ثيابه ثم دخل العين، فإذا ماؤها أشد بياضاً من اللبن
وأحلى من الشهد، فشرب واغتسل وتوضأ ولبس ثيابه، ثم رمى الخرزة نحو أصحابه،
فوقعت الخرزة وصاحت، فرجع إلى صوتها حتى انتهى إلى أصحابه، فركب وقال: سيروا
على اسم الله. ومر ذو القرنين فأخطأ الوادي فسلكوا تلك الظلمة أربعين يوماً وليلة، ثم
خرجوا إلى ضوء ليس بضوء شمس ولا قمر، وإلى أرض حمراء ورملة خشخاشية، فإذا
هو بقصر مبني في تلك الأرض طوله فرسخ في فرسخ عليه باب، فنزل ذو القرنين بعسكره،
ثم خرج وحده فدخل القصر، فإذا حديدة قد وضع طرفاها على جانبي القصر من هاهنا
وهاهنا، وإذا طائر أسود يشبه الخطاف مزموم بأنفه إلى الحديدة، معلق بين السماء
والأرض، فلما سمع الطائر خشخشة ذي القرنين قال: من هذا؟ قال: أنا ذو القرنين. فقال:
يا ذا القرنين، أما كفاك ما وراءك حتى وصلت إلي! ثم قال الطائر: يا ذا القرنين، حدثني؛
قال سل؛ فقال: هل كثر بناء الآجر والجص في الأرض؟ قال نعم؛ فانتفض الطائر انتفاضة ثم
انتفخ فبلغ ثلث الحديدة، ثم قال: يا ذا القرنين، هل كثرت شهادات الزور في الأرض؟ قال
نعم؛ فانتفض الطائر ثم انتفخ فملأ الحديدة وسد ما بين جداري القصر. ففرق ذو القرنين فرقاً
عظيماً. فقال الطائر: لا تخف. حدثني. قال سل. قال: هل ترك الناس شهادة أن لا إله إلا

الله بعد؟ قال لا، فانضم الطائر ثلثه ثم قال: هل ترك الناس الصلاة المفروضة بعد؟ قال لا،
فانضم ثلثاه. ثم قال: يا ذا القرنين، هل ترك الناس غسل الجنابة بعد؟ قال لا؛ فعاد الطائر
كما كان. ثم قال: يا ذا القرنين. اسلك هذا الدرج درجة درجة إلى أعلى القصر. فسلكها
وهو خائف وجل لا يدري على ماذا يهجم، حتى انتهى إلى سطح ممدود، عليه صورة رجل
شاب قائم، وعليه ثياب بيض. رافعاً وجهه إلى السماء، واضعاً يديه على فيه، فلما سمع
خشخشة ذي القرنين قال: من هذا؟ قال: أنا ذو القرنين. قال: يا ذا القرنين، إن الساعة قد
اقتربت، وأنا منتظر أمر ربي يأمرني أن أنفخ فأنفخ، ثم أخذ صاحب الصور شيئاً بين يديه
كأنه حجر وقال: خذه يا ذا القرنين، فإن شبع هذا شبعت، إن جاع جعت؛ فأخذه ونزل
إلى أصحابه فحدثهم بأمر الطائر وما قال له وما رد عليه، وما قال صاحب الصور. ثم
جمع علماء عسكره فقال: أخبروني عن هذا الحجر ما أمره؟ فقالوا: أيها الملك، أخبرنا
عما قال لك فيه صاحب الصور. فقال ذو القرنين: إنه قال لي: إن شبع هذا شبعت وإن
جاع جعت فوضعوا ذلك الحجر في إحدى كفتي ميزان وأخذوا حجراً مثله فوضعوه في
الكفة الأخرى ثم رفعوا الميزان فإذا هو يميل، فوضعوا معه آخر فإذا هو يميل بهن فلم يزالوا
يضعون حتى وضعوا ألف حجر فمال بالألف جميعاً، فقالوا: انقطع علمنا دون هذا الحجر
لا ندري أسحر هو أم علم ما نعلمه! فقال الخضر: نعم أنا أعلمه، فأخذ الميزان بيده ثم
وضع الحجر في كفتها وأخذ كفاً من تراب فجعله في الكفة الأخرى ثم رفع الميزان فاستوى.
فخرت العلماء سجداً لله تعالى وقالوا: هذا علم لم يبلغه علمنا. فقال الخضر -ع-: أيها
الملك، إن سلطان الله عز وجل قاهر لخلقه، وأمره نافذ فيهم، وحكمه جار عليهم؛ وإن
الله تعالى ابتلى خلقه بعضهم ببعض، فابتلى العالم بالعالم، والجاهل بالجاهل، والعالم بالجاهل،
والجاهل بالعالم؛ وإنه ابتلاني بك وابتلاك بي. قال ذو القرنين: صدقت، فأخبرني ما هذا؟
فقال الخضر: أيها الملك، هذا مثل ضربه لك صاحب الصور، إن الله تعالى مكن لك في

البلاد، وأعطاك منها ما لم يعط أحداً، وأوطأك منها ما لم يوطئ أحد، فلم تشبع، وأتيت
نفسك شرها، حتى بلغت من سلطان الله ما لم يطأه إنس ولا جان، فهذا مثل ضربه لك،
إن ابن آدم لا يشبع أبداً دون أن يحثي عليه التراب، ولا يملأ جوفه إلا التراب. فبكى ذو
القرنين وقال: صدقت، لا جرم أني لا طلبت أثراً في البلاد بعد مسيري هذا حتى أموت، ثم
انصرف راجعاً. فلما توسط الظلمة وطئ وادي الزبرجد، فقال من معه لما سمعوا
الخشخشة تحت حوافر دوابهم: ما هذا أيها الملك؟ فقال: خذوا منه فإنه من أخذ منه
ندم، ومن تركه ندم. فمنهم من أخذ، ومنهم من ترك. فلما خرجوا من الظلمة إذا وهو
الزبرجد. فندم الآخذ كونه لم يكثر، والتارك كونه لم يأخذ. قال: فقال النبي صلى الله عليه
وسلم: "رحم الله أخي ذا القرنين لو ظفر بوادي الزبرجد في المبتدأ ما ترك منه شيئاً حتى
أخرجه إلى الناس لأنه كان راغباً في الدنيا ولكنه ظفر به وهو زاهد في الدنيا لا حاجة له
فيها".
قال الثعلبي: ثم رجع إلى العراق وملك ملوك الطوائف، ومات في طريقه بشهرزور. وقال
علي رضي الله عنه: ثم إنه رجع إلى دومة الجندل فأقام بها حتى مات. وصرح الثعلبي في
سياقة أخباره أنه الذي قتل دارا بن دارا، وأنه لم تطل مدة عمره. وسنذكر إن شاء الله
تعالى خبر قاتل دارا بن دارا في أخبار ملوك اليونان.
وحكى الأنماطي عن وهب في خبر دخول الإسكندر الظلمات: أنه لما انتهى إلى مغرب
الشمس ترك من معه هناك وسار على الماء في الظلمة ثمانية أيام وثماني ليال حتى انتهى إلى
جبل قاف، وإذا هو بملك قابض على الجبل يسبح الله تعالى؛ فخر ذو القرنين ساجداً لله
تعالى فلم يرفع رأسه حتى قواه الله تعالى على النظر إلى الملك. فقال له: كيف قويت يا بن
آدم على أن تبلغ هذا الموضع ولم يبلغه أحد من ولد آدم قبلك؟! قال: قواني الله الذي
قواك على قبض هذا الجبل. فأخبرني عن هذا الجبل. قال: إنه قاف المحيط بالأرض كلها،
ولولا هو لانكفأت الأرض بأهلها، وليس على ظهر الأرض أعظم منه، وإنه لمحيط بها

كالحلقة، وهو أول جبل أثبته الله، فرأسه ملصق بسماء الدنيا، و أسفله راسخ في الأرض
السفلى.
وحكى إبراهيم بن وصيف شاه في كتاب العجائب الكبير: أن ذا القرنين لما سار إلى
الظلمة مر بجزيرة فيها أمة رءوسهم رءوس الكلاب العظام بادية أنيابهم، يخرج من أفواههم
مثل لهب النار، وأنهم خرجوا إلى مراكبه فحاربوه فتخلص منهم، وسار فرأى نوراً ساطعاً
فقصده فإذا هو قد بلغ جزيرة القصر. قال: وهذه الجزيرة فيها قصر مبني بالبلور الصافي
عالي الطول يشف حتى يرى نوره على البعد، فأراد النزول بها، فمنعه بهرام فيلسوف الهند
وعرفه أن من نزل إليها وقع عليه النوم وعزب عقله فلا يستطيع الخروج منها حتى يهلك.
قال: ويقال إنه ظهر لهم منها قوم قصار زعر، لباسهم ورق الشجر. فسأل بهرام عن صبرهم
على المقام بها، فعرفوه أن بها ثمر إذا أكلوا منه زال عنهم ذلك، وذكروا أنهم إذا كان الليل
ظهر بين شرف القصر مثل المصابيح تسرج إلى الصبح ثم تخمد نهاراً إلى الليل فتوقد. قال:
ويقال إنه مر في طريقه بجزيرة التنين وإنها جزيرة فيها جبال وأنهار وأشجار وزروع وهي
عامرة، وعلى مدينتها حصن عال، وبها تنين عظيم قد سام أهلها أقبح سوم. فلما دخلها
الإسكندر استغاثوا به من التنين وأنه أتلف مواشيهم حتى إنهم جعلوا له في كل يوم ثورين
ينصبونهما قريباً من موضعه، فيخرج فيبتلعهما. فأمر الإسكندر بثورين عظيمين فسلخا
وحشا جلودهما زفتاً وكبريتاً وكلساً وزرنيخاً، وجعل مع تلك الأخلاط كلاليب حديد،
وجعلهما في ذلك المكان. وخرج التنين وأقبل كالسحابة السوداء وعيناه تلمعان كالبرق،
والنار تخرج من جوفه، فابتلعهما ومضى، فاضطرمت تلك الأشياء في جوفه، فلما أحس
بثقلها ذهب ليقذفها، فتشبكت الكلاليب في حلقه فخر وفتح فاه ليستروح، فأمر
الإسكندر بقطع الحديد فأحميت وحملت على ألواح من حديد وقذفت في حلقه فمات.
ففرح أهل ذلك الموضع بموته وألطفوا الإسكندر وحملوا إليه من طرائف ما عندهم. وكان

فيما حملوه إليه دابة في خلق الأرنب، شعرها أصفر يبرق كالذهب، يسمونها المعراج، وفي
رأسها قرن واحد أسود، إذا رأتها الأسود وسباع الوحش وكل دابة هربت منها.
وقال الأنماطي في سياقة أخبار الإسكندر عن وهب تلو خبر السد: ثم انطلق ذو القرنين
بعد ذلك، فبينما هو يسير إذ مر على شيخ يصلي، فوقف عليه بجنوده حتى إذا انصرف
من صلاه قال له: كيف لم يرعك ما حضرك من الجنود؟! قال: كنت أناجي من جنوده
أكثر من جنودك، وسلطانه أعز من سلطانك، وقوته أشد من قوتك؛ ولو صرفت وجهي
إليك لم أدرك حاجتي قبله. قال له: هل لك أن تنطلق معي وأواسيك بنفسي وأستعين بك
على بعض أمري؟ قال: نعم، إن ضمنت لي أربعة خصال: نعم لا يزول، وصحة لا سقم
فيها، وشباب لا كبر فيه، وحياة لا موت فيها. قال له ذو القرنين: وأي مخلوق يقدر على
هذه الخصال!. قال الشيخ: فإني مع من يقدر عليها ويملكها، فتركه وسار. فبينما هو
يسير إذ دفع إلى الأمة الصالحة من قوم موسى الذين يهدون بالحق وبه يعدلون، فوجد أمة
مقسطة عادلة يقسمون بالسوية، ويحكمون بالعدل ويتواسون، فكلمتهم واحدة، وقلوبهم
مؤتلفة مستقيمة، وسيرتهم مستوية، وقبور موتاهم في أفنيتهم، وليس على بيوتهم أبواب
تغلق، وليس عليهم أمراء، ولا قضاة بينهم، ولا أشرف يتفاوتون، ولا يتفاضلون ولا يختلفون
ولا يتنازعون ولا يتسابون ولا يقتتلون ولا يقحطون ولا تصيبهم الآفات؛ فعجب من أمرهم
وقال: أخبروني خبركم أيها القوم؛ فإني قد أحصيت الأرض شرقها وغربها، وسهلها
وجبلها، وبرها وبحرها، ونورها وظلمتها، فلم أر مثلكم. قالوا: سلنا عما بدا لك نخبرك.
قال: ما بال قبوركم في أفنيتكم وعلى أبواب بيوتكم؟ قالوا: لئلا ننسى الموت ولا يخر ذكره
من قلوبنا. قال: فما بال بيوتكم لا أبواب عليها؟ قالوا: ليس فينا متهم ولا ظنين، ولا فينا
إلا مؤتمن أمين. قال: فما بالكم ليس عليكم أمراء؟ قالوا: لأنا نتظالم. قال: فما بالكم ليس
فيكم أغنياء؟ قالوا: لأنا لا نتكاثر. قال: فما بالكم لا تتفاضلون ولا تتفاوتون؟ قالوا: من

قبل أنا متواسون متراحمون. قال: فما بالكم ليس فيكم أشراف؟ قالوا: لأنا لا نتنافس.
قال: فما بالكم لا تتنازعون ولا تختلفون؟ قالوا: من ألفة قلوبنا وصلاح ذات بيننا. قال:
فما بالكم ليس بينكم حكام؟ قالوا: نحن لا نختصم. قال: فما بال كلمتكم واحدة؟ قالوا:
من قبل أنا لا نتكاذب ولا نتخادع ولا يغتاب بعضنا بعض. قال: فأخبروني من قبل ماذا
تشابهت قلوبكم واعتدلت سيرتكم؟ قالوا: من صحة صدورنا، فنزع الله بذلك الغل
والحسد من قلوبنا. قال: فما بالكم ليس فيكم مسكين ولا فقير؟ قالوا: من قبل أنا نقسم
بالسوية. قال: فما بمالكم ليس فيكم مسكين ولا فقير؟ قالوا: من قبل أنا نقسم بالسوية.
قال: فما بالكم ليس فيكم فظ ولا غليظ؟ قالوا: من قبل الذل والتواضع. قال: فأخبروني
بماذا أنتم أطول الناس أعماراً؟ قالوا: من قبل أنا نتعاطى الحق ونحكم بالعدل. قال: فما
بالكم لا تقحطون؟ قالوا: لأنا لا نغفل عن الاستغفار. قال: فما بالكم لا تصيبكم الآفات؟
قالوا: من قبل أنا لا نتوكل إلا على الله، ولا نستمطر بالأنواء ولا بالنجوم. قال: أهكذا
وجدتم آباءكم يفعلون؟ قالوا: وجدنا آباءنا يعطون مسكينهم، ويواسون فقيرهم، ويوقرون
غنيهم، ويعفون عمن ظلمهم، ويحسنون إلى من أساء إليهم، ويحلمون عمن جهل عليهم،
ويستغفرون لمن سبهم، ويصلون أرحامهم، ويؤدون أمانتهم، ويحفظون وفاءهم لصلاحهم،
ويوفون بعهدهم، ويصدقون في مواعيدهم، ولا يرغبون عن أكفائهم، ولا يستنكفون عن
أقاربهم، فأصلح الله تعالى لهم بذلك أمرهم، وحفظهم به ما كانوا أحياء. قال: فأقام ذو
القرنين عندهم حتى قبضه الله عز وجل، ولم تطل مدة إقامته فيهم. قال وهب: عاش منذ
بعثه الله تعالى إلى أن قبض خمسمائة عام. وقال غيره: أكثر من ذلك، وقد ذكر في
المعمرين. وقيل: إنه عاش ألف وستمائة وخمسين سنة ومات في حياة أمه. وقيل: إنه أدرك
إبراهيم الخليل واجتمع معه وأركبه من دوابه. حكاه الأزرقي وأبو عبيد البكري. والله
أعلم.
الباب الثاني من القسم الرابع من الفن الخامس

ملوك الأصقاع
وهم ملوك الهند والصين والترك وجبل الفتح وملوك مصر
ملوك الهند
قال المسعودي في مروج الذهب: ذكر جماعة من أهل النظر والبحث الذين واصلوا البحث
والعناية بتأمل شأن هذا العالم وبدئه أن الهند كانت في قديم الزمان الفرقة التي فيها الصلاح
والحكمة، وأنه لم تجيلت الأجيال وتخربت الأحزاب حاولت الهند أن تضم المملكة وتستولي
على الحوزة وتكون الرياسة فيها. قال كبراؤهم: نحن كنا أهل البدء وفينا التناهي، ولنا
الغاية والصدر والانتهاء، ومنا سرى الأب إلى الأرض، فلا شاقنا أحد ولا عاندنا ولا أراد
بنا الاغتماص إلا أتينا عليه وأبدناه أو يرجع إلى طاعتنا. فأجمعت على ذلك رأيها
ونصبت لها ملكاً، وهو البرهمن الأكبر والملك الأعظم، وإليه تنسب طائفة البراهمة بالهند،
لا إلى إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم. وهذا البرهمن هو الإمام المقدم فيهم الذي
ظهرت في أيامه الحكمة وتقدمت العلماء، وأمر باستخراج الحديد من معادنه، وضربت في
أيامه السيوف والخناجر وكثير من أنواع السلاح وآلات القتال، وشيد الهياكل ورصعها
بالجواهر النفيسة المشرقة، وصور فيها الأفلاك والبروج الاثنى عشر برجاً والكواكب، وبين
بالصورة كيفية العالم، وأرى بالصورة أيضاً كيفية أفعال الكواكب في هذا العالم وإحداثها
للأشخاص الحيوانية من الناطقة وغيرها، وبين حال المدبر الأعظم الذي هو الشمس،
وبرهن على ذلك كله وقربه إلى عقول العوام وأذهانهم ففهموه، وغرس في نفوس الخواص
دراية ما هو أعلى من ذلك، وأشار إلى المبدئ الأول المعطي لسائر الموجودات وجودها
الفائض عليها بجوده. فانقادت له الهند، وأراهم وجه مصالح الدنيا وأخصبت بلادهم.
وجمع الحكماء في أيامه كتاب السند هند، وتفسيره دهر الدهور، ومنه فرغت الكتب،
ككتاب الأزجهير والمجسطي، وفرع من الأزجهير الأركند ومن المجسطى كتاب بطليموس،
ثم عمل منها بعد ذلك الزيجات. وأحدثوا التسعة الأحرف المحيطة بالحساب الهندي.

وكان البرهمن هذا أول من تكلم في أوج الشمس، وذكر أنه يقيم في كل برج ثلاثة آلاف سنة،
ويقطع الفلك في ستة وثلاثين ألف سنة، إلى غير ذلك من هذا الفن. وكان ملك البرهمن إلى
أن هلك ثلاثمائة سنة وستا وستين سنة، وولده يعرفون بالبراهمة، والهند تعظمهم إلى وقتنا
هذا، وهم أعلى أجناسهم وأشرافهم، وهم لا يتغذون بشيء من الحيوانات. وفي رقاب
النساء والرجال منهم خيوط صفر يتقلدون بها كحمائل السيوف، تفرق بينهم وبين غيرهم
من أنواع الهند. وقد تتوزع في البرهمن، فمنهم من زعم أنه آدم وأنه رسول من الله إلى
الهند، ومنهم من زعم أنه كان ملكاً، على حسب ما قدمناه وهو الأشهر. ولما هلك
البرهمن جزعت عليه الهند جزعاً شديداً، وملكت عليها ولده الأكبر.

ابن البرهمن
وهو الباهبود

وكان ولي عهد أبيه من بعده. فسار فيهم سيرة أبيه وأحسن النظر إليهم. وزاد في بناء
الهياكل، وقدم الحكماء ورفع من مقدارهم وزاد في مراتبهم، وحثهم على تعليم الناس
الحكمة وبعثهم على طلبها. وكان ملكه إلى أن هلك مائة سنة. وفي أيامه عمل النرد
ولعب به، وجعل ذلك مثالاً للمكاسب، وأنها لا تنال بالكيس ولا بالحيل في هذه الدنيا،
وأن الرزق لا يتأتى فيها بالحذق. وذكر أن أردشير بن بابك أول من وضع النرد ولعب بها،
وأرى تقلب الدنيا بأهلها واختلاف أمرها. وجعل بيوتها اثنى عشر بعدد الشهور، وجعل
مهاركها ثلاثين بعدد أيام الشهر، والفصوص أمثلة للقدر وتقلبه بأهل الدنيا وأن الإنسان يلعب
بها فيبلغ بإسعاد القدر له في مراده بها ما يريد، وأن الحازم الفطن لا يتأتى له ما يتأتى لغيره
إذا لم يسعده القدر، وأن الأرزاق لا تنال في هذه الدنيا إلا بمقادير.

ثم ملك بعده رامان، فكان ملكه نحواً من خمسين ومائة سنة. قال: وله سير وأخبار
وحروب مع ملوك فارس وملوك الصين.

ثم ملك بعده فور، وهو الذي قتله الإسكندر بن فيلبس اليوناني مبارزة. وكان ملكه إلى

أن قتل أربعين ومائة سنة. ثم ملك بعد تسام، وهو الذي وضع كتاب كليلة ودمنة الذي
نقله ابن المقفع. وكان ملكه مائة وعشر سنين، وقيل غير ذلك.
ثم ملك بعده بلهيت. وفي أيامه صنعت الشطرنج فقضى بلعبها على النرد، وبين الظفر
الذي يناله الحازم والنكبة التي تلحق الجاهل وحسب حسابهما، ورتب لذلك كتاباً للهند
يتداولونه بينهم، ولعب بها مع حكمائه. وكانت مدة ملكه إلى أن هلك نحواً من ثمانين سنة،
وفي بعض النسخ أنه ملك ثلاثين ومائة سنة.
ثم ملك بعده كوش، فأحدث للهند آراء في الديانات على حسب ما رأى من صلاح
الوقت، وما يحتمله أهل العصر من التكليف، وخرج عن مذاهب من سلف. وكان في
مملكته وعصره سندباد، وله كتاب الوزراء السبعة والمعلم والغلام وامرأة الملك، وهو
الكتاب المترجم بكتاب السندباد. وعمل لهذا الملك الكتاب الأعظم في معرفة العلل
والأدواء والعلاجات وأشكال الحشائش وصفتها. وكان مل هذا الملك إلى أن هلك
عشرين ومائة سنة. ولما هلك اختلف الهند في آرائها فتحزبت الأحزاب وتجيلت الأجيال،
وانفرد كل رئيس بناحيته، فملك على أرض السند ملك، وعلى أرض القنوج ملك، وعلى
أرض قشمير ملك. فكانت مدة اجتماع الكلمة ببلاد الهند على ملك واحد على هذا
الحكم نحواً من ألف سنة وست وستين سنة. وعلى القول الآخر ألف سنة ومائة سنة
وست عشرة سنة. وعدة ملوكهم سبعة ملوك. والله تعالى أعلم.
وملك بعد كوش بمدينة المانكير وهي الحوزة الكبرى ملك يسمى البلهرا. قال المسعودي:
وأرض الهند أرض متسعة في البر والبحر والجبال. وملكهم يتصل بملك الزنج وهي دار
مملكة المهراج. وهذه المملكة فرز بين مملكة الهند والصين.
قال: ومن عادة الهند أنها لا
تملك الملك حتى يبلغ عمره أربعين سنة، ولا تكاد ملوكهم تظهر لعوامهم إلا في كل برهة
معلومة من الزمان. ويكون ظهور الملك للنظر في أمور الرعية.
وقال أيضاً: رأيت في بلاد
سرنديب، وهي جزيرة من جزائر البحر إذا مات ملكهم صيروه على عجلة صغيرة البكر،

وشعره ينجر على الأرض، وامرأة بيدها مكنسة تحثو التراب على رأسه وتنادي: أيها
الناس، هذا ملككم بالأمس قد ملككم وجاز فيكم أمره قد صار إلى ما ترون من ترك
الدنيا، وقبض روحه ملك الملوك الحي القديم الذي لا يموت. فلا تغتروا بالحياة بعده. وكلام
هذا معناه من الترهيب والتزهيد في هذا العالم. ويطاف به في جميع شوارع المدينة وهو
كذلك؛ ثم يفصل بأربع قطع وقد هيئ له الصندل والكافور وسائر أنواع الطيب ويحرق بالنار
يذرى رماده في الرياح. قال: وكذلك فعل أكثر أهل الهند بملوكهم وخواصهم لغرض
يذكرونه. قال: والملك مقصور في أهل بيت لا ينتقل منهم إلى غيرهم. وكذلك بيوت الوزراء
والقضاة وسائر أرباب المراتب، لتوارث مناصبهم ولا تغير ولا تبدل. وعندهم أن ملكهم
متى شرب الشراب فقد استحق الخلع. والله الهادي.

ملوك الصين

قال أبو الحسن علي بن عبد الله المسعودي في كتابه المترجم بمروج الذهب:
لما قسم فالغ بن عابر بن أرفخشذ بن سام بن نوح الأرض بين ولد نوح سار ولد عامور بن
توبل بن يافث بن نوح يسرة المشرق، فكان منهم أجناس الترك. وسار الجمهور من ولد
عامور على ساحر البحر حتى انتهوا إلى أقاصية من بلاد الصين. فتفرقوا في تلك البقاع
والبلاد وقطنوها وعمروها، وكوروا الكور، ومصروا الأمصار، ومدنوا المدن، واتخذوا
للملك مدينة عظيمة سموها إيقو، وبينها وبين ساحل البحر الحبشي، وهو بحر الصين مسيرة
ثلاثة أشهر، مدن وعمائر متصلة. فكان أول من تملك عليهم في هذه الديار نسطيرطاس بن
ماعور بن بزنج بن عامور. قال: ولما ملك فرق أهله في تلك الديار، وشق الأنهار، وغرس
الأشجار، وطعم الثمار، وقتل السباع. وكانت مدة ملكه ثلاثمائة سنة ونيفاً وهلك.
فقام بالأمر بعده ولده عرون بن نسطيرطاس، فجعل جسد أبيه في تمثال من الذهب الأحمر
جزعاً عليه وتعظيماً له، وأجلسه على سرير من الذهب مرصع بالجوهر، وجعل مجلسه
دونه، وسجد له وهو في جوف ذلك التمثال، وسجد معه أهل مملكته، وفعل ذلك في كل

نهار في طرفيه. وكانت مدة ملكه بعد أبيه نحواً من مائتي سنة وخمسين سنة ثم هلك.
فملك بعده ابنه عبيرون بن عرون. ولما ملك جعل جسد أبيه عرون في تمثال من الذهب
ونصبه دون مرتبة جده، وكان يبدأ بالسجود لجده ثم يسجد لأبيه، وساس الرعية بأحسن
سياسة، وساواهم في جميع أمورهم، وشملهم بعدله، وكثر النسل، وأخصبت الأرض.
وكان ملكه إلى أن هلك مائتي سنة.
ولما مات ملك بعده ولده عثينان بن عبيرون. قال: ولما ملك جعل جسد أبيه في تمثال من
الذهب، وجرى في أمره على ما سلف من عادتهم في السجود والتعظيم. وطالت مدته في
الملك، واتسعت مملكته حتى اتصلت بلاده ببلاد الترك من بني عمه. واتخذ في أيامه كثير
من المهن مما لطف في الرقة من الصنائع، وعاش أربعمائة سنة ثم هلك.
فملك بعده ابنه حرانان بن عثينان. قال: ولما ملك جرى في جسد أبيه على عادتهم، ثم
أمر باتخاذ الفلك وحمل فيها الرجال، وحمل معهم لطائف بلاد الصين وسفرهم نحو بلاد
الهند والسند وإلى إقليم بابل وسائر الممالك مما قرب وبعد في البحر. وأهدى إلى الملوك
الهدايا العجيبة والتحف النفيسة. وأمر أصحابه الذين سفرهم أن يجلبوا إليه ما في كل بلد
من الطرائف والتحف والمأكول الذي لا يوجد في بلاده، والمشروب والعروس وأصناف
الأقمشة والأمتعة وغير ذلك. وأمرهم أن يتعرفوا سياسة كل ملك، وملة كل أمة وشرائعها
ونهجها الذي هي عليه، وأن يرغبوا الناس فيما في بلادهم من الجواهر والطيب والآلات.
فتفرقت تلك المراكب في البلاد وفعلوا ما أمرهم به، فلم يردوا على مملكة من الممالك إلا
أعجبوا بهم واستظرفوا ما معهم. فأنشأت الملوك المحيطة ممالكهم بالبحار السفن وجهزت
نحو الصين، وحملوا إليهم ما ليس عندهم. وكاتبوا ملكهم وكافئوه على ما كان قد هاداهم
به من تحف بلاده، فعمرت بلاد الصين، واستقامت أمور مملكة الصين. فكانت مدة حياته
في الملك نحواً من مائتي سنة وهلك، فجزع أهل مملكته عليه وحزنوا حزناً شديداً، وأقاموا
النياحة عليه شهراً.

وملك بعده ابنه توتال بن حرانان. قال: ولما ملك جعل جسد أبيه في تمثال من الذهب،
وسلك فيه سنة من تقدمه من آبائه، واستقام أمره، وأحدث من السنن المحمودة ما لم يحدثه
أحد من الملوك قبله. وقال لأهل مملكته: إن الملك لا يثبت إلا بالعدل لأنه ميزان الباري،
وإن من العدل الزيادة في الإحسان مع الزيادة في العمل.
وخص وشرف وتوج ورتب الناس
في رتبهم، ووقفهم على طرائفهم. وخرج يرتاد موضعاً يبنى فيه هيكلاً، فوافى موضعاً
عامراً بالنبات، حسن الاعتمام بالزهر، تخترقه المياه. فحط الهيكل هناك، وجلبت له أنواع
الأحجار المختلفة الألوان، فشيد الهيكل وجعل على أعلاه قبة، وجعل لها مخارق للهواء
متساوية. وجعل في الهيكل بيوتاً لمن أراد الانفراد للعبادة.
فلما فرغ من الهيكل نصب في
أعلاه تلك التماثيل التي فيها أجسام من سلف من آبائه، وقال: في ترك ذلك على ما هو
عليه خروج عن حد الحكمة، ويكون ذلك إلى غير غاية ونهاية.
وأمر بتعظيم تلك
الأجساد التي جعلها في أعلى القبة. ثم جمع الخواص من أهل مملكته وأخبرهم أن من رأيه
أن يضم الناس إلى ديانة يرجعون إليها فيجتمع الشمل ويتساوى النظام، وقال: إنه متى عدم
الملك الشريعة لم يؤمن عليه الخلل، ودخول الفساد والزلل؛
فرتب لهم سياسة وشريعة
وفرائض، ورتب لهم قصاصاً للنفوس والأعضاء، وقاعدة تستباح بها الفروج وتصح بها
الأنساب. وجعل مما رتبه وقرره لوازم ونوافل، وأوجب عليهم صلوات لخالقهم تقرباً إلى
معبودهم منها إيماء لا ركوع فيها ولا سجود في أوقات من الليل والنهار معلومة، ومنها
بركوع وسجود في أوقات من السنين وفي شهور محدودة.
ورسم لها أعياداً، وأوجب على
الزناة منهم حدوداً، وعلى من أراد من نسائهم البغاء جزية مقررة، وألا يستبحن بالنكاح
وقتاً من الأوقات، وإن أقلعن عما كن عليه تكف الجزية عنهن.
وما يكون من أولادهن
ذكوراً يكونون للملك جنداً وعبيداً، وما يكون من أولادهن إناثاً فلأمهاتهن ويلحقن
بصنعتهن. وأمر بقرابين للهياكل ودخن وأبخرة للكواكب. وجعل لكل كوكب منها دخناً

يتقرب إليه بها معمولة من أنواع الطيب والعقاقير. وأحكم لهم جميع الأمور، فاستقامت
أيامه وكثر النسل. فكانت مدة حياته نحواً من مائة وخمسين سنة ثم مات، فجزعوا عليه
جزعاً عظيماً، وجعلوه في تمثال من الذهب ورصعوه بالجوهر وبنوا له هيكلاً عظيماً،
وجعلوا في أعلاه سبعة أنواع من الجوهر على ألوان الكواكب السبعة وأشكالها، وجعلوا
يوم وفاته صلوات وعيداً يجتمعون فيه عند ذلك الهيكل، وصوروا صورته وذكروا سيرته في
لوح من الذهب، وجعلوه في أعلى الهيكل من حيث تراه الأبصار ليكون ذلك مثالاً لمن يرد
بعده في السياسة ونهج السيرة وصوروا صورته على أبواب المدينة. وعلى الدنانير والفلوس
والثياب. وأكثر أموالهم الفلوس الصفر والنحاس. قال:
واستقرت هذه المدينة دار ملك
الصين وهي مدينة إيقو. قال: ولهم مدينة عظيمة نحو ما يلي مغرب الشمس من أرضهم
يقال لها مدو، وتلي بلاد التبت. والحرب بين أهل مدو وبين أهل بلاد التبت سجال. ولم تزل
الملوك ممن طرأ بعد هذا الملك أمورهم منتظمة، وأحوالهم مستقيمة، والخصب والعدل لهم
شامل، والجور في بلادهم معدوم، ويقتدون بما نصب لهم توتال من الأحكام. وحروبهم على
عدوهم قائمة، وثغورهم مشحونة، والرزق على الجنود جار، والتجار يختلفون إليهم في البر
والبحر من كل بلد. ودينهم دين من سلف من آبائهم، وهي ملة تدعى السمنية، عباداتهم
نحو من عبادات قريش قبل الإسلام، يعبدون الصور ويتوجهون نحوها بالصلوات. فاللبيب
فيهم يقصد بصلاته الخالق عز وجل، ويقيم التمثال من الأصنام وغيرها مقام قبلة. والجاهل
ومن لا علم له يشرك هذه التماثيل بإلاهية الخالق ويعتقدهما جميعاً، وأن عبادتهم الأصنام
تقربهم إلى الله زلفى، وأن منزلتهم في العبادة تنقص عن البارئ لجلالته وعظمته وسلطانه،
وأن عبادتهم لهذه الأصنام طاعة له ووسيلة، إلى أن ظهرت في أهل الصين آراء ونحل
حدثت من مذاهب الثنوية وأهل الدهر. وقد كانوا قبل ذلك في الآراء وعبادة التماثيل على
حسب ما عليه عوام الهند وخواصهم، فتغيرت أحوالهم وبحثوا وتناظروا، إلا أنهم

ينقادون في جميع أحكامهم إلى ما نصب لهم من القاعدة التي قدمناها. قال: وملكهم
متصل بملك الطغرغر. وكان اعتقاد الطغرغر القول بإله النور والظلمة، وكانوا قبل ذلك
جاهلية جهلاء، سبيلهم في الاعتقاد سبيل أنواع الترك، إلى أن وقع إليهم شياطين المانية،
فزخرف لهم كلاماً يريهم فيه تضاد هذا العالم وتنافيه من موت وحياة وصحة وسقم وغنى
وفقر وضياء وظلام واجتماع وافتراق واتصال وانفصال وشروق وغروب ووجود عدم وليل
ونهار وغير ذلك من سائر المتضادات، وذكر لهم أنواع الآلام المعترضة لأجناس الحيوان
الناطق والصامت، وما يعرض للأطفال والبله والمجانين، وأن الباري غني عن إيلامهم،
وأراهم أن هناك ضداً شديداً دخل على الخير الفاضل في فعله وهو الله، تعالى الله عما
يقولون علواً كبيراً، فاجتذب بذلك عقولهم ودانوا به. فإذا كان ملك الصين سمنى المذهب
يذبح الحيوانات، فتكون الحرب بينه وبين ملك الترك قائمة، وإذا كان ماني المذهب كان الأمر
بينهم مشاعاً.
قال: وملوك الصين ذوو آراء ونحل، إلا أنهم مع اختلاف أديانهم غير خارجين عن قضية
العقل وسنن الحق في نصب القضاة والأحكام، وانقياد الخواص والعوام إلى ذلك. قال: وأهل
الصين شعوب وقبائل كشعوب العرب وأفخاذها، ولهم مراعاة لحفظ أنسابهم. وينتسب
الرجل منهم إلى خمسين أباً وأكثر إلى أن يتصل بعامور. ولا يتزوج أهل كل فخذ إلا من
فخذهم، ويزعمون أن في ذلك صحة النسل وقوام البنية، وأن ذلك للبقاء وأتم للعمر.
قال المسعودي: ولم تزل أمور الصين مستقيمة في العدل على حسب ما جرى به الأمر فيما
سلف من ملوكهم إلى سنة أربع وستين ومائتين؛ فإنه حدث في ملك الصين أمر زال به النظام
وانتقض به حكم شرائعهم ومنع من الجهاد. وكان سبب ذلك أن خارجياً خرج ببلد من
مدن الصين وهو من غير بيت الملك، يقال له ياسر، شرير. وكان في ابتداء أمره يطلب
الفتوة، ويجتمع إليه أهل الدعارة والشر، فلحق الملوك وأرباب التدبير غفلة عنه لخمول ذكره،

وأنه ممن لا يبالي به؛ فاشتد أمره، ونما ذكره، وكثر عتوه، وقويت شوكته، وقطع أهل الشر
المسافات نحوه. فسار من موضعه وشن الغارات، ولم يزل كذلك حتى نزل مدينة خانقو،
وهي المدينة العظيمة. قال: وهي على نهر عظيم أكبر من دجلة أو نحوه، تدخله السفن
التي ترد من بلاد البصرة وسيراف وعمان ومدن الهند وجزائر الزابج. وبين هذه المدينة
وبحر الصين مسيرة ستة أيام أو سبعة، وفيها خلائق من الناس مسلمون ونصارى ويهود
ومجوس وغيرهم من أهل الصين. فقصد الخارجي هذه المدينة، والتقى بجيوش الملك
فهزمها. وحاصر المدينة وفتحها واستولى على المملكة، وقتل من أهل مدينة خانقو خلقاً لا
يحصون كثرة، فأحصى من قتل فيها من المسلمين والنصارى واليهود غير أهل الصين فزادوا
على مائتي ألف. ثم سار بجيوشه إلى بلد بلد فافتتحه. وقصد مدينة إيقو، وهي دار
المملكة، وهو في ثلاثمائة ألف ما بين فارس وراجل. فخرج إليه الملك في خواصه في نحو
مائة ألف والتقيا، فكانت الحرب بينهم سجالاً نحو شهر وصبرا جميعاً. ثم كانت على
الملك فانهزم، وأمعن الخارجي في طلبه. وانحاز الملك إلى مدينة في أطرف أرض الصين.
واستولى الخارجي على حوزة الصين واحتوى على دار الملك وخزائن الملوك السالفة وما
أعدوه للنوائب. وعلم أنه لا يقوم بالملك لأنه ليس من بيته، فأخرب البلاد واستباح الأموال
وسفك الدماء. فكاتب ملك الصين ملك الترك أمرخان واستنجده. فأنجده ملك الترك
بولده في نحو أربعمائة ألف فارس وراجل. وقد استفحل أمر الخارجي فالتقى الفريقان،
فكانت الحرب بينهما سجالاً نحو سنة وقتل من الطائفتين ما لا يحصى كثرة، ثم فقد
الخارجي فقيل قتل وأسر ولده وخواص أصحابه، وعاد ملك الصين إلى دار ملكه. قال:
والعامة تسميه بغيور، وتفسيره بن السماء تعظيماً له. والاسم الذي يخاطب به ملوك
الصين طمغاجيان، ثم لقبوا بعد ذلك ملكهم بالخان. قال: ولما كان من أمر هذا الخارجي
الذي ذكرناه تغلب صاحب كل عمل على عمله، وضعف ملك الصين عن مقاومتهم.

وسنذكر إن شاء الله تعالى ما آل إليه ملك الصين عند ذكرنا لأخبار الدولة الجنكزخانية.
والله أعلم.
ملوك الترك
قال المسعودي: وقد تنازع الناس في الترك وبدئهم، فذكر كثير منهم أن ولد عامور بن توبل
بن يافث بن نوح لما قسم فالغ بن عابر بن أرفخشذ بن سام بن نوح الأرض بين ولد نوح كما
ذكرنا في أخبار ملوك الصين ساروا يسرة المشرق، فقطع قوم منهم من ولد رعو على سمت
الشمال وانتشروا في الأرض، فصاروا عدة ممالك، منهم الديلم، والجيل، والطيلسان، والتتر،
وفرغانة، وأهل جبل الفتح من أنواع اللكز واللان والخزر والأبخاز والسرير وكمشك وسائر
تلك الأمم المنتشرة في ذلك الصقع والأرمن إلى طرابزندة إلى بحر مانيطش ونيطش وبحر
الخزر إلى البلغار ومن اتصل بهم من الأمم. وعبر ولد عامور نهر بلخ، ويمم بلا الصين
الأكثر منهم وتفرقوا في تلك البلاد وانتشروا في تلك الديار، منهم الختل وهم سكان ختلان
وورسنان والأسروشنة، والسغد وكانوا بين بخارى وسمرقند، ثم الفراغنة والشاش
وإسبيجاب وأهل بلاد الفاراب، فبنوا المدن والضياع، وانفرد منهم ناس غير هؤلاء فسكنوا
البوادي وهم الترك الخزلج والتغزغز وهم أصحاب مدينة كوشان، وهي مملكة بين بلاد
خراسان والصين. قال: ومن الترك الكيماكية والبرسخانية والغزية والجفرية. قال: وأشدهم
بأساً الغزية، وأحسنهم صوراً الخزلجية، وكانوا على بلاد فرغانة والشاش وما يلي ذلك
الصقع. قال: وفيهم كان الملك، ومنهم خاقان الخواقين، وكان ملكه يجمع سائر ممالك الترك
وينقاد إليه ملوكها.
قال: ولحق فريق من ولد عامور بتخوم الهند، فأثرت فيهم تلك البقاع فصارت ألوانهم
خلاف ألوان الترك ولحقوا بألوان الهند. ولهم حضر وبواد، وسكن فريق منه بلاد التبت
وملكوا عليهم ملكاً وكان ينقاد إلى ذلك الخاقان. فلما زال ملك خاقان سمى أهل التبت
ملكهم بخاقان تشبيهاً بملوك الترك.
جبل الفتح
وما عليه من الملوك والأمم

قال المسعودي: وأما جبل الفتح فهو جبل عظيم اشتمل على كثير من الممالك والأمم،
وفيه اثنتان وسبعون أمة، لكل أمة ملك ولغة تخالف لغة الأخرى. وهو ذو شعاب وأودية،
ومدينة الباب والأبواب على شعب من شعابه، وهي التي بناها كسرى. وعلى أحد
شعاب هذا الجبل بحر الخزر مما يلي الباب والأبواب، ومملكة شروان، ويلي هذه المملكة
مملكة الأرّان، وملكها يدعى الأرّان شاه. ومنها مملكة الموقانية، ومملكة اللكز، وهي أمة لا
تحصى كثرة تسكن أعالي هذا الجبل، وهؤلاء ينقادون إلى ملك شروان، ومنهم كفار لا
ينقادون إليه يقال لهم الدودانية جاهلية لا يرجعون إلى قبلة. ويلي ملك شروان ملك
طبرستان. ومن ممالك الجبل مملكة حيزان، وهي داخلة في جملة الخزر. ومملكة الخزر تلي
مملكة حيزان، وبين مملكة الخزر ومدينة الباب ثمانية أيام. ومدينة الخزر اسمها سمندر. ومن
مدن الخزر أيضاً مدينة إتل بينها وبين سمندر سبعة أيام، وهي ثلاث قطع يقسمها نهر عظيم
يرد من أعالي بلاد الترك، ويتشعب منه شعبة نحو بلاد البلغار ويصب في بحر مانيطش.
وفي هذه المدينة خلق من المسلمين والنصارى واليهود والجاهلية. فالملك وحاشيته
وجيشه من اليهود، والجاهلية بها من الصقالبة والروس، وهم يحرقون موتاهم ودواب من
يموت وآلاته. وإذا مات الرجل منهم أحرقت معه امرأته، وإن ماتت المرأة لا يحرق معها
الزوج. وأما المسلمون فهم جند الملك، ويعرفون باللارسية، وهم ناقلة من بلاد خوارزم
كانوا قد وفدوا إلى هذه المملكة لقحط أصاب بلادهم في صدر الإسلام. فاستعان بهم
الملك فأقاموا عنده على شروط، منها: أن يقيموا شعار الإسلام، وأن تكون الوزارة فيهم،
وأنه إذا كانت الحرب بينه وبين المسلمين لا يحضرونها ويحاربون معه سائر الكفار. وبالمدينة
قضاة سبعة: اثنان من المسلمين، واثنان للخزر يحكمان بحكم التوراة، واثنان من النصارى
يحكمان بالإنجيل، وواحد من الصقالبة والروس والجاهلية يحكم بالقضايا العقلية. وإذا
ورد ما لا علم لهم به من النوازل الكبار اجتمعوا إلى قضاة المسلمين فتحاكموا إليهم

وانقادوا لما توجبه الشريعة الإسلامية. وليس في الملوك من عنده جند مرتزقة غير ملك
الخزر.
قال: وفي دار مملكة الخزر رجل يكون اسمه خاقان لا يركب ولا يظهر للخاصة ولا للعامة،
ولا يستقيم ملك الخزر لملكهم إلا أن يكون عنده خاقان معه في قصره. فإذا أجدبت أرض
الخزر أو نابت بلادهم نائبة أو حرب، جاءت الخاصة والعامة إلى ملك الخزر وقالوا له: قد
تطيرنا بخاقان وبأيامه وتشاءمنا به، فاقتله أو سلمه إلينا نقتله، من غير أن يكون قد عمل ما
يوجب ذلك؛ فتارة يقتله، وتارة يسلمه إليهم فيقتلونه، وتارة يمانع عنه ويرق له. وإذا قتل
خاقان أقاموا غيره. قال: وللخزر زوارق يركبون فيها من نهر فوق المدينة يصب إلى نهر يقال
له برطاس، عليه أمم من الترك حاضرة داخلة في جملة ملوك الخزر، وعمائرهم متصلة بين
مملكة الخزر والبلغر، يرد هذا النهر من نحو بلاد البلغر. ومن بلاد برطاس تحمل جلود
الثعالب السود التي يعرف وبرها بالبرطاسي. قال المسعودي: ويبلغ ثمن الجلد منها مائة
دينار. وتلبسها الملوك وهو عندهم أغلى من السمور والفنك، والحمر دونها في الثمن.
قال: وفي أعالي نهر الخزر مصب يتصل بخليج من نهر نيطش، وهو بحر للروس لا يسلكه
غيرهم، وهم على ساحل من سواحله. وهي أمة عظيمة لا تنقاد إلى ملك ولا إلى
شريعة. وفي أرض الروس معدن من الفضة. قال: والروس أمم كثيرة، فمنهم جنس يقال لهم
البوداغية، وهم الأكثر، يختلفون بالتجارات إلى بلاد الأندلس والقسطنطينية ورومية. قال:
وبين مملكة حيزان التي ذكرناها وبين الباب والأبواب أناس من المسلمين عرب لا يحسنون
غير اللغة العربية في آجام هنالك وغياض وأودية وأنهار، ولهم قرى قد سكنوها، وهم
على نحو من ثلاثة أميال من مدينة الباب والأبواب.
قال: ويلي مملكة حيزان مما يلي الفتح والسغد ملك يقال له برزينان مسلم، ويعرف بلد هذه
الملك بالكرج. وكل ملك يلي هذه المملكة يدعى برزينان. ثم يلي مملكة برزينان ملك يقال
له عينق، وهم يدينون بدين النصرانية، ولا ينقادون لملك، ولهم رؤساء. وهم مهادنون لأهل

مملكة اللان. ثم يليهم مما يلي السور والجبل مملكة يقال لها زره كران. وتفسير ذلك بالعربية
عمال الزرد؛ لأن أكثرهم يعملون الزرد والسيوف واللجم والركب وغير ذلك من آلات
الحديد. وهم ذوو أديان مختلف من المسلمين والنصارى واليهود. وبلدهم بلد ممتنع خشن
قد امتنعوا فيه ممن جاورهم من الأمم لخشونته. ثم يلي هؤلاء ملك السرير ويدعى قبلان
شاه يدين بالنصرانية. ودار مملكته تعرف بخندج، وله اثنتا عشرة ألف قرية يستعبد منهم
من شاء. وبلده بلد منيع. وهو شعب من جبل الفتح. وهذا الملك يغير على الخزر
ويستظهر عليهم. ثم يلي هذه المملكة مملكة اللان. وملكها يقال له كركنداج، وهذا الاسم
غالب على سائر ملوكهم. وكانوا جاهلية ثم دانوا بالنصرانية، ثم رجعوا فيها بعد العشرين
والثلاثمائة. وصاحب اللان يركب في ثلاثين ألف فارس. ثم يلي ملك اللان أمة يقال لها
كمشك. وتفسير هذا الاسم بالفارسية التيه والصلف. وهم بين جبل الفتح وبحر الروم.
وهي تنقاد إلى دين المجوسية. قال: وليس في الأمم التي ذكرناها أنقى أجساداً، ولا أصفى
لوناً، ولا أحسن رجالاً، ولا أصبح نساءً، ولا أقوم قدوداً، ولا أرق أخصاراً وأظهر أردافاً،
ولا أحسن شكلاً من هذه الأمة. ونساؤهم موصوفات بلذة الخلوة. ولباسهن البياض
والديباج الرومي والسقلاطون وغير ذلك من أنواع الديباج المذهب. واللان تستظهر على
هذه الأمة إلا أنها تمتنع منها بقلاع لها على ساحل البحر. وتلي هذه الأمة على ساحل
البحر أمة يقال لبلدهم السبع بلدان، وهي أمة كثيرة ممتنعة بعيدة الدار. ويلي هذه الأمة
أمة عظيمة يقال لها إرم ذات العماد ذوو خلق عجيب جاهلية الآراء. ويلي هذه الأمة
صحراء نحو من مائة ميل، بين جبال أربعة، كل جبل منها ذاهب في الهواء، في وسط هذه
الصحراء دارة مقورة كأنها خطت ببركار، منحوتة في حجر صلد، استدارتها نحو من
خمسين ميلاً قطع قائم كأنه حائط مبني، يكون قعرها نحواً من ميلين، لا سبيل إلى الوصول
إلى مستوى تلك الدارة، ويرى بها بالليل نيران كثيرة في مواضع مختلفة، ويرى فيها بالنهار

قرى وأنهار تجري، وفيها ناس وبهائم إلا أنهم يرون لطاف الأجسام لبعد قعر الموضع لا
يدري من أي الأمم هم. ولا سبيل إلى صعودهم ولا إلى النزول إليهم من جهة من
الجهات. ووراء تلك الجبال خسفة أخرى قريبة القعر فيها آجام وغياض، فيها نوع من
القرود متنصبة القامات مستديرة الوجوه، الأغلب عليها صور الناس وأشكالهم إلا أنهم
ذوو شعور. قال: وربما وقع في النادر منها القرد إذا احتيل عليه في اصطياده، فيكون في
نهاية الفهم والدراية. وربما حمل الواحد منها إلى الملوك فيعلم القيام على رأسه بالمذبة.
ولهم خاصية بمعرفة المسموم من المآكل والمشارب. فإذا دنا الطعام منها شمته ويلقى لها
الشيء منه فإن أكلته أكله الملك، وإن امتنعت علم الملك أن ذلك مسموم.
قال: وفيما بين بلاد الخزر وبين بلاد المغرب أمم أربع من الترك ترجع في أنسابها إلى أب
واحد، وهم حضر وبدو، ذوو منعة وبأس شديد. ولكل أمة منها ملك. ومسافة كل
مملكة منها أيام، متصلة ممالكهم بعضها ببحر نيطش. وتتصل غاراتهم ببلاد رومية وما يلي
بلاد الأندلس. وهي تستظهر على سائر من هنالك من الأمم. وبينهم وبين الخزر واللان
مهادنة، وبلادهم تتصل بممالك الخزر. فالجيل الأول منهم يقال له نجا. ويليه بجعود. ويليه
بجناك؛ وهي أشد هذه الأمم الأربع بأساً، ويليه أنوجرذد . وكانت لهم حرب مع الروم بعد
العشرين والثلاثمائة. ويلي بلاد اللان أيضاً أمة يقال لها الأبخاز تدين بالنصرانية، وملك اللان
مستظهر عليهم وهم متصلون بجبل الفتح. ثم يلي بلاد الأبخاز ملك الخزرية، وهم أمة
عظيمة منقادة إلى دين النصرانية تدعى خزران ولها ملك.
قالوا: وكانوا يؤدون الخراج إلى
صاحب ثغر تفليس. وتليهم أمة يقال لها الصمصحية نصارى، ومنهم جاهلية لا ملك
لهم. ويليهم بين ثغر تفليس وقلعة باب اللان مملكة يقال لها الصنبارية، وملكهم يقال له
كريشكوش، ينقادون إلى النصرانية، ويزعمون أنهم من العرب من نزار بن معد. ثم يلي
مملكة الصنبارية مملكة شكى وهم نصارى. ويليهم مملكة أخرى وهي مأوى الصعاليك

والذعار، ثم تتصل بمملكة الموقانية وهي التي على ساحل بحر الخزر. والله أعلم
بالصواب.
ملوك مصر
ومن ملكها من الملوك قبل الطوفان وبعده، وما بنوه بها من المدن، وما أقاموه من المنارات
والأهرام والبرابي وغير ذلك من المباني، وما وضعوه بها من العجائب والطلسمات والحكم،
وما أثاروا من المعادن وما دبروه من الصنعة، وما شقوه وأنبطوه من الأنهار وغير ذلك من
عجائبها وغير ذلك من عجائبها وأخبارها.
فأما ملوكها قبل الطوفان فقد ذكرهم إبراهيم بن القاسم الكاتب في مختصر كتاب العجائب
الكبير الذي ألفه إبراهيم بن وصيف شاه. قال: أول من ملك مصر من الملوك قبل الطوفان
نقراوس، ومعناه ملك قومه وعظيمهم، وذلك أن بني آدم لما بغى بعضهم على بعض
وتحاسدوا وتغلب عليهم بنو قابيل تحمل نقراوس الجبار ابن مصرايم بن براكيل بن زرابيل
بن غرناب بن آدم في نيف وسبعين رجلاً من بني غرناب جبابرة، كلهم يطلبون موضعاً
ينقطعون فيه من بني آدم، فلما نزلوا على النيل ورأوا سعة البلد وحسنه أقاموا فيه وبنوا
الأبنية، وقالوا: هذا بلد زرع؛ وبنى نقراوس مصر وسماها باسم أبيه مصرايم ثم تركها.
وكان نقراوس جباراً له يد وبسطة، وكان مع ذلك كاهناً عالماً، له معاون من الجن، فملك
بني أبيه ولم يزل مطاعاً فيهم. وقد كان وقع إليه من العلوم التي كان زرابيل علمها من آدم.
قال: فهو وبنوه الجبابرة الذين بنوا الأعلام، وأقاموا الأساطين العظام، وعملوا المصانع،
ووضعوا الطلسمات، واستخرجوا المعادن، وقهروا من ناوأهم من ملوك الأرض ولم يطمع
طامع فيهم. وكل علم جليل في أيدي المصريين إنما هو من فضل علم أولئك القوم، كان
مرموزا على الحجارة. فيقال إن فليمون الكاهن الذي كان ركب مع نوح عليه السلام في
السفينة هو الذي فسرها لهم وعلمهم كتابتها، وسنذكر إن شاء الله تعالى خبر فيلمون في
موضعه.
قال: ثم أمرهم نقراوس حين استقر أمرهم ببناء مدينة فقطعوا الصخور والأحجار من

الجبال، وأثاروا معادن الرصاص وبنوا مدينة وسموها أمسوس، وأقاموا بها أعلاماً، طول
كل علم مائة ذراع، وعمروا الأرض، وأمرهم ببناء المدائن والقرى، واسكن أهل كل بيت
ناحية من أرض مصر، وهم الذين حفروا النيل حتى أجروا ماءه إليهم، ولم يكن معتدل
الحفر إنما كان يتسطح ويتفرق في الأرض، قال: ووجه إلى بلد النوبة جماعة حتى هندسوه
وشقوا منه أنهاراً إلى مواضع كثيرة من مدنهم التي بنوها، وشقوا نهراً عظيماً إلى مدينتهم
أمسوس يجري في وسطها وغرسوا عليه الغروس، فكثر خيرهم وعزت أرضهم وتجبر
ملكهم. قال: وبعد مائة وعشرين سمة من ملكه أمر بإقامة الأساطين العظام وزبر عليها
ذكر دخولهم البلد، وكيف نزلوا به، وحربهم لمن حاربوه من الأمم. ثم أمر ببناء قبة على
أساطين مثبتة في الرصاص، طولها مائة ذراع، وجعل على رأسها مرآة من زبرجد أخضر،
قطرها سبعة أشبار ترى خضرتها على أمد بعيد، قال: وفي مصاحف المصريين أنه سأل
الذي كان معه أن يعرفه مخرج النيل، فحمله حتى أجلسه على جبل القمر خلف خط
الاستواء على البحر الأسود الزفتي، وأراه النيل كيف يجري فوق ذلك البحر الأسود مثل
الخيوط حتى يدخل تحت جبل القمر، ثم يخرج إلى بطائح هناك. ويقال: إنه عمل بيت
التماثيل هناك، وعمل فيه هيكلاً للشمس. ورجع إلى أمسوس فقسم البلد بين بنيه، فجعل
لنقارس الجانب الغربي، ولسورب الجانب الشرقي، ولابنه الصغير وهو مصرام مدينة سماها
برسان وأسكنه فيها، وأقام فيها أساطين وشق لها نهراً وغرس بها غروساً. وعمل
بامسوس عجائب كثيرة، منها صورة طائر على أسطوانة عالية، يصفر كل يوم مرتين عند
طلوع الشمس وعند غروبها صفيراً مختلفاً، فيستدلون به على ما يكون من الحوادث
فيتأهبون لها؛ ومخزن للماء المقسوم على جناتهم مائة وعشرين قسماً لا يقدر أحد أن يحوز
ما ليس له. وعمل وسط المدينة صنمين من حجر اسود، إذا تقدم السارق لم يقدر على
الزوال عنها حتى يسلك بينهما، فإذا دخل بينهما أطبقا عليه فيؤخذ. وله أعمال كثيرة

سوى هذه. قال: وعمل في برسان صورة من نحاس مذهب على منار عال لا تزال عليها
سحب تظلها، من استمطرها أمطرت عليه ماء، فهلكت في الطوفان.
و عمل على حدود بلادهم أصناماً من نحاس مجوف وملأها ناراً وكبريتاً وجلب إليها
روحانية النار، فإن قصدهم قاصد بسوء أرسلت تلك الأصنام من أفواهها ناراً أحرقته.
وكان حد بلادهم إلى داخل الغرب مسفة أيام كثيرة عامراً كله بالقصور والبساتين، وكذلك
في المشرق إلى البحر، ومن الصعيد إلى بلاد علوة.
وعمل فوق جبال بطرس مناراً يفور بالماء يسقي ما تحته من المزارع. وملكهم مائة وثمانين
سنة. فلما مات لطخوا جسده بالأدوية الممسكة، وجعلوه في تابوت من ذهب، وعملوا له
ناووساً مصفحاً بالذهب، وجعلوا معه كنوزاً من أنواع الجواهر وتماثيل الزبرجد، وكنزاً من
الصنعة المعمولة، وأواني الذهب والطلسمات التي تدفع الهوام وغيرها، وزربوا عليه تاريخ
الوقت.
ولما مات ملك بعده ابنه نقارس بن نقراوس، فتجبر وعلا أمره، وبنى مدينة يقال لها خلجة،
وعمل فيها جنة صفح حيطانها بصفائح الذهب والحجارة الملونة، وغرس فيها أصناف
الفواكه والغروس الحسنة، وأجرى تحتها الأنهار، وأمر بإقامة الأساطين والأعلام، وركب
عليها أصناف العقاقير والأدوية وجميع العلوم. وكان معه شيطان يعمل له التماثيل العجيبة.
وهو أول من بنى بمصر هيكلاً وجعل فيه صور الكواكب السبعة، وزبر على راس كل
كوكب محارته وما يعمله من المنافع والمضار، وألبسه الثياب الفاخرة وأقام له كاهناً وسدنة.
وخرج مغرباً حتى بلغ البحر المحيط وعمل عليه أعلاماً، وجعل على رأس كل علم أصناماً
تسرج عيونها بالليل كأنها مصابيح، ورجع على بلاد السودان إلى النيل، وأمر ببناء حائط
على جانب النيل، وجعل له أبواباً يخرج الماء منها. وبنى في صحراء الغرب وراء الواحات
ثلاث مدن على أساطين، وجعل شرفها من الحجارة الملونة التي تشف، وجعل في كل ناحية
منها ثلاث خزائن للحكمة، وهي أول عجائب الأرض، وجعل الدخول إلى هذه المدائن من

الأساطين التي بنيت عليها. ففي إحدى هذه الخزائن صنم الشمس الذي هو أعظم
أصنامهم، وهي معلقة في بيت شرفها، وعلى رأسه إكليل فيه كواكبها الثابتة. وفي إحداها
صنم للشمس رأسه رأس طاووس في جسد إنسان من ذهب أزرق، وعيناه جوهرتان
صفراوان، وهو جالس على سرير مغنطيس، وفي يده مصحف العلوم. وفي إحداها صنم
رأسه رأس إنسان وجسده جسد طائر، وصورة امرأة جالسة من زئبق معقود، لها
ذؤابتان، وفي يدها مرآة وعلى رأسها صورة كوكب، وهي رافعة بالمرآة إلى وجهه، ومطهرة
فيها سبعة ألوان، من الماء السائل لا يختلط بعضها ببعض ولايوارى بعضها بعضاً، وصورة
شيخ من حجر الفيروزج، وبين يديه صبية يعلمهم، وهم من أصناف العقيق والجوهر. وفي
الخزانة الثانية صورة هرمس يعني عطارد وهو مكب ينظر إلى مائدة بين يديه من نوشادر
على قوائم كبريت أحمر، وفي وسطها مثل الصحفة من جوهر أحمر فيها دواء أخضر من
الصنعة، وصورة عقاب من زمرد أخضر عيناه من ياقوت أصفر، وبين يديه حية من فضة
قد لوت ذنبها على رجليه ورفعت رأسها كأنها تريد أن تنفخ عليه، وفي ناحية منها صورة
المريخ راكباً على فرس وبيده سيف مسلول من حديد أخضر، وعمود من جوهر أخضر،
عليه قبة من ذهب فيها صورة المشتري، وقبة من أدرك على أربعة أعمدة من جزع أزرق
في سقفها صورة الشمس والقمر متحاذيين في صورة امرأة ورجل كأنهما يتحادثان، وقبة من
كبريت أحمر فيها صورة الزهرة على صورة امرأة ممسكة بصفيرتها وتحتها رجل من زبرجد
أخضر، في يده كتاب فيه علم من علومهم كأنه يقرأ فيه عليها. وجعل في كل خزانة من بقية
الخزائن من العجائب ما لايحد، وعلى باب كل مدينة طلسمات تمنع من دخولها في صور
مختلفة لا يشبه بعضها بعضاً، وفي كل مدينة من الجوهر النفيس والذهب والفضة والكبريت
الأحمر والتربة الصنعية في البراني الملونة، وصنوف الأدوية النفيسة المؤلفة والسموم القاتلة.
وعلم كل باب من الأساطين بعلامة يعرف بها يصعد إليها من مسارب تحت الأرض. قال:

وجعل بين هذه المدائن وبين مدينة خلجة، وهي التي عمل فيها الجنة، سبعة أميال إلى
الغرب، وبينها وبين الأخرى أربعة عشر ميلاً، وبين الأخرى واحد وعشرون ميلاً.
وكان له من مدينته إلى هذه المدائن أسراب تحت الأرض يصل منها إليها، وكذلك من
بعضها إلى بعض. وعمل عجائب كثيرة أزالها الطوفان، وركبت هذه الأرض الرمال فأزالت
طلسماتها. قال: وملك نقارس مائة وسبع سنين ثم هلك فعمل له ناووس، وجعل معه من
الأشياء العجيبة ما يطول الأمر بذكره.
ثم ملك بعده أخوه مصرام بن نقراوس، فبنى للشمس هيكلاً من المرمر الأبيض وموهه
بالذهب، وجعل وسط الهيكل كالعرش من جوهر ازرق عليه صورة الشمس من ذهب
أحمر وأرخى عليها كلل الحرير الملون، وأمر أن يوقد عليها بطيب الأدهان، وجعل في
الهيكل قنديلاً من الزجاج الصافي، وجعل فيه حجراً مدبراً يضيء كما يضيء السراج واكثر
منه ضوءاً، وأقام له سدنة، وعمل له سبعة أعياد في السنة.
وقيل: إن مصر سميت به.
وتسمى به مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح بعد الطوفان لأنه وجد اسمه مزبوراً على
الحجارة. وكان فليمون الكاهن أخبرهم أخبار هؤلاء الملوك.
وكان مصرام هذا قد ذلل
الأسد في وقته فكان يركبها. وصحبه الروحاني الذي كان مع أبيه لما رأى من حرصه على
لوازم الهياكل والقيام بأمور الكواكب، وأمره أن يحتجب عن الناس. وألقى على وجهه
بسحره نوراً عظيماً لا يقدر أحد أن يتمكن من النظر إليه.
فادعى أنه إله، وغاب عن
الناس ثلاثين سنة، واستخلف عليهم رجلاً من ولد غرناب وكان كاهناً. ويقال: إن مصرام
ركب في عرش وحملته الشياطين حتى انتهى إلى وسط البحر الأسود، فعمل فيه القلعة
الفضة وجعل عليها صنمين من النحاس وزبر عليها: أنا مصرام الجبار، كاشف الأسرار،
الغالب القهار، صنعت الطلسمات الصادقة، وأقمت الصور الناطقة، ونصبت الأعلام الهائلة
على البحار السائلة، ليعلم من بعدي أنه لا يملك أحد ملكي، وكل ذلك في أوقات
السعادة.

وكان قد عمل في جنته شجرة مولدة يؤكل منها جميع الفواكه، وقبة من زجاج أحمر على
رأسها صنم يدور مع الشمس، ووكل بها شياطين إذا اختلط الظلام نادوا: لا يخرج أحد
من منزله حتى يصبح وإلا هلك، وكان أول من عمل له ذلك.
و أمرهم أن يجتمعوا له، وجلس لهم في مجلس عال مزين بأصناف الزينة وتجلى لهم في
صورة هالتهم وملأت قلوبهم رعباً، فخروا على وجوههم ودعوا له. فأمر بإحضار الطعام
والشراب فأكلوا وشربوا ورجعوا إلى مواضعهم ثم لم يروه بعد. وبلغ بكهانته ما لم يبلغه
أحد من آبائه.
ثم ملك بعده عنقام الكاهن؛ فعدل فيهم، وعمل مدينة عجيبة قرب العريش جعلها لهم
حرساً. وقيل: إن إدريس عليه السلام رفع في زمانه. قال: ويحكى عنه أهل مصر
حكايات كثيرة تخرج عن العقول. وكان قد رأى في علمه كون الطوفان، فأمر الشياطين التي
تصحبه أن تبنى له مكاناً خلف خط الاستواء بحيث لا يلحقه الفساد، فبنى له القصر
الذي في سفح جبل القمر، وهو قصر النحاس الذي فيه التماثيل، وهي خمسة وثمانون تمثالاً،
يخرج ماء النيل من حلوقها وينصب إلى بطيحة.
ولما عمل له ذلك القصر أحب أن يراه قبل أن يسكنه، فجلس في قبته وحملته الشياطين
على أعناقها إليه. فلما رأى حكمة بنيانه وزخرفة حيطانه ومافيه من النقوش وصور
الأفلاك والكواكب، وغير ذلك من صنوف العجائب وكان يسرج بغير مصابيح، وتنصب
فيه موائد يوجد عليها من كل الأطعمة ولايدري من يعملها، وكذلك الأشربة في أوان،
يستعمل منها ولاتنقص. وفي وسطه بركة من ماء جامد الظاهر ترى حركته من وراء ما
جمد منه، وأشياء كثيرة من هذا النوع وإن كانت تنبو عن العقول أعجبه ما رأى، ورجع
إلى مصرفاً مستخلف ابنه عرناق وأوصاه بما يريده وقلده الملك، ورجع إلى ذلك القصر فأقام
به حتى هلك هناك.
وإليه تعزى مصاحف القبط التي فيها تواريخهم وجميع ما يجري إلى آخر الزمان.
قالوا: ولم تطل مدة ملكه.

ثم ملك بعده ابنه عرناق بن عنقام. ملك بعد أبيه وعمل عجائب كثيرة، منها شجرة صفر
فيها أغصان حديد بخطاطيف حادة إذا تقرب منها الظالم والكاذب تقربت إليه تلك
الخطاطيف فتعلقت به وشكت بدنه ولم تفارقه حتى يحدث عن نفسه بالصدق ويعترف
بظلمه ويخرج عن ظلامة خصمه. وعمل صنماً من صوان أسود وسماه عبد قزويس، أي
عبد زحل، فكانوا يحتكمون إليه، فمن زاغ عن الحق ثبت في مكانه فلم يقدر على الخروج
منه حتى ينصف من نفسه ولو أقام سنة أو أكثر. ومن كانت له حاجة منهم أو طلب
شيئاً بخر الصنم ليلاً ونظر إلى الكواكب وذكر اسم عرناق وتصرع فيصبح وقد وجد
حاجته على باب منزله. قال: وكان عرناق ربما حملته أطيار عظام وتمر به وهم يرونه.
وكان ربما غضب على ناس فجعل ماءهم مراً لا يذاق، وسلط عليهم وحوش الأرض
وسباعها وهوامها. قال:
و تجرأ على صيد السباع والوحوش، وعمل عجائب، منها انه عمل شجرة من حديد ذات
أغصان لطخها بدواء مدبر، فكانت تجتلب كل صنف من الوحش.
قال: وفي كتب
المصريين أن هاروت وماروت كانا في وقته وعلما أهل مصر أصنافاً من السحر، ونقلا بعد
الطوفان إلى بابل. وكان عرناق يجتلب النساء بسحره ويغتصبهن، وكان يسكن الجنة التي
عملها نقارس، فاحتالت عليه امرأة من المغصوبات فسمته فهلك وبقي مدة لا يعرف خبره.
وكان من رسمه - إذا خلا بنسائه - لا يقربه أحد، فلما تأخر خبره عن الناس هجم عليه
فتىً من بني نقراوس يقال له لوخيم ومعه نفر من أهله، فوجدوه ملقى في فراشه جيفة. فأمر
أن توقد له ناراً فأحرقه فيها. وجمع النسوة اللواتي كن في الجنة، فمن كانت من نسائه تركها،
ومن كانت من المغصوبات سرحها إلى أهلها، ففرح الناس بذلك وبما نزل به.
وملك بعده لوخيم وجلس على سرير الملك ولبس تاج أبيه، وأمر بجمع الناس وقام فيهم
وتكلم وذكر ما كان عليه عرناق الأثيم من سوء السيرة واغتصاب النساء وسفك الدماء،

ورفض الهياكل والاستخفاف بالكهنة إلى أن هلك، وأنه أحق بتراث أبيه وجده. وضمن
للناس العدل والإحسان والقيام بأمرهم ودفع كل أذى عنهم. فرضى الناس به وأطاعوه
وقالوا: أنت أحق بالملك، ولازلت دائم السعادة طويل العمر قائماً بتجويد الهياكل وتعظيمها.
فركب إلى هيكل الشمس فقرب له بقراً كثيراً، وسار في الناس بالعدل. قال: وكانت
الغرانيق قد كثرت في زمن عرناق فأهلكت زروع الناس. فعمل لوخيم أربعة منارات من
نحاس في أربعة جوانب أمسوس، وجعل على كل منارة صورة غراب في فمه قد التوت عليه
فلم يقربهم شيء من تلك الطيور، فكانت كذلك حتى أزالها الطوفان.
قال: ومن ملوكهم خصليم وهو أول من عمل مقياساً لزيادة الماء؛ وذلك أنه جمع أصحاب
العلوم والهندسة فعملوا بيتاً من رخام على حافة النيل، وجعل في وسطه بركة من نحاس
صغيرة فيها ماء موزون، وعلى حافتي البركة تمثال عقابين من نحاس ذكر وأنثى. فإذا كان
في أول الشهر الذي يزيد فيه الماء فتح باب البيت وحضر الكهان وأمناء الملك وتكلموا
بكلام لهم حتى يصفر أحد العقابين، فإن صفر الذكر كان الماء زائداً، وإن صفرت الأنثى
كان الماء ناقصاً، ثم يعتبرون الماء فكل إصبع يكون في تلك البركة فهو ذراع من زيادة النيل،
وكل إصبع ينقص فهو نقصان ذراع. فإذا علموا ذلك حفروا الترع وأصلحوا الجسور.
وعمل على النيل القنطرة التي هي ببلاد النوبة. وكان له ابن سماه هرصال، أي خادم
الزهرة، لرؤيا كانت رأتها أخت الملك أ، الزهرة تخاطبها، وكفلت الغلام عمته، واسمها
خرداقة، وأدبته أحسن التأديب، وزوجته عشرين امرأة من بنات الملوك والعظماء، وبنت له
مدينة فيها عجائب كثيرة، احتفلت بها وزينتها بأحسن النقوش والزينة والعمارة، وعملت
فيها حماماً معلقاً على أساطين يرتفع الماء إليها حاراً من غير وقيد. ولما هلك خصليم
دفن في ناووس.
ثم ملك بعده ابنه هرصال بن خصليم فتحول إلى المشرق وسكنه، وبنى مدينة هي

إحدى المدائن ذوات العجائب، وعمل في وسطها صنماً للشمس يدور بدورانها ويبيت
مغرباً ويصبح مشرقاً. ويقال: إنه عمل ن تحت النيل سرباً. وهو أول من عمل ذلك.
وخرج متنكراً يشق الأمم إلى أن بلغ بابل، ورأى ما عمل الملوك من العجائب. وعلم حال
ملكها في الوقت وسيرته ومجاري أموره. ويقال: إن نوحاً عليه السلام ولد في وقته. قال:
وولد لهرصال عشرون ولداً، جعل مع كل ولد منهم قاطراً وهو رأس الكهنة، وتزعم القبط
أنه بعد مائة وسبع وعشرين سنة من ملكه لزم الهياكل وتعبد للكواكب فأخفته عن أعين
الناس. وأقام بنوه على حالهم كل واحد منهم في قسمه الذي أعطاه إياه يدبره ولا يشركه
فيه غيره. وأمور الناس جارية على سداد، فأقاموا كذلك سبع سنين. ثم وقع بين الإخوة
تشاجر، واجتمع رأي الكهنة على أن يجعلوا أحدهم ملكاً، ويقيم كل واحد منهم في
قسمه. فاجتمعوا في ذلك اليوم في دار المملكة، وقام رأس الكهان فتكلم وذكر هرصال
وسعادة أيامه وما شملهم فيها من الخير، وأخبر بما رأته الجماعة من تقليد أحدهم الملك.
فإن كان هرصال لم يمت ورجع إليهم لم ينكر ما فعلوه لأنهم أرادوا بذلك حفظ ملكه، وإن
لم يرجع كان الأمر قد جرى على ما سلف من قيام ملك بعد ملك فاجتمع رأيهم على أكبر
ولده وهو:
ندسان بن هرصال. فملك وسار سيرة أبيه وحمد الناس أمره. وعمل قصراً من خشب
ونقشه باحسن النقوش، وصور فيه صور الكواكب ونجده بالفرش وحمله على الماء وكان
يتنزه فيه. فبينما هو فيه إذ زاد النيل زيادة عظيمة وهبت ريح عاصف فانكسر القصر
وغرق الملك. وكان قد نفى إخوته إلى المدائن الداخلة في الغرب. واقتصر على امرأة من
بنات عمه، وكانت ساحرة، فتفرد بها واستخلف بعض وزرائه على الملك وأقبل على لذته
ولهوه. فلما هلك كتمت امرأته الساحرة موته، وكان أمرها ونهيها يخرجان إلى الوزير عن
الملك. وأقام الناس تحت طاعته سبع سنين لا يعلمون بأمره. فلما رأى إخوته طول غيبته

جمعوا جموعاً كثيرة وقدموا على أنفسهم أحدهم وهو شمرود الجبار وساروا إلى أمسوس.
وبلغ ذلك امرأة ندسان الساحرة فأمرت الوزير بالخروج إليهم ومحاربتهم، ففعل ذلك ولقيهم
فمزقوه وقتلوا كثيراً ممن كان معه، ودخلوا مدينة أمسوس، وأتوا دار المملكة فلم يروا ندسان
وأيقنوا بهلاكه.
وملك شمرود بن هرصال فسر الناس به، ووعدهم بحسن السيرة فيهم وتغيير ما كانوا
ينكرونه على أخيه. واستولى على كنوزه وخزائنه ففرقها على إخوته، وأقطعهم جميع ما
كان في يد ندسان. وطلب امرأته الساحرة وابنها ليقتلهما، فانتقلت إلى مدينة أهلها من
الصعيد، وكانوا كلهم كهاناً سحرة، فامتنعت بهم، وأرسلت إلى الناس وعرفتهم أن ابنها
الملك في وقته؛ لأن أباه قلده الملك وأمرها أن تدبر أمره حتى يكبر، فصدقوها وأجابوها
وقالوا: إن الغلام مغصوب على ملك أبيه، وإن شمرود متغلب. فاجتمع في ناحيتها جماعة
من أهل البلد وزحف ابن الساحرة وقد عمل له السحرة أصنافاً من التخاييل الهائلة
والنيران المحرقة، فقامت الحرب بينهم أياماً، فانهزم شمرود وإخوته وتعلقوا ببعض الجبال.
وملك توميدون بن ندسان وهو ابن الساحرة. ودخل دار الملك وجلس على السرير
ولبس التاج الذي كان لأبيه وأطاف به بطانة أبيه، وهو يومئذ حدث السن، وكانت أمه تدبر
أمره، فقتل كل من كان مع شمرود. وطلب شمرود حتى ظفر به، واجتمع الناس لينظروا ما
يصنع به، فشد رأسه برأس أسطوانة قائمة، ورجلاه برأس أسطوانة أخرى. وكان طوله
فيما يذكر القبط عشرين ذراعاً، ووكلت الساحرة به حرساً لتقتله يوم عيدها، وكان قريباً،
فصاح بالليل صيحة مات منها بعض الحرس وهرب الباقون، فلما اتصل بها ذلك أوقدت
ناراً وأمرت بإنزاله وجعلت تقطع منه عضواً عضواً وترميه في النار. قال: وخرج ابنها
كاهناً منجماً، وعملت له الشياطين قبة الزجاج الكبيرة الدائرة على دوران الفلك، وصوروا
عليها صور الكواكب، وكانوا يعرفون الطالع منها وما يحدث بطلوعه بعد ستين سنة. ثم

ماتت أمه الساحرة وأوصت أن يجعل جسدها تحت صنم القمر فإنه يخبرهم بالعجائب
وما يسألون عنه ففعلوا ذلك وذل الناس لابنها وهابوه، وكان يتصور لهم في صور كثيرة،
وملكهم مائة سنة وستين سنة. ولما حضره الموت أمرهم أن يعملوا له صنماً من زجاج
على شقين ويطبق على جسده بعد أن يطلى بالأدوية الممسكة ويلحم ويقام في هيكل
الأصنام، ويجعل له عيد في السنة ويقترب له قربان، وتدفن علومه وكنوزه تحته، ففعلوا ذلك
كله.
ولما مات ملك بعده ابنه شرناق بن توميدون، فعمل بسيرة أبيه وجدته، واجتمع الناس
عليه. وزحف رجل من بني صرابيس بن إرم من ناحية العراق، فتغلب على الشام، وأراد
أن يزحف إلى مصر، فعرف أنه لا يصل إليها لسحر أهلها، فأراد أن يدخلها متنكراً ليقف
على أحوالها، فخرج في نفر حتى بلغ الحصن الذي كانوا بنوه على مصر. فسألهم الحرس
الموكلون به عن أمرهم، فعرفوهم أنهم قصدوا بلدهم ليسكنوه، فحبسوهم وطالعوا الملك
بخبرهم. وكان الملك قد رأى في منامه كأنه قائم على منار لهم عال، وكأن طائراً عظيماً
انقض عليه ليختطفه، فحاد عنه حتى كاد يسقط عن المنارة فجاوزه ولم يضره، فانتبه
مرعوباً، وبعث إلى رأس الكهنة فقص عليه رؤياه، فعرفه أن ملكاً يطلب ملكه فلا يصل
إليه. فنظر في علمه فرأى أنه قد دخل بلده. فلما وردت الرسل بذكر القوم علم أن الملك
فيهم؛ فوجه جماعة من أصحابه فاستوثقوا منهم وحملوهم إليه، وقد كان أمرهم أن يطوفوا
بهم في أعمال مصر كلها ليروا فيها من الطلسمات والأصنام المتحركات والعجائب
المعجزات، فبلغوا بهم إلى الاسكندرية، ثم ساروا بهم إلى أمسوس وطيف على عجائبها.
ثم سير بهم إلى الجنة التي عملها مصرام، وكان الملك مقيماً بها وأمر السحرة بإظهار
التهاويل والتخابيل، فجعلوا يتعجبون مما رأوا إلى أن وصلوا إلى شرناق الملك والكهنة حوله
وقد أظهروا صنوف العجائب، وجعلوا بين يدي الملك ناراً عظيمة لا يصل إليه إلا من

خاضها ولا تضر إلا من أضمر للملك غائلة، وأمر بدخولها، فشقوها واحداً واحداً لم ينلهم
منها أذى، وكان الملك آخرهم، فلما دنا من النار أخذته فولى هارباً. فأتي به شرناق فسأله
عن أمره فأقر، فأمر بقتله على أسطوانة عند باب الحصن من ناحية الشام، فقتل وزبر عليه:
هذا فلان المتغلب على الشام أضمر غائلة الملك، طلب ما لا يصل إليه فعوقب بهذا. وأمر
بإخراج الباقين من بلاده فأخرجوا. وقيل لهم: قد وجب عليكم القتل لصحبتكم من أراد
الفساد في الأرض، ولكن الملك عفا عنكم. فكانوا لا يمرون على أحد إلا حدثوه بما رأوا
من العجائب، فانقطعت أطماع الملوك عن الوصول إلى مصر والتعرض إليها، وعملت في
أيامه عجائب كثيرة، منها أنه عمل على باب كل مدينة بطة نحاس قائمة على أسطوانة، فإذا
دخل الغريب من الباب صفقت بجناحيها وصرخت، فيؤخذ ويكشف عن أمره. وشق
إلى مدائن الغرب نهراً من النيل، وبنى على عبره منازل وأعلاماً وغرس بينها غروساً، وكان
إذا خرج إليها سار في عمارة متصلة، وملكهم مائة سنة وثلاثين سنة ثم مات.
وملك بعده ابنه سهلوق بن شرناق، وكان كاهناً منجماً، فأفاض العدل وقسم ماء النيل
قسماً موزوناً، صرف إلى كل ناحية قسمها، ورتب المراتب وجعلها على سبعة أقسام:
فالطبقة الأولى الملك وولده وأهل بيته ومن يلي عهده ورأس الكهان والوزير الأكبر وقائد
الجيش الأكبر وصاحب خاتم الملك وصاحب خزانته. والطبقة الثانية مراتب العمال
والمتولين جباية الأموال والإشراف على النفقات في أمر المملكة ومصالح البلد والعمارات
وقسمة المياة. والطبقة الثالثة الكهان وأصحاب الهياكل وخدمتها ومتولو القرابين والمشرفون
على جميع ما يتقرب به من بواكير الفواكه والرياحين وفتى البقر والفراريج الذكور ورءوس
خوابي الشراب. والطبقة الرابعة المنجمون والأطباء والفلاسفة. والطبقة الخامسة
أصحاب عمارة الأرض ومتولو أمر الزراعة. والطبقة السادسة أصحاب الصناعات والمهن
في كل فن، والمشرفون على أعمالهم ونقل ما يستحسنون منها إلى خزانة الملك. والطبقة

السابعة أصحاب الصيد من الوحش والسباع والطير والهوام والخشاش، والمشرفون على
أخذ دمائها ومرائرها وشحومها وحملها إلى الأطباء لإصلاح العقاقير وتأليق الأدوية. وتقدم
ألا يدخل أهل مهنة ولا صناعة في غيرهم، ومن قصر في عمله عوقب، ومن أحسن في
عمله جوزى بقدره. وكانت رتبة الألحان والملاهي في قسمة الملك: وتقدم في استنباط
المعادن وبناء المدائن ونصب الأعلام والمنارات وإبداع الصناعات وجر المياه وتوليد غرائب
الأشجار. وأقام على أعالي الجبال سحرة يقسمون الرياح ويمنعون من يقصدهم ويقصد
بلادهم بأذى، وكذلك كل مفسد من طائر وسبع ووحش وهوام، وأجرى أمر البلاد والناس
على سداد، وجعل في كل صنف من الناس صنفاً من الكهنة يعلمونهم الدين، ودينهم يومئذ
الصابئة الأولى. ويرفع كل صنف منهم ما يجري من أمر ما يتولونه إلى الملك في كل يوم.
وعمل البيت ذا القباب النورية الثلاث، وأوقد فيه النار الدائمة تعظيماً للنور. والقبط تزعم
أنه أول من وضع بيتاً لتعظيم النار.
وقيل: إن جم الفارسي إنما بنى بيت النار - وهو أول من عمل ذلك للفرس - اقتداء
بسهلوق مصر. وكان السبب في عمل سهلوق بيت النار أنه رأى أباه في نومه يقول له: انطلق
إلى جبل كذا من جبال مصر فإن فيه كوة من صفتها كذا وكذا، وإنك واجد على باب
الكوة أفعى لها رأسان، وإنها إذا رأتك كشت في وجهك، فليكن معك طيران صغيران،
فإذا رأيت الأفعى فاذبحهما لها وألقهما إليها، فإنه يأخذ كل رأس من رأسيها أحد الطيرين
وتتنحى إلى سرب قريب من الكوة فتدخله، فإذا غابت عنك فادخل الكوة فإنك تنتهي إلى
آخرها إلى صورة امرأة جميلة الخلق، وهي من نور حار يابس، وسوف يقع عليك وهجها
وتحس بحرارة شديدة، فلا تقرب منها فتحترق، وقف وسلم عليها فإنها تخاطبك فاسكن
إلى خطابها، وانظر ما تقوله لك فاعمل به، فإنك تشرف بذلك. وهي حافظة كنوز جدك
مصرام التي رفعها إلى مدائن العجائب المعلقة وهي تدلك عليها. وتنال مع ذلك شرفاً في
بلدك وطاعة في قومك، ثم مضى وتركه.

فلما انتبه سهلوق جعل يفكر فيما رأى ويتعجب منه، ورأى أن ينفذ ما أخبره به أبوه،
فمضى إلى الجبل وحمل الطيرين معه وفعل جميع ما أمره أبوه إلى أن وقف حذاء المرأة وسلم
عليها، فقالت له: أتعرفني؟ قال: لا، لأني ما رأيتك قبل وقتي هذا.
قالت: أنا صورة النار المعبودة في الأمم الخالية، وقد أردت أن تحيي ذكرى وتتخذ لي بيتاً
وتوقد فيه ناراً دائمة بقدر واحد، وتتخذ لها عيداً في كل سنة تحضره أنت وقومك فإنك
تتخذ بذلك عندي يداً وتنال به شرفاً وملكاً إلى ملكك، وأمنع عنك وعن بلدك من
يطلبك ويعمل الحيلة عليك، وأدلك على كنوز جدك مصرام. فلما سمع ذلك منها ضمن لها
أن يفعل، ودلته على الكنوز التي كانت لجدة تحت المدائن المعلقة، وكيف يصير إليها ويمتنع
من الأرواح الموكلة بها وما يبخرها به. فلما فرغ من ذلك قال لها: كيف لي بأن أراك في
الأوقات وأسألك عما أريده، أأصير إليك في هذا المكان أو غيره؟
قالت: أما هذا المكان
فلا تقدر بعد وقتك هذا عليه؛ لأن الأفعى التي رأيتها فيه قيمته لأن فيه آية تمنع أن يوقف
عليها في وقتنا هذا، ولكن إن أحببت أن تراني فدخن في البيت الذي تعمله لي بكذا
وكذا: أشياء ذكرتها له، منها: عظام ما يقربه له من القرابين والذبائح والصموغ، فغني أتخيل
لك وأخبرك بكل حق وباطل مما يكون في بلدك. فلما سمع ذلك منها سر به وغابت عنه،
وظهرت الأفعى وخرج هارباً وجعل على الكوة سداً، وعمل ما أمرته به وأخرج كنوز
جده.
وعمل من العجائب بأمسوس وغيرها ما يطول شرحه. وعمل القبة المركبة على سبعة
أركان، ولها سبعة أبواب، على كل باب صورة معمولة، وكان يقال لها قبة القصر. وكان
السبب في بنائها أن بعض الكهان جار في قضية قضى بها؛ وذلك أن بعض العامة أتاه
يشكو امرأته - وكان يحبها والمرأة تبغضه - وسأله أن يقومها له، وكانت المرأة من أهل
بيت الكاهن، فمالأها على زوجها، وأمره بتخليتها فلم يفعل، فحبسه وشدد عليه، وكان

من أهل الصناعات، فاجتمع جماعة من أهل صنعته ممن كان قد عرف حال المرأة معه
وأنها له ظالمة وهو لها منصف، فوقفوا على ظلم الكاهن فاستعدوا عليه عند خليفة
الملك. فاحضر الكاهن وسأله، فذكر أنه لم يحكم إلا بواجب. فأحضر رؤساء الكهنة
والقوم الذين شهدوا للرجل، فوقف على ظلم الكاهن فأحرج الرجل وحبس الكاهن مكانه،
وأمر بعقوبة المرأة وردها إلى زوجها ورفع ذلك إلى الملك، فأمر بإخراج الكاهن من رسم
الكهانة، وأن يعاقب ويحبس إلى أن يرى فيه رأيه. واهتم الملك لذلك وخشي أن يجري من
غير ذلك الكاهن في أمر الرعية مثل ما جرى منه، فبات مهموماً. ثم فكر في أمر النار،
فأتى إلى بيت النار ودخن بالدخنة التي أمرته بها، فأتته وخاطبته. فسألها أن تعمل له
عملاً يقف به على حقيقة أمر المظلوم من الظالم، فأمرته أن يعمل بيتاً مركباً على سبعة
أركان ويجعل له سبعة أبواب في كل ركن باب، ويعمل في وسطه قبة من صفر، ويصور عليها
صور الكواكب السبعة، ويعمل تحت القبة مطهره من جوهر ملون، ويجعل فيها سبعة
أدهان من أشجار مختلفة؛ وتكون القبة معلقة على سبعة أساطين، ويعمل على الباب الأول
تمثال أسد رابض، وحذاءه من الجانب الآخر لبؤة رابضة من صفر ويقرب لهما جرو أسد
ويبخرهما بشعره. وعلى الباب الثاني صورة ثور وبقرة ويذبح لهما عجلاً ويبخرهما بشعره.
وعلى الباب الثالث صورة خنزير وحذاءه خنزيرة ويذبح لهما خنوصاً ويبخرهما بشعره.
وعلى الباب الرابع صورة فرس وحجر ويذبح لهما مهراً ويبخرهما بشعره.
وعلى الباب الخامس صورة ثعلب وحذاءه أنثاه ويذبح لهما جرو ثعلب ويبخرهما بوبره
وعلى الباب السادس صورة حمار وحذاءه أتان ويذبح لهما فروجاً وينخرهما بشعرة.
وعلى الباب السابع ديك وحذاءه دجاجة ويذبح لهما فروجاً ويبخرهما بريشه. ويلطخ
وجوهها جميعاً بدم ما يذبح. ثم يحرق بقية القربان ويجعل تحت عتب أبوابها وتغلق
الأبواب، ويقام للبيت سدنة يوقدونه ليله ونهاره. فإذا فرغ ذلك يتكلم على باب الكواكب

السبعة، فإني سوف ألقى روحانية الكواكب على تلك الصور فتنطق. وإذا فرغت من
ذلك فاجعل لكل مرتبة من المراتب التي قسمتها باباً من تلك الأبواب، وليكن باب الأسد
لأهل بيت المملكة، وسائر الأبواب لسائر المراتب. فإذا تقدم الخصمان إلى شيء من تلك
الصور التصقت بالظالم وشدت عليه شداً عنيفاً يؤلمه حتى يخرج لخصمه من حقه، الذكر
للذكر، والأنثى للأنثى، فيعرف بذلك المظلوم من الظالم، ومن كان له قبل أحد حق ودعاه
إلى تلك الصور فلم يجئ معه فأتاه المظلوم، وقد عرف الصورة ذلك، أقعد الظالم من رجليه
وخرس لسانه ولم يتحرك. فاستراح الملك إلى تلك الصورة. ولم تزل على ذلك حتى أزالها
الطوفان مع ما أزال من أعمالهم وطلسماتهم وعجائبهم.
وعملت في أيام سهلوق أعمال
كثيرة، وكتبت سيرته وما عمل من العجائب في مصحف. وعمل عقاقير كثيرة وتماثيل
ومحركات وصنعة، وأمر أن يحمل ذلك كله إلى ناووس عمله لنفسه في الجبل الغربي ونقل إليه
حكمه. وهلك بعد أن ملك تسعاً وستين سنة وحمل إلى ناووسه، وأقام أهل المملكة
ووجوه المدينة ونساؤهم عند ناووسه شهراً يبكون عليه ويتوجعون عنده، واغتموا عليه
غماً لم يغتموه على ملك قبله، وأقاموا لناووسه سدنة يخدمونه.
وملك بعده ابنه سوريد بن سهلوق؛ وكان أبوه قد قلده الملك قبل مهلكه، فملك واقتفى
سيرة أبيه في العمارة ومصالح البلد والإنصاف بين الناس والأخذ لهم من نفسه وأهل بيته،
وعمل الهياكل وبنى المنارات، ونصب الأعلام والطلسمات فأحبه الناس.
وبنى بالصعيد ثلاث مدائن وعمل فيها عجائب كثيرة. وهو أول من جبى الخراج بمصر،
وألزم أهل الصناعات على أقدارهم، وأول من أمر بالإنفاق على الزمني والموضى من
خزائنه. وعمل مرآة من أخلاط كان ينظر منها جميع الأقاليم ما اخصب منها وما أجدب
وما حدث فيها، وكانت المرآة على منارة من النحاس وسط مدينة أمسوس، وكان يعلم من
المرآة من يقصد مدينته من جميع النواحي فيتأهب له. وهو أول من عمل صحيفة في كل يوم

يكتب فيها جميع ما يكون في يومه وما يعمله ويرفع إليه، ثم يخلد في خزانته يوماً بيوم. وإذا
مضى الشهر نقلت إلى مصحف الملك وختمه بخاتمه، وما صلح أن يزبر على الحجارة زبره:
وكذلك ما عمل من الصنائع وما احدث منها. وكان يعطي الرغائب على الصناعات
العجيبة والحكم الغريبة. وعمل في المدائن صورة امرأة جالسة في حجرها صورة صبي
كأنها ترضعه، فمن أصابتها على بجسمها مسحت ذلك الموضع من جسد تلك الصورة
فيزول عنها ما تجد، وكذلك إن قل لبنها مسحت ثديها، وإن أحبت أن يعطف عليها
زوجها مسحت وجهها بدهن طيب وقالت افعلي كذا وكذا، وإن قلت حيضتها مسحت
فوق ركبها، وإن كثر دمها ونزفت مسحت تحت ركبها، وإن أصاب ولدها شيء فعلت
مثل ذلك بالصبي فيبرأ، وإن عزت ولادتها ومسحت رأس الصبي سهلت ويسهل
افتضاضها، وإذا بخرته ومسحته بدهن طيب منع جميع التوابع. وإذا وضعت الزانية يدها
عليها ارتعدت حتى تكف عن زناها. وما كان من أعمال الليل بخرت ليلاً، وما كان من
أعمال النهار بخرت نهاراً. وكانت تعمل أعمالاً كثيرة إلى أن أزالها الطوفان.
قال: وفي بعض كتب القبط أنها وجدت بعد الطوفان وأنهم استعملوها وعبدوها.
وصورتها مصورة في جميع البرابي، واسمها نبلوية، والذي دلهم عليها قرابة فليمون
الكاهن. قال: وعمل سوريد عجائب كثيرة، منها الصنم الذي يقال له نكرس المعمول من
عدة أخلاط كان يعمل أعمالاً كثيرة في الطب ودفع الأسقام والعلل، ويعرفون به من تبرئة
الأدوية فيعيش، وإن كان يموت فله علامات فيقصرون عن علاجه، وكانوا يغسلون المواضع
التي بإزاء أعضاء العلل منه ويسقى لصاحب الداء فيزول عنه. وهو أول من عمل
الأفروثنات وزبر فيها جميع العلوم. وهو الذي بنى الهرمين الكبيرين.

بناء الأهرام

وسبب بنائها وشيء من عجائبها

قال: كان بناء الأهرام قبل الطوفان بنحو ثلاثمائة سنة. وقد ذكرنا فيما سلف من كتابنا

هذا نبذة من خبر الأهرام في الباب الثالث من القسم الخامس من الفن الأول؛ وذلك في
السفر الأول من هذه النسخة. ونحن الآن نذكر من خبرها خلاف ما قدمناه مما أورده
إبراهيم بن القاسم الكاتب مما اختصره من كتاب العجائب الكبير لإبراهيم بن وصيف
شاه. قال: كان سبب بنائها أن الملك سوريد رأى رؤيا أفزعته؛ رأى كأن الأرض انقلبت
بأهلها، وكأن الناس يخرون على رءوسهم، وكأن الكواكب تتساقط ويصدم بعضها بعضاً
بأصوات هائلة مفزعة، فغمه ذلك ولم يذكره لأحد، وعلم أنه سيحدث في العالم أمر عظيم.
ثم رأى بعد ذلك بأيام كأن الكواكب الثابتة نزلت إلى الأرض في صور طيور تنصب، وكأنها
لتخطف الناس وتلقيهم بين جبلين عظيمين، وكان الجبلين انطبقا عليهم، وكأن الكواكب
النيرة مظلمة كاسفة، فانتبه أيضاً مذعوراً فزعاً، فدخل إلى هيكل الشمس وجعل يمرغ
خديه ويبكي. ولما أصبح أمر بجمع رؤساء الكهنة من جميع أعمال مصرفاً فاجتمعوا،
وكانوا مائة وثلاثين، فخلا بهم وقص عليهم رؤياه، فأعظموه وأكبروه وأولوه على أمر عظيم
يحدث في العالم. فقال لهم فليمون - وكان من كبارهم وكان لا يبرح من حضرة الملك لأنه
رأس كهنة أمسوس -: إن في رؤيا الملك لعجباً وأمراً كبيراً، والملوك رؤياهم لا تجري على
فساد ولا كذب لعظم أخطارهم، وكبر أقدارهم. وأنا أخبر الملك عن رؤيا رأيتها منذ سنة
لم أذكرها لأحد من الناس. فقال له الملك: قصها علينا. قال: رأيت كأني مع الملك على
راس المنار الذي في أمسوس، وكأن الفلك قد انحط من موضعه حتى قارب سمت
رءوسنا، وكان علينا كالقبة المحيطة بنا، وكأن الملك قد رفع يديه نحو السماء وكواكبها قد
خالطتنا في صور مختلفة، وكأن الناس يستغيثون بالملك وقد انضموا إلى قصره، وكأن الملك
رافع يديه ليدفع الفلك أن يبلغ رأسه، وأمرني أن أفعل فعله ونحن على وجل شديد، إذ رأينا
منه نوراً مضيئاً طلعت علينا منه الشمس، فكأنا استغثنا بها، فخاطبتنا بان الفلك
سيعود إلى موضعه إذا مضت ثلاثمائة دورة، وكأن الفلك لصق بالأرض ثم عاد إلى

موضعه، ثم انتبهت فزعاً. فعند ذلك قال لهم الملك: خذوا ارتفاع الكواكب فانظروا هل
من حادثة تحدث. فنظروا فأخبروه بأمر الطوفان وبعده بذكر النار التي تخرج من برج
الأسد تحرق العالم، فذكروا له أن ذلك يكون في وقت عينوه له من مقارنات النجوم ونزولها في
الأبراج على ما حرروه من الدقائق، وشرحه إبراهيم في كتابه مما لا فائدة لنا في ذكره. قال:
فلما تبين ذلك له أمر بقطع الأساطين العظام ونشر البلاط الكبير المصفح، واستخراج
الرصاص من أرض المغرب، وإحضار الصخور السود التي جعلها أساساً من ناحية أسوان،
وكانت تحمل على أطواف. وقيل: كانت لهم فراقل من خوص لها عذب وعليها كتابة
منقوشة، فكانوا إذا ضربوا بها الحجارة عدت على وجه الأرض وحدها مقدار رمية سهم
حتى وضعت الأساسات.
وأمر أن يزبر على البلاط المنشور المهندم جميع علومهم. ثم بنى الأهرام الثلاثة الأول:
الشرقي والغربي، والملون، فكانوا يجعلون في وسط البلاطة قلب حديد قائماً ويركبون عليه
بلاطة أخرى مثقوبة الوسط، ثم يدخل ذلك القلب الحديد في ثقب البلاطة التي تطبق عليه،
ويذاب الرصاص ويصب حول البلاطة بعد أن تؤلف الكتابة التي عليها. وجعل أبوابها من
تحت الأرض بأربعين ذراعاً في آزاج مبنية بالحجارة في الأرض، طول كل أزج مائة وخمسون
ذراعاً. قال: فأما باب الهرم الشرقي فإنه من الناحية الجنوبية على قياس مائة ذراع من
وسط حائط الهرم إلى الناحية الجنوبية، ويحفر حتى ينزل إلى باب الأزج ثم يدخل إليه
منه.
وأما باب الهرم الغربي فمن الناحية الغربية يقاس أيضاً من وسط الحائط الغربي إلى الغرب
مائة ذراع، ويحفر حتى ينزل إلى باب الأزج المبني ويدخل منه إليه.
وأما باب الهرم الملون فمن الناحية البحرية يقاس أيضاً من وسط الحائط البحري مائة
ذراع، ويحفر حتى ينزل إلى باب الأزج. وجعل طول كل واحد منها أربعمائة ذراع بالملكي،
يكون خمسمائة بذراعنا. وجعل تربيع كل واحد أربعمائة ذراع. وبناها في الاستواء إلى

أربعين ذراعاً ثم هرمها. وكان أول بنائهم لها في أوقات السعادة، فلما فرغ منها كساها
ديباجاً ملوناً من أعلاها إلى أسفلها، وعمل لها عيداً عظيماً لم يبق في المملكة أحد إلا
حضره. ثم أمر بعمل ثلاثين جرناً من حجارة الصوان ملونة فجعلت في الهرم الغربي، ونقل
إليها من الكنوز والأموال والجواهر المعدنية، والجواهر المسبوكة الملونة، والآلات الزبرجد،
والتماثيل المعمولة والطلسمات، والحديد الفاخر، والسلاح الذي لا يصدا، والزجاج الذي
ينطوي ولا ينكسر، والنواميس والمولدات والدخن وأصناف العقاقير والمؤلفات والسموم
وغير ذلك شيئاً كثيراً لا يدرك وصفه. ونقل إلى الآخر وهو الشرقي أصنام الكواكب
والقباب الفلكية، وما عمل أجداده من التماثيل والدخن التي يتقرب بها لها ومصاحفها، وما
عمل لها من التواريخ والحوادث التي مضت، والحوادث التي تحدث، والأوقات التي تحدث
فيها، ومن يلي مصر من الملوك إلى آخر الزمان، وكون الكواكب الثابتة وما يحدث بكونها
وقتاً وقتاً، وجعل فيها المطاهر التي فيها المياه المدبرة والبودقات الدهنية وما أشبه هذه
الأشياء. وجعل في الهرم الآخر أجساد الكهنة في توابيت من الصوان الأسود، وعند كل
كاهن منهم مصحف فيه عجائب صناعته وسيرته وما عمل في وقته. وكانوا سبع مراتب.
فالمرتبة الأولى القاطرون، وهم الذين يعبدون الكواكب السبعة لكل كوكب سبع سنين،
ومعنى القاطرون جامع العلوم. والمرتبة الثانية لمن يعبد ستة من الكواكب، وهم اللاحقون
بالدرجة الأولى. ثم يسمون صاحب الخمسة وما دونها كل واحد باسم، فجعل في كل
ناحية من الهرم مرتبة من هذه المراتب، فأجسادهم هناك وما عملوا من العجائب. وجعل
في الحيطان من كل جانب مما يدور أصناماً تعمل بأيديها جميع الصنائع على مراتبها
وأقدارها، وصفة كل صنعة وعلاجها وما يصلح لها، وكذلك أصحاب النواميس ومن عالج
شيئاً من الأشياء وجعل فيها أموال الكواكب التي أهديت إليها الكواكب وأموال الكهنة.
وجعل لكل هرم منها خادماً، فخازن الهرم الشرقي صنم من جزع أسود مجزع بأسود

وأبيض له عينان مفتوحتان براقتان وهو جالس على كرسي، ومعه شبيه بالحربة، إذا نظر
إليه الناظر سمع من جهته صوتاً كالرعد يكاد يفزع قلبه، فيهيم على وجهه ويختلس عقله،
ولا يكاد يفارق الهرم حتى يموت فيه. وجعل خازن الهرم الآخر من حجر الصوان المجزع،
معه شبيه بالحربة، وعلى رأسه حية تطوق بها، من قرب منه وثبت عليه من ناحيته
وتطوقت في عنقه فقتلته ثم تعود إلى مكانها. وجعل خازن الهرم الثالث صنماً صغيراً من
حجر البهتة على قاعدتيه، من نظر إليه اجتذبه إليه حتى يلتصق به فلا يفارقه حتى يموت.
فلما فرغ من ذلك حصنها بالأرواح وذبح لها الذبائح لتمنع عن نفسها من أرادها إلا من
قرب إليها وعمل لها أعمال الوصول فإنه يصل إليها. قال: وذكر القبط أنه كتب عليها اسم
الملك والوقت الذي بناها فيه، ويقول: إنا بنيناها في ست سنين فقل لمن يأتي بعدنا يهدمها
في ستمائة سنة فإن الهدم أهون من البنيان. وإنا كسوناها الديباج الملون المذهب المرقوم
بالذهب فقل لمن يأتي بعدنا يكسوها حصيراً. فنظروا فوجدوا أحداً لا يقوم بهدمها
وكسوتها لأنه لا يستطاع ذلك ولا يقدر عليه.
قال: وحكى عن هذه الأهرام عجائب يطول الشرح بذكرها؛ منها أن المأمون لما دخل إلى
مصر أحب أن يهدم أحدها ليعلم ما فيها، فقيل له: إنك لا تقدر على ذلك. فقال: لا بد
من فتح شيء منه. فعولجت الثلمة المفتوحة منه فأنفق عليها مالاً كثيراً لنار توقد وخل
يرش ومنجنيقات ترمي بها، فوجد عرض الحائط قريباً من عشرين ذراعاً. فلما انتهوا إلى
داخل الهرم وجدوا خلف الحائط عند النقب مطهرة خضراء فيها ذهب مضروب دنانير،
وزن كل دينار أوقية من أواقينا، وكان عددها ألف دينار، فعجبوا من ذلك ولم يعرفوا ما
معناه، ثم أتى المأمون بالذهب والمطهرة فجعل يتعجب من الذهب وحسنه وجودته
وحمرته، فقال: ارفعوا لي حساب ما أنفقتموه على هذه الثلمة ففعلوا، فوجده بإزاء المال
الذي أصابوه لا يزيد ولاينقص. فعجب المأمون من معرفتهم على طول المدد بأنهم

سيفتحونه من ذلك الموضع بعينه، ومعرفتهم بمقدار ما ينفق عليه وتركهم مقداره في
موضعه، فقال: كان هؤلاء القوم من العلوم بمنزلة لا ندركها نحن ولا أمثالنا. وقيل: إن
المطهرة التي وجد فيها الذهب كانت من زبرجد، فأمر المأمون بحملها إلى خزانته، وكانت
أحد ما حمل من عجائب مصر.
ومن عجائب أخبارها أن المأمون لما فتح الهرم أقام الناس سنين يقصدونه ويدخلون فيه
وينزلون الزلاقة التي فيه، فمنهم من يسلم ومنهم من يهلك.
وأن جماعة من الأحداث اهتموا، وكانوا عشرين رجلاً، على أن يدخلوا الهرم ولا يبرحوا
منه حتى يقفوا على منتهى أمره، فاخذوا معهم من الطعام والشراب ما يكفيهم لشهرين،
وأخذوا السكك والحبال والشمع والوقيد والفئوس والقفاف ودخلوا الهرم، ونزل أكثرهم في
الزلاقة الأولى والثانية، ومضوا في أرض الهرم فرأوا فيه خفافيش بقدر العقبان تضرب
وجوههم، فانتهوا إلى لصب في حائط تخرج منه ريح باردة لاتفتر، فذهبوا ليدخلوا فانطفأت
سرجهم، فجعلوها في زجاج وذهبوا ليدخلوا فكاد اللصب ينطبق عليهم فهابوه فقال
أحدهم: اربطوا وسطي بحبل وأنا أدخل، فإذا كاد اللصب ينطبق فجروني إليكم، وكان
على باب اللصب، أجرته فارغة يعلمون أن أجساد موتاهم داخل ذلك اللصب فربطوه
بالحبل، فلما تقحم اللصب انطبق عليه فجره أصحابه فلم يقدروا على نزعه وسمعوا عظامه
تتكسر، وسمعوا صيحة هائلة فسقطوا على وجوههم لا يعقلون.
فلما أفاقوا طلبوا الخروج
فأخرجهم أصحابهم بشدة، وسقط بعضهم في وقت صعودهم من الزلاقة فنزل، وخرجوا
من الهرم فجلسوا في سفحه متعجبين، فإنهم كذلك إذا أخرجت لهم الأرض صاحبهم
يتكلم بكلام كاهني فسره لهم بعض أصحاب الديارات بالصعيد: هذا جزاء من يطلب ما
ليس له؛ ثم سقط ميتاً، فحملوه وفطن بهم فاخذوا وأتى بهم إلى الوالي فحدثوه بالخبر.
وفي خبر آخر: أن قوماً دخلوا الهرم وانتهوا إلى أسفله
وطوفوه فعرض لهم مثل الطريق
فساروا فيه فوجدوا قبة تحتها كالمطهرة يقطر فيها ماء فينش ثم يغيض ولم يدروا ما هو،

ووجدوا موضعاً كالمجلس المربع حيطانه كلها بحجارة ملونة عجيبة، فقلع أحدهم منها
حجراً وجعله في كمه فانسدت أذناه من الريح، ولم تزل تصر وهو معه، ووجدوا مكاناً
كالفوارة العظيمة فيها ذهب مضروب كثير يكون الدينار منه زهاء مائة مثقال، فأخذوا منه
شيئاً فلم يستطيعوا أن يمشوا ولم يتحركوا حتى تركوه من بين أيديهم. ووجدوا في مكان
آخر كالصفة فيها شيخ من حنتم أخضر كأنه مشتمل بشمله، وبين يديه تماثيل صغار في
صور الصبيان وكأنه يعلمهم، فاخذوا منه شيئاً فلم يقدروا أن يتحركوا فردوه، ومشوا أيضاً
في ذلك الطريق فوجدوا بيتاً مسدوداً فيه دوي هائل وزمزمة فلم يتعرضوا له، ومضوا
فوجدوا كالمجلس المربع فيه صورة ديك من جواهر معمولة، قائم على أسطوانة خضراء، وله
عينان يسرج منهما المجلس، فلما قربوا منه صوت بصوت مفزع وخفق بجناحيه، فتركوه
ومضوا حتى بلغوا صنماً من حجر أبيض في صورة امرأة منكسة على رأسها ومن
جانبيها أسدان من حجارة كأنهما يريدان نهسها، فجعلوا يتعوذون ويقرءون إلى أن
جاوزوها. قال: وقيل إنهم مشوا حتى لاح لهم نور فاتبعوه فإذا بفوهة مفتوحة فخرجوا
منها فإذا هم في صحراء، وإذا على باب تلك الفوهة تمثالان من حجر أسود معهما
كالمزراقين فعجبوا من ذلك. ووجدوا أجرنه منقورة وأسطوانات مخروطة، فساروا منها
بعدا فانتهوا إلى ماء وجدوه في نقار حذاء تلك الفوهة، واخذوا نحو المشرق فساروا يوماً
حتى وصلوا الأهرام من خارج فأخبروا والي مصر بخبرهم، فوجه معهم من يدخل من تلك
الفوهة، فطافوا فلم يجدوها وأشكل عليهم أمرها. ووجد الآخذ للحجر الحجر جوهراً
نفيساً فباعه بمال.
قال: وحكى أن قوماً في زمن احمد بن طولون دخلوا الهرم فوجدوا في طاق في أحد بيوته
أستاندانة زجاجاً ثخينة فأخذوها وخرجوا، ففقدوا رجلاً منهم فدخلوا في طلبه، إذ
خرج عليهم الرجل عرياناً يضحك ويقول: لا تتعبوا في طلبي، ورجع هارباً إلى أن دخل،

فعلموا أن الجن استهوته وشاع أمرهم، فاخذوا الاستاندانة منهم ومنع الناس من الدخول
إلى الهرم، ووزنت الأستاندانة فكانت أربعة أرطال زجاجاً أبيض صافياً، فانتبه رجل من
أهل المعرفة لها وقال: لم تعمل إلا لشيء، وملأها ماء ووزنها فوجد وزنها وهي ملأى مثل
وزنها فارغة لا تزيد ولا تنقص فكانت أعجوبة.
وحكى أن قوماً دخلوا الهرم ومعهم من يريدون يعبثون به، فلما هموا بذلك خرج عليهم
غلام أسود أمرد في يده عصا فأخذ في ضربهم، فخرجوا هاربين وتركوا ما كان معهم من
طعام وشراب وبعض ثيابهم.
وحكى أن رجلاً دخل بامرأة ليفجر بها فصرعا جميعاً ولم يزالا مجنونين مشهورين حتى
ماتا.
قال: وفي بعض مصاحف القبط أن سوريد الملك لما أخبره كهنته بخبر النار المحرقة وأنها
تخرج من برج الأسد فتحرق العالم، عمل في الأهرام مسارب موجهة إلى أزاج ضيقة تجتلب
الرياح إلى داخل بصوت هائل. وعمل فيها مسارب يدخل منها ماء النيل ينتهي إلى موضع
من أرض الغرب وأرض الصعيد، وملا تلك الأسراب عجائب وطلسمات وأصناماً تنطق.
قال: وحكى بعض القبط أن سوريد لما أخبره منجموه قال: انظروا لبلدنا هذا هل تلحقه
آفة؟ فنظروا فقالوا: يلحقه طوفان ويلحقه خراب يقيم فيه عدة سنين وتغلب عليها
التنانين. قال: كيف يكون خرابها؟ قالوا: يقصدها ملك فيقتل أهلها ويغنم مالها ويهدم
مصانعها. قال: ثم ماذا؟ ثم تكون عمارتها من قبله. قال: ثم ماذا؟ قالوا: ثم يقصدها
قوم مشوهون من ناحية مصب النيل فيأتون على أكثرها. قال: ثم ماذا؟ قالوا: ثم ينقطع
نيلها ويجلو أهلها عنها؛ فأمر أن يكتب جميع ذلك على الأهرام.
قال: وذكر رجل من أهل الغرب ممن يختلف إلى ألواح ويحمل الشمار على جمل له أنه بات
في بعض الليالي قرب الهرم فما زال يسمع الضوضاء والعطعطة فهاله ذلك وتباعد عنه
بجمله، وكان يرى حول الهرم شبه النيران تأتلق، فلم يزل مرعوباً إلى أن سرقته عيناه فنام
وأصبح وهو في الموضع الذي جمع منه الشمار وشماره موضوع بحاله، فتعجب من ذلك

وشد شماره على جمله ورجع إلى الفسطاط وآلى على نفسه ألا يقرب من الهرم بعد ذلك.
قال: والقبط يذكرون أن روحانية الهرم الغربي في صورة امرأة عربانة مكشوفة الفرج
حسناء لها ذؤابتان، فإذا أرادت أن تستفذ الإنسي ضحكت إليه فاختلسته إلى نفسها
فيدنو منها فتستهويه ويزول عقله. قال: وقد رأى جماعة هذه المرأة تدور حول الهرم وقت
القائلة وعند غروب الشمس. وروحانية الهرم الشرقي غلام أمرد أصفر عريان له ذؤابة.
قال: وقد رأوه أيضاً يطوف حوله. وروحانية الهرم الملون في صورة شيخ يرى عليه برطلة
وفي يده مجمرة من مجامر الكنائس وهو يبخر كذلك في جميع الأفروثنات.
وأما روحانيات البرابي: فبربا إخميم روحانيتها غلام أسود عريان، وروحانية بربا قفط في
صورة جارية سوداء تحمل صبياً أسود صغيراً. وروحانية بربا دندرة في صورة إنسان
رأسه رأس أسد وله قرنان. وروحانية بربا بوصير في صورة شيخ أبيض عليه زي الرهبان
ومعه مصحف يحمله. وروحانية بربا سمنود في صورة شيخ آدم طوال أشيب صغير
اللحية. وروحانية بربا عدى في صورة راع عليه كساء ومعه عصا. وهذه البربا في أعمال
المرتاحية من عمل أشمون طناح بقرب تلبانة عدي.
قال: ولكل من هذه الأهرام والبرابي قرابين وبخورات تظهر كنوزها وتؤلف بين الناس
والروحانيين الذين بها.
ولنرجع إلى أخبار الملوك قال: وأقام سوريد في الملك مائة سنة وسبع سنين، وقد كان
منجموه عرفوه الوقت الذي يموت فيه واليوم والساعة، فأوصى إلى ابنه هرجيب وعرفه ما
يعمل، وأمره أن يدخل جسده الهرم، وأن يجعله في الجرن الذي أعده لنفسه وبغشيه
بكافور، ويحمل معه ما أعده من فاخر الثياب والسلاح والآلات، فامتثل جميع ما أمره به.
ولما مات ملك بعده ابنه هرجيب بن سوريد فسار بسيرة أبيه في العدل والعمارة والرأفة
بالناس، فاحبوه. وبنى الهرم الأول من أهرام دهشور وحمل إليه من المال والجوهر. وكان
غرضه جمع المال وعمل الكيمياء واستخراج المعادن ودفن ما تهيأ له من الكنوز في كل

سنة. وكانت له ابنة أفسدت مع بعض خدمه فنفاها إلى ناحية الغرب، وأمر أن تبنى لها
مدينة هناك ويقام عليها علم ويزبر عليها اسمها، وأسكن معها كل امرأة مسنة من أهل
بيته. قال: وشج رجل رجلاً فأمر بقطع أصابعه، ووجد سارقاً من العامة رقه الذي سرق
منه، وعمل منارات ومصانع وطلسمات، وملكهم نيفاً وسبعين سنة.
وملك عليهم بعده ابنه منقاوش بن هرجيب وكان جباراً أثيماً فآذى الناس وسفك الدماء
واغتصب النساء واستخرج كنوز آبائه، وبنى قصوراً بالذهب والفضة وأجرى فيها الأنهار،
وجعل حصباءها من صنوف الجواهر، وتخرق في الهبات وأغفل العمارات فأبغضه الناس،
وأباح أصحابه غصب نساء العامة، وأطاف به أهل الشر من كل ناحية، وكان يفترع الناس
قبل أزواجهن، وامتنع عليه قوم في شيء أمرهم به فأحرقهم بالنار، وسلط رجلاً من
الجبارين اسمه قرناس من ولد ورداديس بن آدم على الناس ووجهه لمحاربة الأمم الغربية فقتل
منهم أمماً.
وكان أشجع أهل زمانه ثم هلك، فاغتم عليه الملك أمر أن يدفن مع الملوك في الهرم. ويقال:
بل عمل له ناووساً وأقام عنده أعلاماً وزبر عليها اسمه وما عمله في وقته. وملك منقاوش
ثلاثاً وسبعين سنة ومات، فجعل في الهرم مع أجداده في حوض مرمر مصفح بالذهب
والجوهر، وحمل معه كثير من ذخائره وأمواله وسلاحه وعجائبه.
وملك بعد ابنه أقروش بن منقاوش، وكان عاقلاً فخالف آثار أبيه وعدل في الناس ورد
النساء اللاتي غصبهن منقاوش إلى أهلهن. وعمل في وقته فوارة قطرها مائة ذراع وطولها
خمسون ذراعاً، وركب في جميع جوانبها أطياراً تصفر بأصناف اللغات المطربة لا تفتر.
وعمل في وسط المدينة منارتين من صفر عليهما صورة رأس إنسان من صفر كلما مضت
ساعة من النهار صاح ذلك الرأس صياحاً عالياً، وكذلك الليل، فيعلم به دخول الساعات،
وجعل فيه علامة لكل ساعة تمضي تعرف بها عدتها.
وعمل مناراً آخر وجعل على رأسه قبة صفر مذهب ولطخها بلطوخات، فإذا غربت

الشمس اشتعلت تلك القبة ناراً يضيء بها أكثر المدينة لا تطفئها الأمطار ولا الرياح، فإذا
كان النهار قل ضوءها بضوء الشمس. ويقال: إنه أهدى الدرمسيل بن محويل الملك ببابل
مائدة من الزبرجد قطرها خمسة أشبار، وكان استهداه ذلك ليجعلها في بيت القربان. ويقال
إنها وجدت بعد الطوفان. ويقال أيضاً: إنه عمل على الجبل الشرقي صنماً عظيماً قائماً
على قاعدة وهو مصبوغ بلطوخ أصفر مصور بالذهب ووجهه إلى الشمس يدور معها حتى
تغرب، ثم يدور ليلاً إلى الناحية الجنوبية حتى يحاذي الشمس مع الصبح، فلم يزل إلى أن
سقط في أيام فرغان الملك فتهشم. وكان نصبه تعظيماً للشمس. ويقال: إن أقروش كان
يطلب الولد فنكح ثلاثمائة امرأة يبتغي الولد منهن فلم يكن ذلك. وقيل: إن في عصره عقمت
الأرحام لما أراد الله عز وجل من هلاك العالم بالطوفان، وعقمت أرحام البهائم ووقع الموت
فيها.
وقيل إن الأسد كثرت في وقته حتى كانت تتخلل البيوت، فاحتالوا لها بالطلسمات المانعة
والحيل المضرة لها، فكانت تغيب وقتاً وتعود، فرفعوا ذلك إلى الملك فقال: هذه علامة
مكروهة، وأمر أن تعمل أخاديد وتملا ناراً واجتروا إليها الأسد بالدخن التي تجلب
روحانيتها وألقوها على تلك النيران، فاجتلبتها تلك الدخن فتهافتت في تلك النيران
فاحترقت. وبنى في وقته مدائن في ناحية الغرب تلفت بالطوفان مع أكثر مدنهم.
قال: وارتفعت الأمطار عنهم وقل الماء في النيل فأجدبوا، وهلك الزرع بالنار والريح الحارة
وغيرها، فأضر ذلك بهم، فاحتالوا لدفع النار بطلسماتهم فكانت تذهب وتعود. وقيل: إن
الذي فعل بهم ذلك ساحر من سحرتهم كان منقاوش غضبه امرأته فكان يعمل الحيلة قللاً
قليلاً في إفساد طلسماتهم؛ لان لكل طلسم شيء تبطل به روحانيته. وبهذه العلة دخل
بختنصر الفارسي مصر وقد كانت ممتنعة من جميع الملوك. فلما أفسد ذلك الساحر
الطلسمات، سلط عليهم تلك الآفات وأفسد طلسمات التماسيح فهاجت عليهم ومنعتهم

الماء وعذبهم عذاباً كبيراً إلى أن فطنوا من قبل تلاميذه؛ وذلك أن أحدهم لامه على فعله
فانتهره ونفخ في وجهه فأظلم عليه بصره، فجاء إلى وزير الملك وعرفه القصة فأنهاها إلى
الملك، فأمر الملك بإدخاله عليه فأدخل، فسأله عن الخبر فعرفه بفعل الساحر، فأنفذ إليه
جيشاً ليأتوه به، فلما نظر الساحر إلى القوم وقد أقبلوا دخن دخنة أغشت أبصارهم
وارتفعت منها عجاجة نار أحرقت وحالت بينه وبينهم، فهالهم ذلك، فرجعوا إلى الملك
وعرفوه ما جرى فأمر بجمع السحرة، وكان من رسم السحرة أن يعاهدوا ملوكهم على أن
يكونوا معهم ولا يخالفونهم ولا ينالهم منهم مكروه ولا يبغونهم الغوائل، فمن فعل ذلك سلب
علمه، وكان للملك أن يسفك دمه ودم أهل بيته وولده، وكانوا مع الملوك على هذه الحال
يوفون بعهودهم. فلما اجتمع السحرة عند الملك أخبرهم خبر الساحر، وكان يقال له:
أختاليس، وبما عمله وقال: تحضرونه إلي وإلا أهلكتكم؛ فسألوه النظرة فأنظرهم، فاخذوا
أولادهم ونساءهم وخرجوا هاربين، فلما خرجوا عنه تكلموا بينهم وقالوا: إنكم لتعرفون
كثرة علم أختاليس وشدة سحره، وما نرى لنا به طاقة، ومنقاوش الملك الذي نقض عهده
وتعدى عليه وأخذ امرأته غصباً، فاحتالوا لخلاصكم منه؛ فأجمعوا أنهم يصدقون الملك
عن أنفسهم، ويستأذنونه في الذهاب إليه ومداراته حتى يأتوه به بعد أن يأخذوا له أماناً منه
ويجدد العهد بينه وبينه.
فمضوا إلى الملك وصدقوه عن أنفسهم، فأجابهم إلى ما سألوه من ذلك، ثم مضوا إلى
أختاليس فلطفوا به ووعظوه إلى أن أجابهم إلى ما أرادوا، فكتبوا إلى الملك بذلك، فكتب
للساحر أماناً وعهداً، فرجع وردت إليه امرأته، فأكرمها وردها إلى دار الملك، وعرفهم أنه لا
يرى في ذمته أن يلابس امرأة لابسها الملك على حال من الأحوال لما كانوا يراعونه من حقوق
الملك، فسر الناس بذلك وعجبوا من عقله وحكمته، وصلح أمر الناس، وعمل أختاليس
طلسمات وعجائب كثيرة. قال:
وملكهم أقروش أربعاً وستين سنة، وهلك وليس له ولد ولا أخ، فدفن في الهرم وجعلت

معه أمواله وذخائره وجواهره والصنائع التي عملت في وقته، واجتمع الناس على تمليك رجل
من أهل بيت الملك.
فملكوا عليهم أرمالينوس، فلما ملك أمر بجمع الناس وقال: أرى الأمم الغربية قد تطرقت
إليكم في نواحيكم، ويوشك أن تسير إليكم، وأنا مانع لبلادكم ودمائكم منهم بغزوهم
والخروج إليهم وتحويلكم إياهم، وأحتاج إلى معونة من حكمائكم بالأعمال الهائلة والتخابيل
العجيبة، فشكروه ودعوا له بالتوفيق. وقالت الحكماء: نحن نخرج مع الملك إذا خرج ونبلغ
له مجابه أو يقيم ونحن نخرج مع الجيش مكانه ونبذل أنفسنا دونه. فامتنع من ذلك وخرج في
جيش عظيم وحارب تلك الأمم ونكأ فيها أعظم نكاية، ورجع غانماً وخلف في وجوههم
جيشاً، فاجتمعت تلك الأمم فهزمت جيشه ورجع أصحابه مغلوبين فعظم ذلك عليه.
وكانت أصابته علة من تغير الهواء فأنفذ ابن عم له يقال له فرعان بن مسور، وكان أحد
الجبابرة الذين لا يطاقون، وهو أول فرعون تسمى بهذا الاسم ومن سمى بعده سمي تشبيهاً
به؛ فأنفذه الملك أرمالينوس في جيش عظيم فأجلى تلك الأمم ونفاها إلى أطراف البحر،
وعاد ومعه خلق كثير من الأسرى والرءوس، فأمر الملك بنصب تلك الرءوس حول مدينته
وقتل جميع الأسرى. وكان منهم كاهن فأمر الملك أن يوشر بمنشار، وهو أول من فعل ذلك،
فأعلم الملك فرعان وألبسه خلعاً منظومة بالجوهر، وأمر بأن يطاف به ويذكر فضله، وأمر له
ببعض قصوره.
واتفق أن امرأة من نساء الملك عشقته وراسلته فامتنع فرغان من ذلك وفاءً للملك، ولأن
التحظي إلى نساء الملوك كان من الأمور العظيمة عندهم. فلما طال ذلك عليها أحضرت
ساحره ولاطفتها وذكرت لها حالها ووجدها بفرعان، فضمنت لها بلوغ مآربها منه
وسحرته لها، فاهتاج إليها وندم على ردها وجعل يدس إليها إلى أن اجتمعت معه، وتمكن
حب كل واحد منهما من صاحبه، إلى أن ذاكرته أمر الملك وأنها لا تأمن أن يتصل به
خبرهما وقالت: أنا أعمل الحيلة في قتله وتكون أنت الملك وأكون لك ونأمن على أنفسنا.

فمن شدة ما عنده من حبها حسن لها ذلك، فسمت الملك في شرابه فمات لوقته وحمل إلى
الهرم.
وملك بعده فرعان بن مسور وجلس على سرير الملك فلم ينازعه أحد، وفرح الناس
بمكانته لشجاعته. وهو الذي كان الطوفان في وقته. قال: ولما ملك علا في الأرض وتجبر
واغتصب الناس أموالهم وأنفسهم ونساءهم، وعمل ما لم يعمله ملك قبله؛ وأسرف في القتل
وهابته الملوك وأقروا له. وهو الذي كتب إلى الدرمسيل ملك بابل يشير عليه بقتل نوح عليه
السلام.
وذلك أن الدرمسيل بن محويل كتب إلى الأقاليم يسألهم: هلى يعرفون آلهة غير الأصنام؟
ويذكر قصة نوح وأنه يريد تغيير ذلك، وأن له إلهاً غيرها، فكل أنكر ذلك. ولما اخذ نوح في
بناء السفينة كتب فرعان إلى الدرمسيل يشير عليه بإحراقها، وكان عند أهل مصر خبر
الطوفان ولكنهم لم يقدروا كثرته وطول مقامه على الأرض، فاتخذوا السراديب تحت الأرض
وصفحوها بالزجاج وحبسوا فيها الرياح بتدبيرهم، واتخذ فرعان منها عدة له ولأهل بيته.
وكان فرعان قد أقصى الكهان وباعدهم، وكانوا مع الملوك على خلاف ذلك. ولنصل هذا
الخبر بخبر الكهان وما كانوا عليه.
كهان مصر
وحالهم مع الملوك
قال: وكهان مصر أعظم الكهان علماً، وأجلهم في الكهانة حديثاً. وكان حكماء اليونان
يصفونهم بذلك، ويشهدون لهم به ويقولون: أخبرنا حكماء مصر بذلك فاستنفدناه منهم.
وكانوا ينحون في كهانتهم نحو الكواكب، ويزعمون أنها هي التي تفيض عليهم العلوم وتخبرهم
بالغيوب، وهي التي علمتهم أسرار الطبائع، ودلتهم على العلوم المكنونة؛ فعملوا الطلسمات
المشهورة، والنواميس الجليلة، وولدوا الولادات الناطقة، والصور المتحركة؛ وبنوا العالي من
البنيان، وزبروا علومهم في الصلب من الصوان، وانفردوا بعمل البرابي، ومنعوا بها الأعداء
من بلدهم، وعجائبهم ظاهرة. وكان الذي يتعبد منهم الكواكب السبعة المدبرة لكل كوكب

سبع سنين، فإذا بلغ هذه الرتبة سمى قاطراً، وكان يجلس مع الملك في المرتبة ويصدر الملك
عن رأيه، وإذا رآه قام له.
وكان من رسمهم في كل يوم أن يدخل القاطر إلى الملك فيجلس إلى جانبه، ويدخل الكهنة
ومعهم أصحاب الصناعات فيقفوا حذاء القاطر، وكل واحد من الكهنة منفرد بكوكب
يخدمه لا يتعداه إلى سواه، ويسمى عبد كوكب كذا، كما كانت العرب تسمى عبد شمس،
فيقول القاطر للكاهن: أين صاحبك؟ فيقول: في البرج الفلاني في الدرجة الفلانية في دقيقة
كذا، ويسأل الآخر حتى إذا عرف مستقر الكواكب قال للملك: ينبغي لك أن تعمل اليوم
كذا، وتضع بنيان كذا، وتوجه جيشاً إلى ناحية كذا، وتجامع في وقت كذا، وتأكل في وقت
كذا، وجميع ما يراه صلاحاً له في أموره كلها؛ والكاتب قائم يكتب جميع ما يقوله القاطر، ثم
يلتفت إلى أهل الصناعات فيقول: انقش أنت صورة كذا على حجر كذا، واغرس أنت كذا،
واصنع أنت كذا، حتى يمر على أهل الصناعات؛ فيخرجون إلى دار الحكمة ويضعون
أيديهم في تلك الأعمال، ويستعمل الملك جميع ما يأمره القاطر. ويشرح ذلك اليوم في
الصحيفة وتطوى وتودع في خزانة الملك، فعلى ذلك كانت تجري أمورهم.
وكان الملك إذا نابه أمر جمعهم واصطف الناس لهم في شارع المدينة، ثم يدخلون ركباناً
يقدم بعضهم بعضاً، ويضرب بين أيديهم بطبل الاجتماع، فيدخل كا واحد منهم بأعجوبة:
فمنهم من يعلو وجهه نور كنور الشمس فلا يقدر أحد على النظر إليه، ومنهم من يكون
عليه بدنة جوهر أخضر أو أحمر من ذهب منسوج. ومنهم من يدخل راكباً أسداً
متوشحاً بحيات عظام. ومنهم من تكون عليه قبة من نور أو من جوهر في صنوف من
العجائب كثيرة. ويصنع كل واحد منهم ما يدله عليه كوكبه الذي يعبده؛ فإذا دخلوا على
الملك قالوا: أرادنا الملك لأمر كذا وقد علمنا، أو أضمر الملك كذا والصواب فيه كذا.
فكانوا مع ملوكهم على هذه الحال حتى ملك فرعان فأبعدهم.
وكان فليمون رئيس الكهان،

فرأى فيما يرى النائم كأن مدينة أمسوس قد انقلبت بأهلها، وكأن الأصنام تهوي على
رؤسها، وكأن ناساً ينزلون من السماء معهم مقامع فيضربون الناس بها، وكأنه قد تعلق
بأحدهم وقال له: مالكم تفعلون بالخلق هذا! أما ترحمونهم؟ فقال: لأنهم كفروا بإلههم.
قال: أفما لهم من خلاص؟ قالوا: نعم، من أراد الخلاص فليلحق بصاحب السفينة، فانتبه
وهو يخاطبه، فبقي مرعوباً مما رآه. وكان له امرأة وولدان ذكر وأنثى ومعه تلاميذه، فأجمع
على أن يلحق بنوح عليه السلام، ثم نام أيضاً فرأى كأنه في روضة خضراء، وكأن فيها
طيوراً بيضاء تفوح منها رائحة طيبة، وكأنه تعجب من حسنها إذ تكلم بعض الطيور فقال
لأصحابه: سيروا بنا ننج المؤمنين. قال له فليمون ومن هؤلاء المؤمنون؟ قال: أصحاب
السفينة. فانتبه مرعوباً وأخبر أهله وتلاميذه بذلك ثم نام.
فلما كان الغد أتى الملك فقال: إن رأى الملك أن ينفذني إلى درمسيل لأعرف حال هذا
الرجل الذي عمل السفينة فأشاهده أناظره على ما جاء به من هذا الدين الذي أظهره
وأتبين حقيقة أمره فليفعل؛ فإني أرجو أن يكون ذلك سبباً لهلاكه ودفعه عما يدعيه،
فاعجب الملك ذلك منه وأذن له في الخروج، فسار بأهله وولده وتلاميذه حتى انتهوا إلى
أرض بابل وقصد نوحاً وسأله أن يشرح له دينه ففعل ذلك، فآمن به وجميع من معه، فقال
نوح عليه السلام: من أراد الله عز وجل به الخير لم يصدفه أحد عنه. فلم يزل فليمون مع
نوح عليه السلام يخدمه هو وولده وتلاميذه إلى أن ركبوا السفينة.
وأما فرعان الملك فإنه أقام منهمكاً في ضلاله وظلمه، مقبلاً على لهوه، واستخف بالكهنة
والهياكل، وضاقت الدنيا بأهلها، وكثر الهرج والظلم، وفسدت الزروع، وأجدبت النواحي،
وظلم الناس بعضهم بعضاً، ولم يكن أحد ينكر ذلك عليهم، وسدت الهياكل
والبرابي، وطينت أبوابها، وجاءهم الطوفان وأقبل المطر عليهم، وكان فرعان سكران فلم
يقم إلا بخرير الماء، فوثب مبادراً يريد الهرب إلى الهرم فتخلخلت الأرض به، وطلب الأبواب

فخانته رجلاه وسقط على وجهه وجعل يخور كما يخور الثور، إلى أن أهلكهه الله تعالى
بالطوفان، ومن دخل الأسراب منهم هلك بغمها، ولحق الماء من الأرض والأهرام إلى آخر
التربيع، وهو ظاهر عليها إلى الآن، وانقرضت ملوك الدنيا أجمع بالطوفان ولم يسلم إلا
أصحاب السفينة كما تقدم. فعدة من سمى لنا من ملوك مصر قبل الطوفان على هذا
السياق تسعة عشر ملكاً، ثم ملكها بعد الطوفان من نذكره.
ملوكها بعد الطوفان
قال إبراهيم بن القاسم الكاتب: قال إبراهيم بن وصيف شاه: أجمع أهل الأثر أن أول من
ملك مصر بعد الطوفان مصريم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام، وذلك بدعوة سبقت
له من جده. وكان السبب في ذلك أن فليمون الكاهن سأل نوحاً عليه السلام أن يخلطه
بأهله وولده وقال: يا نبي الله، إني قصدتك رغبة في الإيمان بالله سبحانه وتعالى وتصديقك
يا نبي الله، وتركت وطني وبلدي فاجعل لي رفعة وقدراً أذكر بهما ن بعدي، فزوج نوح عليه
السلام بيصر بن حام بنت فليمون الكاهن فولدت له ولداً سماه فليمون مصريم باسم بلده
فلما أراد نوح قسمة الأرض بين بنيه قال له فليمون: ابعث معي يا نبي الله ابني حتى أمضى
به إلى بلدي وأظهره على كنوزه وأوقفه على علومه ورموزه، فأنفذه معه في جماعة من أهل
بيته، وكان غلاماً مراهقاً، فلما قرب من مصر بنى له عريشاً من أغصان الشجر وستره
بحشيش الأرض، ثم بنى بعد ذلك في الموضع مدينة وسماها درسان، أي باب الجنة،
فزرعوا وغرسوا الأشجار والأجنة من درسان إلى البحر.
فصارت هناك زروع واجنة
وعمارة وكان الذين مع مصريم جبابرة، فقطعوا الصخور وبنوا المعالم والمصانع وأقاموا في
أرغد عيش.
ونكح مصريم امرأة من بنات الكهنة فولدت له ولداً سماه قبطيم، ونكح قبطيم بعد سبعين
سنة من عمره امرأة ولدت له أربعة نفر، وهم: قفطريم، وأشمون، وأتريب، وصا، وكثروا
وعمروا الأرض، ولورك لهم فيها. وقيل: كان عدد من وصل مع مصريم ثلاثين نفراً فبنوا

مدينة سماها مافه، ومعنى مافه ثلاثون بلغتهم، وهي منف، وكشف أصحاب فليمون عن
كنوز مصر وعلموهم خط البرابي، وأثاروا لهم المعادن من الذهب والزبرجد والفيروزج
والأسباد شم وغير ذلك، ووصفوا لهم عمل الصنعة، فجعل الملك أمرها إلى رجل من أهل
بيته يقال له مقيطام، فكان يعمل الكيمياء في الجبل الشرقي فسمى به المقكم، وعلموهم
أيضاً عمل الطلسمات.
وكانت تخرج من البحر دواب تفسد زرعهم وأجنتهم وبنيانهم فعملوا لها الطلسمات
فغابت ولم تعد. وبنوا على عبر البحر مدناً منها: رقودة مكان الإسكندرية، وجعلوا في
وسطها قبة على أساطين من نحاس مذهب والقبة مذهبة، ونصبوا فوقها مرآة من أخلاط
شتى قطرها خمسة أشبار؛ وكان ارتفاع القبة مائة ذراع؛ فكانوا إذا قصدهم قاصد من
الأمم التي حولهم، فإن كان مما يهمهم أو من البحر عملوا لتلك المرآة عملاً فألقت شعاعها
على ذلك الشيء فأحرقته؛ فلم تزل على حالها إلى أن غلب عليها البحر فنسفها. وقيل:
إن الإسكندر إنما عمل المنارة تشبهاً بها، وقد ذكرنا خبر المنارة فيما تقدم من كتابنا هذا.
وقال: لما حضرت مصريم الوفاة عهد إلى ابنه قبطيم مصر بن مصريم، فقسم قبطيم بين
بنيه الأربعة: فجعل لابنه قفطريم من قفط إلى أسوان إلى النوبة، ولأشمون من أشمون إلى
منف، ولأتريب الحوف كله إلى الشجرتين إلى أيلة من الحجاز، ولصاً من ناحية صا البحيرة
إلى قرب برقة، وقال لأخيه فارق: لك من برقة إلى المغرب، فهو صاحب إفريقية. وولده
الأفارق. وأمر كل واحد من بنيه أن يبني لنفسه مدينة في موضعه. وأمر مصريم عند موته
أن يحفروا له في الأرض سرباً وأن يفرشوه بالمرمر الأبيض ويجعلوا فيه جسده، ويدفنوا معه
جميع ما في خزائنه من الذهب والجوهر، ويزبروا عليه أسماء الله تعالى المانعة من أخذه.
فحفروا له سرباً طوله مائة وخمسون ذراعاً، وجعلوا في وسطه مجلساً مصفحاً بصفائح
الذهب، وجعلوا له أربعة أبواب، على كل باب منها تمثال من ذهب عليه تاج مرصع

بالجوهر، جالس علي كرسي من ذهب قوائمه من زبرجد، وزبروا في صدر كل تمثال آيات
عظاماً مانعة، وجعلوا جسده في جرن من المرمر مصفح بالذهب وزبروا على مجلسه: مات
مصريم بن بيصر بن حام بعد سبعمائة عام مضت من أيام الطوفان، ومات ولم يعبد
الأصنام، إذ لا هرم ولا سقام، ولاحزن ولا اهتمام، وحصنه بأسماء الله العظام، لا يصل إليه
إلا ملك ولدته سبعة ملوك يدين بدين الملك الديان، ويؤمن بالبعث والفرقان، الداعي إلى
الإيمان في آخر الزمان. وجعلوا معه في ذلك المجلس ألف قطعة من الزبرجد المخروط،
وألف تمثال من الجوهر النفيس، وألف برنية مملوءة من الدر الفاخر والصنعة الإلهية،
والعقاقير البرية، والطلسمات العجيبة، وسبائك الذهب مكدسة بعضها على بعض،
وسقفوا ذلك بالصخور العظام وهالوا فوقها الرمال بين جبلين. واستقل قبطيم بالملك بعد أبيه.
ويقال: إن قبط مصر منسوبون إليه. وهو أول من عمل العجائب وأثار المعادن، وشق
الأنهار. ويقال: إنه لحق البلبلة وخرج منهم بهذه اللغة القبطية، وعمل ما لم يعمله أبوه من
نصب الأعلام والمنارات والعجائب والطلسمات. وملكهم قبطيم أربعمائة وثمانين سنة
ومات؛ فاغتم عليه بنوه وأهله ودفن في الشرق في سرب تحت الجبل الكبير الداخل،
وصفحوه بالمرمر الملون وجعلت فيه منافذ للرياح؛ فهي تنخرق فيه بدوي عظيم هائل،
وجعل فيه من الكبريت الأحمر وأكر من نحاس مطلية بأدوية مشعلة لا تطفأ، ولطخوا
جسده بالمر والكافور والموميا، وجعلوه في جرن من ذهب في ثياب منسوجة بالمرجان
والدر، وكشفوا عن وجهه وجعلوه تحت قبة ملونة، في وسطها درة معلقة تضيء كالسراج،
والقبة على أعمدة بين كل عمودين تمثال في يده أعجوبة، وجعلوا حول الجرن توابيت مملوءة
جوهراً وذهباً وتماثيل وصنعة وغير ذلك، وحول ذلك مصاحف القبط والحكمة، وسدوا
عليه بالصخور والرصاص وزبروا عليه كما زبروا على ناووس أبيه.
وملك بعده ابنه قفطريم بن قبطيم، وكان أكبر ولد أبيه؛ وكان جباراً عظيم الخلق، وهو

الذي وضع أساسات الأهرام الدهشورية وغيرها ليعمل منها كما عمل الأولون، وهو الذي
بنى دندرة ومدينة الأصنام. ودندرة: بلد من بلاد إقليم قوص، وهي في البر الغربي مشهورة
هناك. قال: وأثار من المعادن ما لم يثره غيره، وكان يجر من الذهب مثل حجر الرحى،
ومن الزبرجد كالأسطوانة، ومن الأسباد شم في صحراء الغرب كالقلة. وعمل من العجائب
شيئاً كثيراً. وبنى مناراً عالياً على جبل قفط يرى من البحر الشرقي، ووجد هناك معدن
زئبق فعمل منه بركة كبيرة، فيقال إنها هناك إلى الآن، وأما المنار فسقط، وعمل عجائب
كثيرة. ويقال: إنه بنى المدائن الداخلة وعمل فيها عجائب كثيرة، منها: الماء الملفوف القائم
كالعمود لا ينحل ولا يذوب، والبركة التي تسمى فلسطين، أي صيادة الطير، إذا مر عليها
الطير سقط فيها ولم يمكنه أن يبرح حتى يؤخذ، وعمل أيضاً عموداً من نحاس عليه صورة
طائر إذا قربت الأسد والحيات والأشياء المضرة من تلك المدينة صفر صفيراً عالياً فترجع
تلك الدواب هاربة. وكان على أربعة أبواب هذه المدينة أربعة أصنام من نحاس لا يقرب
منها غريب إلا ألقى عليه النوم والسبات، فينام عندها ولا يستيقظ حتى يأتيه أهل المدينة،
وينفخون في وجهه فيقوم، وإن لم يفعلوا ذلك لم يزل نائماً عند الأصنام حتى يهلك. وعمل
مناراً لطيفاً من زجاج ملون على قاعدة من نحاس، وعلى رأس المنارة صورة صنم من
أخلاط كثيرة، وفي يده كالقوس كنه يرمي عنها، فإن عاينه غريب وقف في موضعه لم يبرح
حتى ينجيه أهل المدينة. وكان ذلك الصنم يتوجه إلى مهب الرياح الأربع من نفسه.
قال وقيل: إن هذا الصنم على حالته إلى الآن، وإن الناس تحاموا تلك المدينة على كثرة ما
فيها من الكنوز والعجائب الظاهرة خوفاً من ذلك الصنم أن تقع عين الإنسان عليه فلا يزال
قائماً حتى يتلف. قال: وكان بعض الملوك عمل على قلعه فما أمكنه، وهلك لذلك خلق
كثير. ويقال: إنه عمل في بعض المدن الداخلة مرآة من أخلاط ترى جميع ما يسأل الإنسان
عنه وهي غربي البلد. قال: وعمل خلف الواحات الداخلة مدناً عمل فيها عجائب كثيرة

ووكل بها الروحانيين الذين يمنعون منها؛ فما يستطيع أحد أن يدنو منها ولا يدخلها أو يعمل
قرابين أولئك الروحانيين فيصل إليها حينئذ ويأخذ من كنوزها ما أحب من غير مشقة ولا
ضرر. قال: وأقام قفطريم ملكاً أربعمائة سنة. وأكثر العجائب عملت في وقته ووقت ابنه
البودسير. وكان الصعيد أكثر عجائب من أسفل الأرض. قال: وفي آخر أيام قفطريم
هلكت عاد بالريح العقيم.
ولما حضرت قفطريم الوفاة عمل له ناووس من الجبل الغربي قرب مدينة الكهنة، كان عمله
لنفسه قبل موته في سرب في الجبل كهيئة الدار الواسعة وجعل دورها خزائن منقورة، وجعل
في سقوفها في مسارب للرياح، وبنى ذلك بالمرمر، وجعل في وسط الدار مجلساً على ثمانية
أركان مصفحاً بالزجاج الملون المسبوك، وجعل في سقفه جواهر وحجارة تسرج، وجعل في
كل ركن من أركان المجلس تمثالاً من الذهب بيده كالبوق، وجعل تحت القبة دكة مصفحة
بالذهب، وجعل لها حوافي زبرجد، وفرش فوق الدكة فرش الحرير، وجعل عليها جسده
بعد أن لطخ بالأدوية الممسكة، ومن جوانبه آلات الكافور المخروطة، وسدلت عليه ثياب
منسوجة بالذهب، ووجهه مكشوف وعلى رأسه تاج ملكه، وعن جوانب الدكة أربع
تماثيل مجوفات من زجاج مسبوك مثل صور النساء وألوانهن، بأيديهن كالمراوح من ذهب،
وعلى صدره من فوق الثياب سيف صاعقي قائمه من الزبرجد، وجعل في تلك الخزائن:
من الزبرجد وسبائك الذهب والتيجان والجواهر وبراني الحكم وأصناف العقاقير
والطلسمات، ومن المصاحف الحاوية لجميع العلوم، مال لا يحصى قدره كثرة؛ وجعل على
باب المجلس ديك من ذهب على قاعدة من زجاج أخضر منشور الجناحين مزبور عليه
آيات عظام مانعة، وجعل على مدخل كل أزج صورتين من نحاس مشوهتين بأيديهما سيفان
كالبرق، ووراءهما بلاطة تحتها لوالب فمن وطئها ضرباه بأسيافهما فقتلاه، وفي سقف كل
أزج كرة عليها لطوخ مدبر يسرج، وسد باب الأزج بالأساطين ورصوا على سقفه البلاط

العظام وردموا فوقها الرمال، وزبروا على باب الأزج: هذا الداخل إلى جسد الملك العظيم
المهيب الكريم الشديد قفطريم ذي الأيد والفخر، والغلبة والقهر، أفل وبقي نجمعه ذكره
وعلمه، فلا يصل أحد إليه، ولا يقدر بحيلة عليه، وذلك بعد سبعمائة وسبعين، ودورات
مضت من السنين.
قال: ولما مات قفطريم ملك بعده ابنه البودسير بن قفطريم، فتجبر وتكبر وعمل بالسحر
واحتجب عن العيون، وقد كان أعمامه أشمون وأتريب وصاملوكا على أحيازهم إلا أنه
قهرهم بجبروته وقوته، فكان الذكر له كما كان لأبيه. ويقال: إنه أرسل هرمس الكاهن
المصري إلى جبل القمر الذي يخرج النيل من تحته حتى عمل هناك هيكل التماثيل النحاس،
وعدل إلى البطيحة التي ينصب إليها ماء النيل.
ويقال: إنه الذي عدل جانبي النيل وقد كان يفيض في مواضع وينقطع في مواضع، وأمره
البودسير أن يسير مغرباً فينظر إلى ما هناك، فوقع على أرض واسعة متخرقة بالمياه
والعيون كثيرة العشب، فبنى منائر ومنتزهات، وحول إليها جماعة من أهل بيته فعمروا تلك
النواحي وبنوا فيها حتى صارت أرض الغرب كلها عمارة، وأقامت كذلك مدة كثيرة
وخالطهم البربر فتناكحوا؛ ثم إنهم تحاسدوا وبغى بعضهم على بعض، وكانت بينهم حروب
فخرب البلد وباد أهله إلا بقية منازل تسمى الواحات هي موجودة إلى وقتنا هذا.
ويقال: إنه عمل عجائب كثيرة في وقته، منها: قبة لها أربعة أركان وفي كل ركن منها كوة
يخرج منها كالدخان الملتف في ألوان شتى يستدلون بكل لون على شيء؛ فما خرج منه
أخضر دل على العمارة وحسن النبات والزرع وصلاحه، وإن خرج الدخان أبيض دل على
الجدب وقلة الزكاء، وإن خرج أحمر دل على الدماء والحروب وقصد الأعداء، وإن كان
أسود دل على كثرة الأمطار والمياه فساد بعض الأرض بذلك، وإن كان أصفر دل على
النيران وآفات تحدث في الفلك، وما كان منها مختلطاً دل على مظالم الناس وتعدى بعضهم
على بعض وإهمال ملوكهم لهم، وأشياء من هذا الضرب. وكانت هذه القبة على منار أقام

زمناً طويلاً ثم هدمه بعض الملوك البربر؛ لأنه أراد غزو قوم بتلك الناحية فعلموا بحاله
فانتقلوا عن ذلك الموضع إلى قرب النيل فلما جاء ولم يجدهم هدمه.
ومما عمل له في الصحراء التي تقرب منه - وكانت الوحش قد كثرت وأفسدت عليهم
زرعهم وكذلك خنازير الماء - شجرة من نحاس عليها أمثال تلك الوحوش ملجمة أفواهها
بخيوط من نحاس، فما يجوز بها من الوحش لا يستطيع الحراك ولا البراح من عندها حتى
يؤخذ قبضاً ويقتل؛ فأشبع الناس في لحوم تلك الوحوش وانتفعوا بجلودها زماناً طويلاً إلى أن
انتزعها بعض ملوك الغرب سراً من أهل مصر وقدر أن ينصبها في بلدهم فتعمل له مثل
ذلك، فلما عملها بطلت؛ لأنهم كانوا يعلمون ما يعملون بطالع يأخذونه له، فلا يزال عمله
مستقيماً إلى أن تغير عن مكانه فبطل عمله.
وما عمل في وقته أن غراباً نقر عين صبي من أولاد الكهنة فقلعها، فعمل شجرة من نحاس
عليها تمثال غراب من نحاس في منقاره حربة بادية الطرفين، منشور الجناحين، وكتب على
ظهره كتاباً؛ فكانت الغربان تقع على تلك الشجرة ولا تبرح حتى تؤخذ فتقتل، ففي أكثر
الغربان وزالت عن تلك الناحية إلى ناحية الشام، ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن أصاب
بعض ملوكهم علة ووصف له فيها لحم غراب يطبخه ويأكله ويشرب من مرقه فلم يوجد،
فوجه إلى آخر العمل الذي بمصر من ناحية الشام من يأتيه بغراب فأبطأ عليه، فأمر بنزع
الشجرة فرجع الغربان وأخذ منها ما عولج به الملك قبل أن يرجع رسوله.
ومما عمل في وقته - وكانت الرمال قد كثرت عليهم من ناحية الغرب حتى ظهرت على
زروعهم - فعمل لذلك صنماً من صوان أسود على قاعدة منه وعلى كتفه شبه القفة فيها
كالمسحاة، ونقش على جبهته وصدره وذراعيه وساقيه حروفاً، وأقامه الكاهن بطالع
أخذه له ووجهه إلى الغرب، فانكشفت تلك الرمال ورجعت إلى ورائها. فتلك الأكداس
العالية في صحراء الغرب منها. ولم تزل الرمال تندفع عنهم إلى أن زال ذلك الصنم عن

موضعه. قال: وأقام البودسير مدة واحتجب عن الناس، وكان يتجلى لهم في صورة وجه
عظيم، وربما خاطبهم ولا يرونه، ثم غبر مدة وهم في طاعته إلى أن رآه ابنه عديم وهو
يأمره بالجلوس على سرير الملك.
فجلس عديم بن البودسير على الملك وكان جباراً لا يطاق، عظيم الخلق، فأمر بقطع
الصخور ليعمل هرماً كما عمل الأولون. قال: وكان في وقته الملكان اللذان هبطا من
السماء، وكانا في بئر يقال لها أفناوه، وكانا يعلمان أهل مصر السحر. ويقال: إن عديم
استكثر من علمهما ثم نقلا إلى بابل.
قال: وأهل مصر من القبط يقولون إنهما شيطانان يقال لهما: مهلة ومهالة، وليس هما
الملكين. والملكان ببابل في بئر هناك يغشاها السحرة إلى يوم الساعة.
ولنصل هذا الفصل بخبر هاروت وماروت وإن لم يكن منه؛ وإنما الشيء بالشيء يذكر.
والله أعلم.
هاروت وماروت
قال الله تعالى: واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن
الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وماأنزل على الملكين ببابل وهاروت وماروت. الآية.
قال أبو إسحاق الثعلبي في تفسيره: وكانت قصتهما - على ما ذكره ابن عباس رضي الله
عنه والمفسرون - أن الملائكة رأوا ما يصعد إلى السماء من أعمال بني آدم الخبيثة وذنوبهم
الكثيرة؛ وذلك في زمن إدريس عليه السلام فيعيرونهم بذلك، ودعت عليهم الملائكة وقالوا:
هؤلاء الذين جعلتهم في الأرض واخترتهم فهم يعصونك؛ فقال الله عز وجل لهم: لو أنزلتكم
إلى الأرض وركبت فيكم ما ركبت فيهم لركبتم ما ارتكبوا؛ فقالوا: سبحانك ما كان ينبغي
أن نعصيك؛ قال الله تعالى: فاختاروا ملكين من خياركم أهبطهما إلى الأرض، فاختاروا
هاروت وماروت، وكانا من اصلح الملائكة واعبدهم. قال: وقال الكلبي: قال الله لهم:
اختاروا ثلاثة فاختاروا عزا وهو هاروت، وعزايا وهو ماروت، وغير اسمها لما قارفا
الذنب، وعزابيل؛ فركب الله فيهم الشهوة التي ركبها في بني آدم وأهبطهم إلى الأرض،

وأمرهم أن يحكموا بين الناس بالحق، ونهاهم عن الشرك والقتل بغير حق، ونهاهم عن الزنا
وشرب الخمر. فأما عزابيل فإنه لما وقعت الشهوة في قلبه استقال ربه وسأله أن يرفعه إلى
السماء فأقاله ورفعه؛ فسجد أربعين سنة ثم رفع رأسه. ولم يزل بعد ذلك مطأطئاً رأسه
حياءً من الله تعالى. وأما الآخران فإنهما بقيا على ذلك، وكانا يقضيان بين الناس يومهما
فإذا أمسيا ذكرا اسم الله الأعظم وصعدا إلى السماء. قال قتادة: فما مر عليهما أشهر
حتى افتتنا.
قال الثعلبي: قالوا جميعاً: وذلك أنه اختصم إليهما ذات يوم الزهرة، وكانت من أجمل
النساء. قال علي رضي الله عنه: كانت من أهل فارس، وكانت ملكة في بلدها، فلما
رأياها أخذت بقلوبهما، فراوداها عن نفسها فأبت وانصرفت، ثم عادت في اليوم الثاني
ففعلا مثل ذلك، فأبت وقالت: لا! إلا تعبدا ما أعبد، وتصليا لهذا الصنم، وتقتلا النفس،
وتشربا الخمر، فقالا: لا سبيل إلى هذه الأشياء؛ فإن الله عز وجل نهانا عنها، فانصرفت؛
ثم عادت في اليوم الثالث ومعها قدح من خمر وفي أنفسهما من الميل إليها ما فيها، فراوداها
عن نفسها فعرضت عليهما ما قالت بالأمس فقالا: الصلاة لغير الله عظيم، وقتل النفس
عظيم، وأهون الثلاثة شرب الخمر؛ فشربا فانتشيا ووقعا بالمرأة وزنيا، فلما فرغا رآهما
إنسان فقتلاه. قال الربيع بن أنس: وسجدا للصنم فمسخ اله عز وجل الزهرة كوكباً.
وقال علي بن أبي طالب والسدي والكلبي رضي اله عنهم: إنها قالت لهما: لن تدركاني
حتى تخبراني بالذي تصعدان به إلى السماء. فقالا: باسم الله الأكبر. قالت: فما أنتما
بمدركاني حتى تعلمانيه. فقال أحدهما لصاحبه: علمها! قال: إني أخاف الله. قال الآخر:
فأين رحمة الله! فعلماها ذلك. فتكلمت به وصعدت إلى السماء. فمسخها الله تعالى
كوكباً. فعلى قول هؤلاء هي الزهرة بعينها، وقيدوها فقالوا: هي هذه الكوكبة الحمراء
واسمها بالفارسية ناهيد وبالنبطية بيدخت. قال: ويدل على صحة هذا القول مارواه

الثعلبي بسنده إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم
إذا رأى سهيلاً قال: لعن الله سهيلاً إنه كان عشاراً باليمن ولعن الله الزهرة فإنها فتنت
ملكين.
وقال مجاهد: كنت مع ابن عمر رضي الله عنهما ذات ليلة فقال لي: ارمق الكوكبة فإذا
طلعت فأيقظني، فلما طلعت أيقظته، فجعل ينظر إليها ويسبها سباً شديداً، فقلت: رحمك
الله تسب نجماً سامعاً مطيعاً لله؟ ماله يسب! فقال: إن هذه كانت بغياً فلقي الملكان
منها ما لقيا. وقال نافع: كان ابن عمر رضي الله عنهما إذا رأى الزهرة قال: لا مرحباً بها
ولا أهلاً. وروى أبو عثمان النهدي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن المرأة التي فتن بها
الملكان مسخت، فهي هذه الكوكبة الحمراء يعني الزهرة.
قال الثعلبي: وأنكر الآخرون هذا القول وقالوا: إن الزهرة من الكواكب السبعة السيارة التي
جعلها الله قواماً للعالم، وإنما كانت هذه التي فتنت هاروت وماروت امرأة، كانت تسمى
زهرة من جمالها، فلما بغت جعلها الله تعالى شهاباً، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه
وسلم الزهرة ذكر هذه المرأة لموافقة الاسمين فلعنها، وكذلك سهيل العشار. والله أعلم.
قالوا: فلما أمسى هاروت وماروت بعد ما قارفا الذنب هما بالصعود إلى السماء فلم
تطاوعهما أجنحتهما، فعلما ما حل بهما فقصدا إدريس عليه السلام فأخبراه بأمرهما
وسأله أن يشفع لهما إلى الله عز وجل ففعل ذلك، فخيرهما الله تعالى بين عذاب الدنيا
وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا إذ علما أنه ينقطع، فهما ببابل يعذبان. واختلف
العلماء في كيفية عذابهما فقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: هما معلقان بشعورهما
إلى قيام الساعة. وقال قتادة: كبلا من أقدامهما إلى أصول أفخاذهما. وقال مجاهد: إن
جبا ملئ ناراً فجعلا فيه. وقال حصيف: معلقان منكسان في السلاسل. وقال عمير بن
سعد: منكوسان يضربان بسياط الحديد.
وروى أن رجلاً أراد تعلم السحر فقصد هاروت وماروت فوجدهما معلقين بأرجلهما،

مزرقة أعينهما، مسودة جلودهما، ليس بين ألسنتهما وبين الماء إلا قدر أربع أصابع، وهما
يعذبان بالعطش، فلما رأى ذلك هاله مكانهما فقال: لا إله إلا الله، وقد نهى عن ذكر الله
هناك. فلما سمعا كلامه قالا: من أنت؟ قال: رجل من الناس.
قالا: من أي أمة أنت؟
قال: من أمة محمد صلى الله عليه وسلم. قالا: وقد بعث؟ قال نعم. قالا: الحمد لله!
وقد أظهرا الاستبشار. فقال الرجل: ومم استبشاركما؟ قالا: إنه نبي الساعة، وقد دنا
انقضاء عذابنا.
قال: وأما كيفية تعلم السحر، فقد روى فيه خبر جامع، وهو مارواه أبو إسحاق بسنده
عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: قدمت على امرأة من أهل
دومة الجندل جاءت تبتغي رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موته تسأله عن شيء
دخلت فيه من أمر السحر ولم تعمل به؛ قالت عائشة رضي الله عنها لعروة: يابن أختي،
فرأيتها تبكي حين لم تجد رسول الله صلى اله عليه وسلم، فكانت تبكي حتى إني
لأرحمها! تقول: إني أخاف أن أكون قد هلكت؛ قالت: كان لي زوج فغاب عني فدخلت
على عجوز فشكوت إليها ذلك فقالت: إن فعلت ماآمرك به فلعله يأتيك، فلما كان الليل
جاءتني بكبشن أسودين فركبت أحدهما وركبت الآخر، فلم يكن كثير حتى وقفنا ببابل،
فإذا برجلين معلقين بأرجلهما فقالا: ماجاء بك؟ فقلت: أتعلم السحر، قالا: إنما نحن فتنة
فلا تكفري وارجعي، فأبيت فقلت: لا، فقالا: اذهبي إلى ذلك التنور فبولي فيه، فذهبت
ففزعت فلم أفعل، فرجعت إليهما فقالا: فعلت؟ قلت نعم، قالا: هل رأيت شيئاً؟ قلت: لم
أر شيئاً، فقالا: لم تفعلي، إرجعي إلى بلادك فلا تكفري، قالت: فأبيت، فقالا: إذهبي إلى
ذلك التنور فبولي فيه، فذهبت فاقشعر جلدي فرجعت إليهما فقلت: قد فعلت، فقالا: هل
رأيت شيئاً؟ فقلت: لم أر شيئاً، فقالا: كذبت لم تفعلي، إرجعي إلى بلادك فلا تكفري
فإنك على رأس أمرك؛ قالت: فأبيت، فقالا: إذهبي إلى ذلك التنور فبولي فيه، فذهبت إليه

فبلت فرأيت فارساً مقنعاً بحديد خرج مني حتى ذهب في السماء وغاب عني حتى ماأراه،
فجئتهما فقلت: قد فعلت؛ قالا: فما رأيت؟ قلت: رأيت فارساً مقنعاً بالحديد خرج مني
حتى ذهب في السماء حتى ماأراه، قالا: صدقت، ذلك إيمانك خرج منك؛ إذهبي. فقلت
للمرأة: والله ما أعلم شيئاً، وماقالا لي شيئاً. فقالت: لن تريدي شيئاً إلا كان؛ خذي هذا
القمح فابذري، فبذرت، قلت: أطلعي، فأطلعت، فقلت: أحقلي، فأحقلت، ثم قلت:
أفركي، فأفركت، ثم قلت: أطحني، فأطحنت، ثم قلت: أخبزي، فأخبزت. فلما رأيت أني
لا أريد شيئاً إلا كان، سقط في يدي وندمت. والله يا أم المؤمنين ما فعلت شيئاً قط، ولا
أفعله أبداً.
قال: وقال بعضهم: إنهما لا يتعمدان تعليم السحر ولكنهما يصفانه ويذكران بطلانه، ويأمران
باجتنابه، فيتعلم الشقي منهما في خلال صفتهما ويترك موعظتهما ونصيحتهما، فلا يكون
على هذا التأويل كفرا وإنما يكون العمل به كفراً. وقد أنكر بعضهم أن يكونا ملكين قال:
وإنما كانا ملكين. وقرئ في الشواذ: وما أنزل على الملكين بكسر اللام. وقيل: كانا علجين
ببابل. حكاه القاضي عياض في كتاب الشفا. والله تعالى أعلم.
ولنرجع إلى أخبار عديم بن البودسير الملك. قال: وعديم أول من صلب؛ وذلك أن امرأة
زنت برجل من أهل الصناعات، وكان لها زوج من أصحابه، فأمر بصلبهما على منارتين،
وجعل ظهر كل منهما إلى ظهر صاحبه، وزبر على المنارتين اسمهما ومافعلاه وتاريخ الوقت
الذي عمل ذلك بهما فيه، فانتهى الناس عن الزنا. قال: وبنى أربع مدائن وأودعها صنوفاً
كثيرة من عجائب الأعمال والطلسمات وغير ذلك، وكنز فيها كنوزاً كثيرة. وعمل في الشرق
مناراً وأقام على رأسه صنماً موجهاً إلى الشرق، مادا يدبه يمنع دواب البحر والرمال أن
تتجاوز حده، وزبر في صدره تاريخ الوقت الذي نصبه فيه؛ ويقال: إن هذا المنار قائم إلى
وقتنا هذا؛ ولولاه لغلب الماء المالح من البحر الشرقي على أرض مصر. وعمل قنطرة على
النيل في أول بلاد النوبة ونصب عليها أربعة أصنام موجهة إلى أربع جهات الدنيا في يدي كل

صنم جرس يضرب به إذا أتاهم آت من تلك الناحية؛ فلم تزل بحالها إلى أ، هدمها فرعون
موسى. وهو الذي عمل البربا على باب النوبة، ويقال إنه عمل في إحدى المدائن الأربع التي
ذكرناها حوضاً من صوان أسود مملوءاً ماء لا ينقص على طول الدهر ولا يتغير؛ وكان أهل
تلك الناحية يشربون منه ولا ينقص ماؤه؛ وإنما عمل لبعدهم عن النيل وقربهم من البحر
المالح. وقد ذكر بعض كهنة القبط أن ذلك لقربهم من البحر المالح. لأن الشمس فيما ذكروا
ترفع بحرها بخاراً فيحصل من ذلك البخار حر بالهندسة، وقيل بالسحر. وملكهم عديم
مائة سنة وأربعين سنة، ومات وهو ابن سبعمائة سنة وثلاثين سنة. وقيل: إنه دفن في
إحدى المدائن ذات العجائب في أزج من رخام ملون بزرقة، مبطن برخام أصفر، وطلي
جسده بما يمسكه، وجعل كثير من ذخائره، وذلك وسط المدينة، فهي محروسة بما يمنع
منها من الروحانيين.
قال: وذكر بعض القبط أن عديماً هذا عمل لنفسه في صحراء قفط على وجه الأرض قبة
عظيمة من زجاج اخضر براق، معقودة على ثمانية آزاج من صنفها، على رأسها أكرة من
ذهب، عليها طائر من ذهب، متوشح بجوهر، منشور الجناحين، يمنع من الدخول إليها،
وقطرها مائة ذراع في مثلها، وجعل جسده في وسطها على سرير من ذهب مشبك وهو
مكشوف الوجه، وعليه ثياب منسوجة بذهب مغروزة بجوهر منظوم؛ والآزاج مفتحة،
طول كل أزج ثمانية أذرع، وارتفاع القبة أربعون ذراعاً تلقي الشعاع على ما حولها من
الأرض، وجعل حوله في القبة مائة وسبعون مصحفاً من مصاحف الحكمة، وسبع موائد
عليها أوانيها، منها: مائدة من أدرك رماني أحمر وآنيتها منها. ومائدة من ذهب فيلموني
يخطف البصر، وهو من الذي تعمل منه تيجان الحكماء، وآنيتها منها. ومائدة من حجر
الشمس المضيء بآنيتها. ومائدة من الزبرجد المخروط الذي يخالطه شعاع أصفر بآنيتها،
قال: وهذا الزبرجد إذا نظرت إليه الأفاعي سالت عيونها.
ومائدة من كبريت أحمر مدبر
بآنيتها.

ومائدة من ملح مدبر براق يكاد نوره يخطف الأبصار بآنيتها.
ومائدة من زئبق معقود
وقوائمها وحافاتها من زئبق أصفر معقود مضيء، وعليها آنية من زئبق أحمر معقود.
وجعل في القبة جواهر كثيرة ملونة وبراني صنعة مدبرة، وجعل حوله سبعة أسياف
صاعقية وكاهنية وأتراس من حديد أبيض مدبر، وجعل معه تماثيل أفراس من ذهب،
عليها سروج من ذهب وسبعة توابيت من الدنانير التي ضربها وصور عليها صورته، وجعل
معه من أصناف العقاقير والسمومات والأدوية في براني الحنتم، ومن أصناف الأحجار
شيء كثير.
قال: وقد ذكر من رأي تلك القبة وأقاموا عليها أياماً فما قدروا على الوصول إليها، وأنهم
قصدوها وكانوا منها على مقدار ثمانية أذرع دارت القبة عن أيمانهم وشمائلهم وقد عاينوا
مافيها. ومن أعجب ما ذكروا أنهم كانوا يحاذون آزاجها أزجاً أزجاً فلا يرون غير الصورة
التي يرونها من الأزج الآخر على معنى واحد. وذكروا أنهم رأوا وجهه في قدر ذراع
ونصف بالذراع الكبير، ولحيته كبيرة مكشوفة، وقدروا طول بدنه عشرة أذرع وزيادة،
وأنهم لما تهيأ أن يصلوا إليها فنى ماؤهم وخافوا على أنفسهم فرجعوا ليمتاروا ما يكفيهم
من الزاد ففعلوا، ثم رجعوا فأقاموا أياماً يطوفون تلك الصحراء، ثم أخبروا أنهم رأوا بها
عجائب كثيرة وصنوفاً من الوحش لم يروا مثلها.
قال: وفي كتبهم أنهم لا يصلون إليها إلا بأن يذبح لها ديك أفرق ويبخر بريشه من بعد، ثم
يسأل من المريخ الوصول حتى يصل، وتكون الكواكب النيرة على مثل ما كانت عليه وقت
نصبها من اجتماعها في البروج: يكون زحل والمشتري والمريخ في برج واحد، والشمس
والقمر في برج واحد، والزهرة وعطارد في برج واحد، ويتكلم عليها بصلاة الكهنة سبع
مرات، فإذا وصل إليها لطخ حائطها بدم الديك الذي قربه لها ويأخذ ماشاء من المال
والتماثيل ولا يكثر المقام فيها ولا يقيم غير ساعة واحدة.
قال: وذكر هؤلاء الذين رأوها أنهم لم يكونوا من تلك الناحية وإنما خرجوا يطلبون غيرها؛

فإنهم سألوا أهل قفط عنها فلم يجدوا من يعرفها ولا رآها غير رجل شيخ منهم، فإنه ذكر
أن ابناً له خرج له خرج في بعض الأمور ومعه جمل له فرآها ولم يصل إليها، وبحث عن
أمرها فعرف أن قوماً من الشرق جاءوا في طلبها وانهم أقاموا يطوفون بقفط وخرجوا إليها
فما رجع أحد منهم ولا عرف لهم خبر.
قال: وكان عديم قد أوصى إلى ابنه شداد عند موته أن ينصب في كل حيز من أحياز
عمومته مناراً ويزبر عليه اسمه، فانحدر إلى الأشمونين فعمل مناراً وزبر عليه اسمه وعمل
بها ملاعب، وعمل في صحرائها مناراً وأقام عليه صنماً ذا رأسين باسم كوكبين كانا مقترنين
في الوقت. وخرج إلى أتريب وبنى فيها قبة عظيمة مرتفعة على عمد وأساطين بعضها فوق
بعض، وجعل على رأسها صنماً صغيراً من ذهب، وعمل هيكلاً للكواكب. وكان أبوه
البودسير أول من أقام لكواكب فأخذ ذلك عنه. ومضى إلى حيز صا فعمل فيه مناراً على
رأسه مرآة من أخلاط توري الأقاليم، ورجع إلى أبيه فعهد له بالملك.
فملك شداث بن عديم وهو الذي بنى الأهرام الدهشورية من الحجارة التي قطعت في زمان
أبيه. قال: من أنكر أن يكون العادية دخلوا مصر إنما غلطوا باسم شداث بن عديم فقالوا
شداد بن عاد لأنه أكثر ما يجري على ألسنتهم، وقلة ما يجري على ألسنتهم شداث بن
عديم؛ وإلا فما قدر أحد من الملوك يدخل مصر ولاقوى على أهلها غير بخت نصر.
وشداث الذي عمل مصاحف النارنجيات؛ وعمل هيكل أرمنت وأقام فيه أصناماً بأسماء
الكوالكب من ذهب وفضة وحديد أبيض ونحاس مذهب ورصاص مصفى وزئبق معقود.
وهذه الأجساد المعدنية في طباع الكواكب وفي قسمتها. فلما فرغ منه زينه بأحسن زينة
ونقشه بأحسن النقوش من الجواهر الملونة والزجاج المعمول الملون وكساه الوشي والديباج ولم
يترك شيئاً من التحف إلا عمله، وكذلك عمل في المدن الداخلة من أنصنا هيكلاً، والقبة
التي أقامها بأتريب وهيكلاً شرقي الإسكندرية، وأقام لزحل صنماً من صوان أسود على

عبر النيل من الجانب الغربي، وبنى شداث من الجانب الشرقي مدائن وجعل فيها صورة
صنم قائم له إحليل إذا أتاه المعقود والمسحور ومن لا ينتشر فمسه بكلتا يديه أزال عنه
ذلك وانتشر وقوي على الباه، وجعل في إحداها بقرة لها ضرعان كبيران إذا مسحتهما
المرأة التي انعقد لبنها در وصلح أمرها.
وفي أيامه بنيت قوص العالية، بناها لابن له كان سخط على أمه فحولها إليها وأسكن
معها قوماً من أهل الحكمة وأهل الصناعات، وقيل: إن شطب بنيت في أيامه، وعمل
الصورتين الملتصقتين لكثرة النسل. وكانت الحبش والسودان عاثوا في بلده فأخرج لهم ابنه
منقاوش في جيش عظيم فقتل منهم وسبى واستعبد الذين سباهم وصار ذلك سنة لهم،
واقطع معدن الذهب من أرضهم وأقام ذلك السبي يعملون ويحملون الذهب إليه، وهو أول
من أحب الصيد واتخذ الجوارح، وولد الكلاب السلوقية من الذئاب والكلاب الأهلية،
وعمل البيطرة وما تعالج به الدواب، وعمل من العجائب والطلسمات لكل فن ما لا يحصى
كثرة، وجمع التماسيح، بطلسم عمله لها، إلى بركة بناحية أسيوط فكانت تنصب إليها من
النيل انصباباً فتقتلها، وتستعمل جلودها في السفن وغيرها، وتستعمل لحومها في الأدوية
والعقاقير المؤلفة. قال: وبعض القبط يحكي أنه عمل بمصر اثنتي عشرة ألف أعجوبة
وطلسما ولم يعمل في بلد كما عمل فيها ولا تهيأ لأهله ما تهيا لهم من ذلك.
قال: وأقام شداث في الملك تسعين سنة وخرج يطرد فأكب فرسه في وهدة فقتله. وفي
بعض كتبهم: أنه أخذ بعض خدمه، وقد خالفه في أمر من الأمور، فأمر بطرحه من أعلى
الجبل إلى أسفل فطرح فتقطع جسده، وندم على فعله ذلك فرأى في منامه أنه سيصيبه مثل
ذلك فكان يتوقاه، وآلى على نفسه ألا يعلو جبالً، أوصى إن أصابه شيء أن يجعل ناووسه
في الموضع الذي يلحقه فيه ما يلحقه، ويزبر عليه: ليس ينبغي لذي القدرة أن يخرج عن
الواجب ويفعل ما لا يجوز له فعله، وهذا ناووس شداث بن عديم بن قفطريم الملك، عمل ما
لا يحل لع فكوفئ عليه بمثله.

قال: ولما هلك عمل له سرب في سفح الجبل فيه قبة على مجلس قد صفح بالفضة وجعل
فيه على سرير ملكه، وجعل معه من الأموال والجواهر والتماثيل وأصناف الحكم
والمصاحف شيء كثير. وكان له أربعمائة وأربعون سنة.
وملك بعده ابنه منقاوش بن شداث؛ فملك بحزم وحنكة وأظهر مصاحف الحكم وأمر
بالنظر فيها، وأن ينسخ منها لهم بخط العامة ليفهموها، ورد الكهنة إلى مراتبهم. وهو أول
من عمل له الحمام من ملوك مصر. وكان كثير النكاح؛ تزوج عدة نساء من بنات عمه
وبنات الكهنة، وجعل لكل امرأة منهن مكاناً بجميع ما يصلحه من البنيان العجيب والصور
المتقنة والغروس الحسنة والآلات العجيبة، وأسكنهن فيها. وقد قال بعض أهل الأثر: إنه
الذي بنى منف لبناته وكن ثلاثين بنتاً ونقلهن إليها، وعمل مدناً غيرها ومصانع، وعمل
هيكلاً لصور الكواكب وأصنامها على ثمانية فراسخ من منف، وعمل بتلك الناحية
طلسمات كثيرة وعجائب أغرب فيها بفضل حكمة أبيه وجده، وعمل في السنة اثني عشر
عيداً لكل شهر عيد يعمل فيه من الأعمال ما كان موافقاً لبرج ذلك الشهر؛ وكان يطعم
الناس في تلك الأعياد ويوسع عليهم، ففرح الناس به ورأوا معه مالم يروه مع غيره، وفتح
عليه من المعادن ما لم يفتح على أحد، وألزم أصحاب الكيمياء العمل فكانوا لا يفترون ليلاً
ولا نهاراً؛ فاجتمع عنده أموال عظيمة وجوهر كثير وزجاج نفيس مسبوك وغير ذلك،
فاحب كنزه فدعا أخاً له فقال له: قد ترى كثرة هذا الذهب والجوهر، وما عمل من هذه
التماثيل الكثيرة، ولست آمن أن يتسامع بنا الملوك فيغزونا من أجله، فأمعن في أرض الغرب
ثم انظر مكاناً حريزاً خفي الأثر ثم أحرزه فيه ثم استره بعلامات واكتب صفة المكان
وطريقه وعلامته. قال: ويقول أهل الأثر: إنه حمل معه اثنتي عشرة ألف عجلة، منها من
الجوهر ثلاثمائة عجلة، وسائرها من الذهب الإبريز الصفائح والمضروب، ومن آلات الملوك
وطرائفهم وسلاحهم وأوانيهم؛ فسار في الجنوب يوماً ثم أخذ مغرباً اليوم الثاني وبعض

الثالث، فانتهى إلى جبل أسود منيف ليس له مصعد بين جبال مستديرة حوله، فعمل تحت
ذلك الجبل أسراباً ومغاور ودفن فيها ما كان معه وردمها وزبر عليها ورجع؛ فمكث أربع
سنين يبعث كل سنة عجلاً عظيمة تدفن في نواح شتى.
وهو الذي عمل في انديمس المدينة بيتاً تدور به تماثيل لجميع العلل، وكتب على رأس كل
تمثال ما يصلح له من العلاج، فانتفع الناس بها زماناً إلى أن أفسدها بعض الملوك ضنا
بالحكمة. وعمل في هذه المدينة صورة امرأة مبتسمة لا يراها مهموم إلا زال همه ونسيه؛
وكان الناس يأتونها ويطوفون حولها ثم عبدوها نم بعد. وعمل تمثالاً روحانياً من صفر
مذهب بجناحين لا يمر به زان وال زانية إلا كشف عورته بيده، وكان الناس يمتحنون به
فامتنعوا من الزنا فرقاً منه، واستمر كذلك إلى زمن كلكمن الملك؛ وذلك أن بعض نسائه،
وكانت حظية عنده، عشقت رجلاً من خدم الملك وخافت أن ينتهي إليه خبرها فيمتحنها
بذلك الصنم فيقتلها، فاحتالت لذلك فخلا بها الملك في بعض الليالي، وهما يشربان،
فأخذت في ذكر الزواني وجعلت تسبهن وتذمهن، فذكر الملك ذلك الصنم وما فيه من
المنافع للناس، وما يستحق من عمله من الثناء والذكر الجميل؛ فقالت المرأة: إنه كذلك وقد
صدق الملك، غير أن منقاوش لم يصب الرأي في أمره؛ قال الملك: وكيف قلت ذلك؟ قالت:
لأنه أتعب نفسه وحكماءه فيما جعله لصلاح العامة دون نفسه، وهذا أكبر العجز؛ وإنما
كان حكم هذا التمثال أن ينصب في دار الملك حيث تكون نساؤه وجواريه، فإن افترقت
إحداهن ذنباً علم بها فيكون رادعاً لهن متى عرض بقلوبهن شيء من الشهوة؛ لان
شهواتهن أغلب وأكثر من شهوات الرجال؛ ولو حدث - وأعوذ بسعد الله الأعلى - في
دار الملك شيء من هذا فأحب امتحانه فضح نفسه وشاع في الخاص والعام أمره، وإن
عاقب بغير أمر يتحققه كان متعدياً آثماً، وإن لم يمتحنه صبر على المكروه. قال الملك:
صدقت، فكيف الوجه في هذا الأمر؟ قالت: يأمر الملك بنزع هذا الصنم من مكانه ونقله

إلى داره ففعل فبطل عمله، وامتحن فلم يصنع شيئاً، فعملت المرأة ما كانت همت به
وانهمكت فيه.
قال: ويقال: إن منقاوش بنى هيكلاً للسحرة على جبل القصير وقدم عليه رجلاً منهم له
مسيس، فكانوا لا يطلقون الرياح للمراكب المقلعة إلا بضريبة يأخذونها منهم للملك. وكان
الملك إذا ركب عملوا بين يديه التخابيل العجيبة، فيجتمع الناس إليهم ويعجبون من
أعمالهم، وأمر أن يبنى لهم هيكل للعبادة يكون لهم خصوصاً، وجعل فيه قبة فيها صورة
الشمس والكواكب، وجعل حولها أصناماً وعجائب، وكان الملك يركب إليه ويقيم سبعة
أيام، وجعل فيه عمودين زبر عليهما تاريخ الوقت الذي عمل فيه، وهما بعين شمس، ونقل
منقاوش إلى عين شمس كنوزاً وجواهر وطلسمات وعققير وعجائب ودفنها بها
وبنواحيها.
قال: وكان منقاوش قسم خراج البلاد أرباعاً: فربع منه لملك خاصة يعمل منه ما يريد،
وربع لأرزاق خدمه، وربع ينفق في مصالح الأرض وما يحتاج إليه من حفر ترعها وعمل
جسورها وتقوية أهلها على العمارة، وربع يدفن لحادثة تحدث وحاجة تنزل. وكان خراج
البلد في ذلك الوقت مائة ألف ألف وثلاثة آلاف دينار.
وهو مقسوم على مائة وثلاث كور بعدة الآلاف. وأقام ملكاً إحدى وسبعين سنة، ومات
نم طاعون أصابه، وقيل: من سم جعل له في طعامه، وعمل ه ناووس في صحراء المغرب،
وقيل: في غربي قوص؛ ودفن معه من مصاحف الحكمة والصنعة المعمولة وتماثيل الذهب
والجوهر. ومن الذهب المضروب شيء كثير، ودفن معه روحاني الشمس من ذهب يلمع،
وله جناحان من زبرجد، وصنم على صورة امرأته التي كانت أحظى نسائه عنده وكان
يحبها، فأمر أن تعمل صورتها في هياكلهم جميعاً، فعمل له تمثالها من ذهب بذؤابتين من
ذهب أسود، وألبست حلة من جواهر منظومة وجعلت جالسة على كرسي، فكانت
تجعل بين يديه في موضع تجلس فيه يتسلى بذلك عنها، فدفنت معه عند رجليه.

وملك بعده ابنه مناوش بن منقاوش؛ ملك بوصية من أبيه، فطلب الحكمة على عادة أبيه
واستخرج كتبها وأكرم أهلها، وبذل فيهم الجوائز وطلب الإغراب في عمل العجائب، وكان
كل واحد من ملوكهم يجهد جهده في أن تعمل له غريبة من الأعمال لم تعمل لمن كان قبله
وتثبت في كتبهم وتزبر على الحجارة في تواريخهم. قال: ومناوش هذا أول من عبد البقر من
أهل مصر، وكان السبب في ذلك أنه اعتبل على يئس منه فيها، وأنه رأى في منامه صورة
روحاني عظيم يخاطبه ويقول له: إنك لا يخرجك من علتك إلا عبادة البقر لأن الطالع كان
وقت حلولها بك في صورة ثور بقرتين؛ ففعل ذلك، وأمر بأخذ ثور أبلق حسن الصورة،
وعمل له مجلساً في قصره وسقفه بقبة مذهبة، فكان يبخره ويطيب موضعه، ووكل به سادنا
يقوم به ويكنس تحته، وكان يتعبد له سراً من أهل مملكته، فبرأ من علته وعاد إلى أحسن
أحواله.
ويقال: إنه أول من عمل العجل وضببها بالذهب، وعمل فيها قباباً من الخشب المذهبة
وفرشت بأحسن الفرش، وكان يركب عليها مع من أحب. وقيل: إنه عمل له ذلك في علته
لأنه كان لايقدر على الركوب؛ وكانت البقر تجره فإذا مر بالمكان النزه أقام فيه، وإن مر
بالمكان الخراب أمر بعمارته. وقيل: إنه نظر إلى نظر ثور أبلق من البقر الذي عجلته فأعجبه
حسن بشرته فأمر بترفيهه وسوقه بين يديه إلى كل موضع يسلكه إعجباً به، وجعل عليه
جلا من الديباج المنسوج بالذهب، فلما كان في بعض الأيام - وقد خلا في موضع منفرد عن
أتباعه والثور قائم بين يديه - إذ خاطبه الثور وقال: لو رفهني الملك عن السير معه وجعلني
في الهيكل وعبدني وأمر أهل مملكته بعبادتي كفتيه ما يريده، وعاونته على أمره، وقويته في
ملكه، وأزلت عنه جميع علله؛ فارتاع لذلك وأمر بالثور أن يغسل ويطيب وينظف ويدخل
الهيكل، أمر بعبادته. وعبد ذلك الثور مدة وصارت فيه آية أنه لا يبول ولا يروث ولا يأكل
إلا أطراف ورق القصب الأخضر في كل شهر مرتين، فافتتن الناس به وصار ذلك أصلاً
لعبادة البقر.

قال: وابتنى مناوش مواضع وكنز فيها كنوزاً وأقام أعلاماً.
وبنى في صحراء الغرب مدينة
يقال لها ديماس وأقام فيها مناراً ودفن حولها كنوزاً. قال:
ويقال: إن هذه المدينة قائمة، وإن
قوماً جازوا بها من نواحي الغرب وقد أضلوا الطريق فسمعوا
بها عزيف الجن ورأوا أضواء
نيرانهم. قال: وفي بعض كتبهم أن ذلك الثور، بعد مدة من
عبادتهم له، أمرهم أن يعملوا
صورته من ذهب أجوف، ويؤخذ من رأسه هو شعرات، ومن ذنبه
ومن نحاته قرونه
وأظلافه، ويجعل في التمثال، وعرفهم أنه يلحق بعلمه وأمرهم
أن يجعلوا جسده في جرن من
حجر أحمر ويدفن في الهيكل وينصب تمثاله عليه، ويكون ذلك
وزحل في شرفه والشمس
مسعودة تنظر إليه من تثليث والقمر في الزيادة، وينقش على
التمثال علامات الكواكب
السبعة ففعلوا ذلك، وعملت الصورة من ذهب ملمع على شبه
الثور، وجعل له قرنان من
ذهب وكللا بأصناف الجواهر، وجعلوا عينيه جزعتين سواداً في
بياض، ودفن جسد الثور
في الجرن الأحمر.
قال: وجعل في المدينة شجرة تطلع كل لون من الفاكهة،
ومناراً في وسطها طوله ثمانون
ذراعاً، وعلى رأسه قبة تلون في كل يوم لوناً حتى تمضي سبعة
أيام ثم تعود إلى اللون الأول
فيكسو المدينة من تلك الألوان، وجعل حول المنار ماء شقه إليه
من النيل، وجعل في ذلك
الماء سمكاً من ذلك اللون، وجعل حول المدينة طلسمات
رؤوسها رءوس قردة وأبدانها
أبدان الناس، كل واحد منها لدفع مضرة أو اجتلاب منفعة، وعمل
على أبواب المدينة،
وهي أربعة أبواب، على كل باب صنماً، ودفن تحت كل صنم كنزاً
من الكنوز؛ وباب كل
واحد منها على قياس مائة ذراع منه إلى الجهة التي وجهه
منصرف إليها، وكتب على كل
واحد منها قربانه وبخوره والوصول إليه، وأسكنها السحرة
فكانت تعرف بمدينة السحرة،
ومنها كانت أصناف السحرة تخرج.
قال: وأقام مناوش في الملك سبعاً وثلاثين سنة وهلك، وعمل
له ناووس تحت الجبل الغربي،
وجعل وصيته إلى ابنه من بعده هرميس بن منقاوش، فملك
إحدى عشرة سنة لم يبن بنياناً

ولا نصب مناراً ولا عمل في أيامه أعجوبة حتى إنه لم يكن يذكر في عداد ملوكهم. فهذا ما
أورده في أخبار قفطريم بن قبطيم وبنيه على توال واتساق فلنذكر أخبار أشمون.
أشمون وبنيه
هو أشمون بن قبطيم بن مصريم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام؛ وهو أخو قفطريم
أبي الملوك الذين قدمنا ذكرهم. كان ملكه من أشمونين إلى منف، ومن الرق إلى البحر
المالح، ومن الغرب إلى حدود برقة، وهو آخر حد مصر، ومن الصعيد إلى حد أخميم.
وكان ينزل مدينة الأشمونين وله بنيت وباسمه سميت، وكان طولها اثني عشر ميلاً في مثلها.
قال إبراهيم: وأشمون أول من اتخذ الملاعب بابصنا والبهنسا وغيرها، وبنى الصور وغرس
الغروس، وبنى مدينة تعرف بقمنطر ذات العجائب، وهي بالقرب من مدينة السحرة التي
تقدم ذكرها في أخبار منقاوش. قال: وفي وسط هذه المدينة قبة تمطر شتاءً وصيفاً مطراً
خفيفاً وتحت القبة مطهرة فيها ماء أخضر يتداوى به من كل داء فيبرئه، وفي شرقها سرب
لطيف له أربعة أبواب، لكل باب منها عضادة صورة وجه يخاطب كل واحد منها صاحبه
بما يحدث في قومه، ومن دخل تلك البربا على غير طهارة نفخوا عليه فأصابته علة فظيعة
لا تفارقه إلى أن يموت. وكانوا يقولون إن في وسطه مهبط النور وهو في صورة العمود، من
اعتنقه لم يحتجب عن نظره شيء من الروحانيات، ويسمع كلامهم ويرى ما يعملون، وعلى
كل باب من أبواب هذه المدينة صورة راهب في يده مصحف فيه علوم الكهنة، فمن أحب
ذلك العلم أتى تلك الصورة فمسحها بيديه وأمرهما على صدره فيثبت ذلك العلم في
صدره. ويقال: إن هاتين المدينتين قمنطر ومدينة السحرة بنيتا على اسم هرمس وهو
عطارد، وأنهما بحالهما.
قال: وحكي عن رجل أنه أتى عبد العزيز بن مروان، وهو على مصر، فعرفه أنه تاه في
صحراء الشرق وأنه وقع على مدينة خراب، وأنه وجد فيها شجرة تحمل من كل فاكهة،
وأنه أكل منها وتزود؛ فقال له رجل من القبط: هذه إحدى مدينتي هرمس وفيها كنوز

كثيرة؛ فوجه عبد العزيز معه جماعة وحمل معهم زاداً وماء، فأقاموا يطوفون شهراً في تلك
الصحارى فلم يقفوا لها على اثر. ويقال: إن أشمون عمل في وقته على باب الأشمونين إوزة
من نحاس، فكان الغريب إذا دخل المدينة صاحت الإوزة وخفقت بجناحيها فيعلم به، فإن
أحبوا منعوه، وإن أحبوا تركوه.
قال: وفي أيامه كثرت الحيات فكانوا يصيدونها ويعملون من لحومها الأدوية والدرياقات، ثم
ساقوها بسحرهم إلى وادي الحيات في جابل لوبية ومراقية فسجنوها هناك. قال: وهو
أول من عمل النوروز بمصر ورتبه سبعة أيام يدمنون فيها الأكل والشرب واللهو. وفي زمانه
ينبت البهنسا وأقام بها أسطوانات، وجعل فيها مجلساً من زجاج أصفر وعليه قبة مذهبة،
فكانت الشمس إذا طلعت على القبة ألقت شعاعها على المدينة. وعمل فيها عجائب
كثيرة يطول الشرح بذكرها.
قال: ويقال إن أشمون كان أول إخوته ملكاً، وكان أعدل بني أبيه وأرغبهم في صنعة تبقى
ويبقى ذكرها. وهو الذي بنى المجالس المصفحة بالزجاج الملون في وسط النيل. وتزعم
القبط أنه بنى سرباً تحت الأرض من الأشمونين إلى أنصنا تحت النيل. وقيل: إنه عمله
لبناته لأنهن كن يمضين إلى هيكل الشمس. وكان هذا السرب مبلط الأرض والحيطان
والسقف بالزجاج الثخين الملون. وقيل: إنه كان أطول أخوته ملكاً. وقال أهل الأثر: إنه
ملك ثمانمائة سنة، وغن قوم عاد انتزعوا منه الملك بعد ستمائة سنة من ملكه وأقاموا
تسعين سنة واستوبئوا البلد فانتقلوا إلى الدثين من طريق الحجاز إلى وادي القرى فعمروها
واتخذوا بها المنازل والمصانع فسلط الله عليهم الذر فأهلكهم، وعاد ملك مصر إلى أشمون
بعد خروجهم من البلد. ويقال: إنه ملكهم ثمانمائة سنة وثلاثين سنة، ودفن في أحد الأهرام
الصغار القبلية. وقيل: بل عمل له ناووس في غربي الأشمونين ودفن معه فيه من الأموال
والعجائب شيء كثير، وأصنام الكواكب السبعة التي كانت في هيكل المرآة التي ترى منها
الأقاليم، ودفن معه ألف سرج من ذهب وفضة، وعشرة آلاف خابية صغار من ذهب

وفضة وزجاج، ألف عقار مدبرة لفنون الأعمال وزبر عليه اسمه ومدة ملكه والوقت الذي
مات فيه.
واستخلف ابنه مناقيوس بن أشمون. وكان جلداً محنكاً فاستأنف العمارة وبنى القرى
ونصب الأعلام، وجمع الحكمة ومصاحف الملوك والحكماء وعمل العجائب، وبنى لنفسه
مدينة وانفرد بها، وعمل عليها حصناً ونصب عليه أربعة أعلام، في كل ركن من أركانه
علم، وبين تلك الأعلام ثمانون صنماً من نحاس وأخلاط، في أيديها آلات السلاح وزبر على
صدرها آياتها.
قال: وكان بمنف رجل من أولاد الكهنة من أعلم الناس بالسحر وأبصرهم بأخذ التماسيح
والسباع، وكان يعلم الغلمان السحر فإذا حدقوا علم غيرها، فأمر الملك أن تبنى به مدينة
ويحول إليها فبنيت، وهي إخميم. وملك مناقيوس نيفاً وأربعين سنة ومات فدفن في الهرم
المحاذي لإطفيح، ونقل معه شيء كثير من المال والجواهر والآنية والتماثيل، وزبر عليه اسمه
والوقت الذي مات فيه.
وملك بعده ابنه - ولم يسمه إبراهيم - فكان أحزم من أبيه، فعظم في عيون أهل مصر،
وهو أول من عمل الميدان أمر أصحابه برياضة أنفسهم فيه. وأول من عمل البيمارستانات
لعلاج المرضى والزمني وأودعها العقاقير ورتب فيها الأطباء وأجرى عليهم ما يسعهم، وأقام
الأمناء على ذلك، وصنع لنفسه عيداً وسماه عيد الملك؛ فكان الناس يجتمعون إليه في يوم
من لاسنة، فيأكلون ويشربون سبعة أيام وهو يشرف عليهم في مجلس قد بني له على عمد
قد طوقت ذهباً وألبست فاخر الذهب المنسوج، وعليه قبة مصفحة من داخلها
وخارجها بالذهب والزجاج المسبوك، وكان يعطي كل قوم قسطهم من النظر ثم يكثرون
الدعاء له وينصرفون إلى مواضعهم.
وفي أيامه بنيت سنترية في صحراء الواحات، عملها من حجارة بيض مربعة على تقدير
واحد، وجعل في كل حائط من حيطانها باباً في وسطه شارع ينتهي إلى الحائط المجاور له
من الجهة الأخرى، وجعل في كل شارع أبواباً يمنة ويسرة وتنتهي طرقاتها إلى داخل المدينة،

وجعل في وسط هذه المدينة ملعباً يدور به من كل ناحية سبع درج؛ وعمل عليه قبة من
خشب مدهون على عمد عظيمة من رخام، وفي وسطه منار من رخام عليه صنم من
صوان أسود يدور مع الشمس بدورانها، وبسائر نواحي القبة صور معلقة تصفر وتصيح
بلغات مختلفة. وكان الملك يجلس على الدرجة العالية من الملعب وحوله بنوه وأقاربه
وأبناء الملوك، وعلى الدرجة الثانية رؤساء الكهنة والوزراء، وعلى الثالثة رؤساء الجيش،
وعلى الرابعة أصحاب الفلسفة والمنجمون والأطباء وأصحاب العلوم، وعلى الخامسة
أصحاب العمارات، وعلى السادسة أصحاب المهن، وعلى السابعة العامة؛ فيقال لكل
طائفة منهم: انظروا من دونكم ولا تنظروا من فوقكم، فإنكم لا تلحقونهم. فكان في هذا
ضرب من التأديب.
قال: وكان للملك عدة نسوة، وكان يحب منهن امرأتين ويتخطاهما ويجمع بينهما في مجلس
واحد، فمال لإحداهما في بعض الأيام دون الأخرى، فغارت وغرب عقلها وتناولت سكيناً
ودخلت إلى الملك وهو مغتر وتلك المرأة جالسة إلى جنبه فضربتها بالسكين، وقام الملك
دونها ليمنعها منها فضربته على فؤاده فخر صريعاً، وقبض على المرأة وحبست، ومات
الملك. وقد أوصى بقتل المرأة ووضع رأسها على ناووسه.
ومدة ملكه ستون سنة.
وملك بعده ابنه مرقورة الملك؛ فدخل عليه العظماء وهنوه ودعوا له بدوام الملك والنعمة،
وكان حازماً عاقلاً، فأخذ في حسن التدبير وتقويم العمارة وترتيب المراتب، وجعل لرأس
الكهان الحكومة في أمر الدين. قال: وفي كتبهم أنه أول من ذل السباع بمصر وركبها. قال:
وبنى المدن وعمر الهياكل وأقام الأصنام التي غربي منف، وكان ملكه نيفاً وثلاثين سنة،
وعمل له ناووس على طريق الغرب على مسافة يويمن.
وقلد ابنه بلاطس بن مرقورة، فملك وهو صبي، وكانت أمه تدبر الملك مع الوزراء
والكهنة، وكانت حازمة مجربة، فأجرت الأمور على ما كانت في حياة أبيه، وأحسنت إلى
الأولياء، وعدلت في الرعية، ووضعت عنهم بعض الخراج فأحبوها. وعملت في وقته البركة

العظيمة في صحراء الغرب، وجعل في وسطها عمود طوله ثلاثون ذراعاً في أعلاه قصعة من
حجارة يفور منها الماء فهي لا تنقص أبداً، وجعل حولها أصنام حجارة ملونة من كل
صنف على صور الحيوان والوحش والطير، وكان كل جنس يأتي إلى صورته ويألفها
فيؤخذ ولا يدري.
قال: ولما ترعرع الملك أحب الصيد ولهج له، فعملت له أمه متنزهاً فيه مجالس مركبة على
أساطين من المرمر مصفحة بالذهب، عليها قباب مرصعة بالتصاوير العجيبة والنقوش
المؤلفة، يطلع من تحتها الماء في فوارات وتنصب إلى أنهار مصفحة بالفضة تفضي إلى حدائق
فيها بدائع الغروس، عليها تماثيل تصفر بأصناف اللغات، ونضدت بأنواع الفواكه، وأرخت
عليها ستور الديباج المنسوجة بالذهب، اختارت له من بنات الملوك الحسان وأزوجته
منهن، وبنت حول تلك الجنة مجالس يجلس فيها الوزراء والكهنة وأشراف أهل الصناعات
يرفعون إليه ما يعملونه، فكان أكثر مقام الملك في تلك الجنة، فإذا فرغوا من أعمالهم نقل
إليهم الطعام والشراب من مطبخه، ولا يزالون في أكل وشرب بقية يومهم وليلتهم، وأقاموا
على ذلك والأمور جارية على السداد.
وكانت أيامه سعيدة كثيرة الخصب والسعة للناس والعدل فيهم والإحسان إليهم. وكان له
يوم يخرج فيه إلى الصيد ويرجع إلى جنته فيأمر لمن معه بالجوائز والأطعمة والأشربة،
ويجلس يوماً للناس فينظر في أمورهم ومصالحهم ويقضي حوائجهم، ويجلس يوماً للخلوة
بنسائه، ثم جدر فمات؛ وعمل له ناووس في جنته وجعل فيه من الأموال والجواهر والصنعة
والتماثيل كما كان يجعل لآبائه. وكان ملكه ثلاث عشرة سنة، وانتقل الملك إلى أعمامه.

أتريب الملك

هو أتريب بن قبطيم بن مصريم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام. قال: وكان أتريب
قد انتقل إلى حيزه بعد وفاة أبيه قبطيم، وهي المدينة التي كان أبوه بناها له، وكان طولها
اثني عشر ميلاً، ولها اثنا عشر باباً، وفي شارعها الأعظم ثلاث قباب عالية على عمد

بعضها فوق بعض، منها قبة في وسط المدينة، وقبتان في طرفيها، وجعل على كل ركن منها
مرقباً كبيراً يوقد ليلاً، وعلى كل باب من أبوابها حرساً كثيراً، وجعل في كل جانب منها
ملعباً ومنتزهات تشرف من تلك المجالس عليها، وشق في عرضها نهراً وعمل عليه قناطر
معقودة، وبنى فوقها مجالس يتصل بعضها ببعض، وجعل حوله منازل تدور بالخليج متصلة
بالقناطر على رياض مزروعة وخلفها الأجنة والبساتين، وعلى كل باب من أبوابها أعجوبة
من تماثيل وأصنام متحركة وأصنام ينبع الماء من آذانها، ومن داخل كل باب صورة شيطانين
من ضفر، فكان إذا قصدها أحد من أهل الخير قهقه الشيطان الذي عن يمنة الباب، وإن
كان من أهل الريب بكى الشيطان الذي عن يسرة الباب، وجعل في كل منتزه منها من
الوحوش الآلفة والطير المغردة كل مستحسن، وجعل فوق قباب المدينة صوراً تصفر إذا
هبت الرياح، ونصب له فيها مرايا ترى البلدان البعيدة والعجائب الغريبة، وبنى حذاءها في
الشرق مدينة وجعل فيها ملاعب وأصناماً بارزة كثيرة في خلق مختلفة، وجعل في وسطها
بركة إذا مر بها الطير سقط عليها فلا يبرح حتى يؤخذ، وجعل لها جصناً باثني عشر باباً
وجعل على كل باب من أبوابها تمثالاً يعمل أعجوبة وعمل حولها أجنة، وجعل ما يقرب
منها من ناحية الشرق مجلساً منقوشاً على ثماني أساطين، وفوق المجلس قبة عليها طائر
منشور الجناحين يصفر كل يوم ثالث صفرات: بكرة ونصف النهار، وعند الغروب، وأقام
فيها أصناماً وعجائب كثيرة، وبنى مدناً كثيرة وأكثر من العمارات، وأقام رجلاً يقال له
برسان يعمل الكيمياء، وضرب منها دنانير، في كل دينار سبعة مثاقيل عليها صورته، وعمل
منها تماثيل كثيرة. وعاش أتريب في الملك ثلاثمائة سنة وستين سنة، وكانت سمة خمسمائة
سنة. وعمل له ناووس في جبل بالشرق حفر له تحته سرب بطن بالزجاج والمرمر وجعل
على سرير من ذهب مرصع وحملت إليه ذخائره، وجعل على بابه صورة تنين لا يدنو منه
أحد إلا أهلكه، وزبر عليه اسمه وتاريخ وقته، وسفوا عليه الرمال.

وملكت بعده ابنته تدرورة فدبرت الملك وساسته بأيد وقوة خمساً وثالثين سنة ثم ماتت.
فقام بالملك أخوها فليمون بن أتريب؛ فرد الوزراء إلى مراتبهم، وأقام الكهان على
مواضعهم لوم يخرج الأمر عن رأيهم، وجد في العمارات وطلب الحكم وعمل بها. وفي أيامه
بنيت تنيس الأولى التي غرقها البحر، وكان بينها وبين البحر شيء كثير، وحولها الزروع
والأشجار والكروم والقرى ومعاصر الخمر وغيرها وعمارة لم يكن أحسن منها، فأمر الملك
أن يبنى له في وسطها مجالس، وينصب له عليها قباب، وتزين بأحسن الزينة والنقوش، وأمر
بقرشها وإصلاحها، وكان إذا بدأ النيل في الزيادة انتقل الملك إليها فأقام بها إلى النوروز
ورجع. وكان للملك بها أمناء يقسمون المياه ويعطون كل قرية قسطها، وكان على تلك
القرى حصن يدور بقناطر، وكان كل ملك يأتي يأمر بعمارتها والزيادة فيها ويجعلها له
متنزهاً.
ويقال: إن الجنتين اللتين ذكرهما الله تعالى في كتابه كانتا لأخوين من أهل بيت الملك أقطعهما
الملك ذلك الموضع. وقد تقدم ذكر خبرهما عند ذكرنا لبحيرة تنيس، وهو في الباب
السادس من القسم الرابع من الفن الأول في ذكر البحار والجزائر وهو في السفر الأول من
كتابنا هذا.
قال: وفي زمان فليمون بنيت دمياط على اسم غلام له كانت أمه ساحرة لفليمون. قال:
وملك فليمون تسعين سنة، وعمل لنفسه ناووساً في الجبل الشرقي، وحول إليه من الأموال
والجواهر وسائر الذخائر شيئاً كثيراً، وجعل من داخله تماثيل تدور بلوالب في أيديها سيوف
فمن دخلها قطعته بسيوفها. وجعل عن يمينه ويساره أسدين من نحاس مذهب بلوالب
أيضاً فمن دنا منهما حطماه، وزبر على الناووس: هذا قبر فليمون بن أتريب بن قبطيم بن
مصريم، عمرا عمراً، وبقي دهراً، واتاه الموت فما استطاع له دفعاً، فمن وصل إليه فلا
يسلبه ما عليه، وليأخذ مما بين يديه.
وصار الملك بعده إلى ابنه قرسون بن فليمون؛ وجلس على سرير الملك، ودخل إليه

عظماء أهل البلد والخاص والعام فهنؤه بالملك، فتقدم في أمر الهياكل والكهنة وطلب
الحكمة؛ وكان حدثاً جميلاً فعشقته إحدى نساء أبيه، وكانت تتولى طيبة وتزعم أن أباه
أمرها بذلك، ثم بعثت إلى ساحرة من أعلم السحرة بمنف فسألتها أن تسحره لها وبذلت
لها على ذلك أموالاً، وإذا الساحرة قد عشقته أشد من عشقها، فسعت بامرأة أبيه وعرفته
ما بذلت لها على ذلك، فأبعدها عن مجلسه ومنعها من الدخول إليه.
وبلغ ملكاً من ملوك حمير أن ملك مصر صار إلى غلام حدث غر فطمع فيه وسار إليه في
جموع عظيمة، فخرج قرسون نحوه فالتقوا بأيلة واقتتلوا قتالاً شديداً حتى تفانى الفريقان،
فأتت تلك الساحرة إلى الملك فقالت: ما تجعل إلى أعنتك على عدوك حتى تفض جموعه
وتظفر به؟ قال حكمك؛ فأخذت عليه بذلك العهود والمواثيق، وأصبحوا للحرب فدخنت
الساحرة بدخن عجيبة وأظهرت تخابيل هائلة، فهرب الحميري في نفر يسير من ثقاته، وقتل
بقية أصحابه، وحاز جميع ما كان في خزائنهم، وعاد الملك إلى منف بالظفر والغنيمة، فأتته
الساحرة فسألته الوفاء بالشرط فقال: احتكمي ما أحببت، فهذه الأموال والخزائن بين
يديك؛ فقالت: ما أريد غير الملك؛ فقال: ويحك! إنك لست من أهل بيت الملك، وقد
علمت ما في هذا على الملك؛ فقالت: قد كان الملوك قبلك يغصبون نساء الناس ويلدن
منهم ولا يسألون عن ولاداتهم، وأنا ابنة فلان رئيس الكهنة، ويوشك أن يحتاج الملك إلي
بعد هذا. ولم تزل به حتى انصرف قلبه إليها، فتزوجها وأحبها وحظيت عنده. فضاقت
الأرض بامرأة أبيه فأخذت في أعمال الحيلة عليها؛ فدست جارية لها عاقلة لطيفة على
ساقي الملك الذي يتولى شرابه، فاختلطت بجواريه حتى تمكنت من إناء كان فيه شراب
للملك فألقت فيه سماً وعادت في الوقت إلى مولاتها وأخبرتها، فدخلت إلى الملك فسجدت
له وقالت: قد كنت للملك ناصحة، وعليه مشفقة، فأقصاني واختص هذه الساحرة
الفاجرة، وقد سمت شرابه في إناء من صفته كذا وكذا، فليسقها الملك منه ليعلم صدقي؛

فدعا الملك بالإناء فوجده على ما ذكرت، فاحضر الساحرة، وأمرها بشرب قدح منه
فشربته ولم تعلم ما فيه فسقط لحمها من عظمها. فأمر بدفنها في ناووس وزبر عليه اسمها
وما همت به وما صار أمرها إليه، وعاد إلى امرأة أبيه وتزوج بها وحسنت حالها عنده.
قال: وفي أيامه عمل المنار على بحر القلزم وجعلت على رأسه مرآة من أخلاط تجتذب
المراكب على شاطئ البحر، فلا يمكنها أن تبرح أو تعشر، فإذا عشرت سترت المرآة فتجوز
المراكب.
قال: وأقام قرسون ملكاً مائتين وستين سنة؛ وقد كان عمل لنفسه ناووساً خلف الجبل
الأسود الشرقي، وجعل في وسطه قبة فيها اثني عشر بيتاً، في كل بيت أعجوبة لا تشبه
الأخرى، وزبر عليها اسمه ومدة ملكه. قال: وملك بعده ثلاثة أو أربعة. فهؤلاء الذين
سماهم من أولاد أتريب ممن ملك منهم. والله أعلم.
صابن قبطيم بن مصريم
بن بيصر بن حام
ابن نوح عليه السلام
قال: ولما قسم قبطيم الأرض بين بنيه الأربعة كما تقدم وانتقل كل واحد منهم إلى حيزه،
خرج صا بأهله وولده وحشمه إلى حيزه، وهو بلد البحيرة وما يليها إلى برقة، ونزل مدينة
صا، وذلك قبل أن تبنى الإسكندرية. وكان صا أصغر ولد أبيه وأحبهم إليه، فلما ملك
حيزه أمر بالنظر في العمارة، وبنى المدائن والبلدان والهياكل، وعمل في إظهار العجائب كما
صنع إخوته، وطلب الزيادة في ذلك. وكان مرهون الهندي صاحب بنائه، فبنى له من حد
صا إلى حد لوبية ومراقية على عبر البحر أعلاماً، وجعل على رءوس تلك الأعلام مرايا
من أخلاط شتى: فكان منها ما يمنع من دواب البحر وأذاهم، ومنها ما إذا قصدهم عدو
من الجزائر الداخلة وأصابها الشمس ألقت شعاعها على مراكبهم فأحرقتها، ومنها ما يرى
المدائن التي تجاورهم من عدوة البحر وما يعمله أهلها، ومنها ما ينظر منها إلى إقليم مصر
فيعلم ما يخصب وما يجدب من ه في كل سنة. وجعل فيها حمامات توقد من نفسها

ومستشرفات. وكان كل يوم في موضع منها بمن يخصه من حشمه وخدمه، وجعل حولها
بساتين وسرح فيها الطيور المغردة والوحش المستوحش والمستأنس والأنهار المطردة
والرياض المونقة، وجعل شرف القصر من حجارة ملونة تلمع إذا أصابتها الشمس فتنشر
شعاعها على ما حولها؛ ولم يدع شيئاً من آلة النعمة والرفاهية إلا استعمله. فكانت العمارة
ممتدة إلى برقة في رمال من رشيد إلى الإسكندرية إلى برقة. وكان الرجل يسافر في أرض
مصر لايحتاج إلى زاد لكثرة الفواكه والخيرات، ولا يسير إلا في ظلال تستره من الشمس.
وعمل في تلك الصحاري قصوراً وغرس فيها غروساً، وساق إليها من النيل أنهاراً. وكان
يسلك من الجانب الغربي إلى حد الغرب في عمارة متصلة.
قال: فلما انقرض أولئك القوم بقيت آثارهم في تلك الصحارى وخربت تلك المنازل وباد
أهلها. قال: ولا يزال من دخل تلك الصحارى يحكى ما رأى فيها من الآثار والعجائب.
قال: ومن ملوكهم مرقونس؛ وكان فاضلاً حكيماً، محباً للنجوم والحكمة، فعمل في أيامه
ردهم إذا ابتاع به صاحبه شيئاً اشترط أن يزن له ما يبتاعه منه بوزن الردهم ولا يطلب
عليه زيادة، فيغتر البائع بذلك ويقبل الشرط، فإذا تم ذلك بينهما وقع في وزن الردهم أرطال
كثيرة تسوي عشرة أضعافه، وإن أحب أن يدخل في وزنه أضعاف تلك الأرطال دخل.
قال: وقد وجد في كنوزهم في أيام بني أمية، فكان الناس يتعجبون منه. وقد كانوا وجدوا
درهماً آخر قيل إنه عمل في وقته أيضاً يكون في ميزان الرجل، فإذا أراد أن يبتاع حاجة
أخذ الدراهم من ميزانه وقلبه وقال: اذكر العهد، ومضى فابتاع به ما أراد، فإذا أخذ
السلعة ومضى إلى بيته وجد الدرهم قد سبقه إلى منزله، ووجد البائع حيث وضعه ورقة
آس أو قرطاس أو مثل ذلك بدور الدرهم.
وقيل: إن في وقته عملت الآنية الزجاج التي توزن، فإذا ملئت ثم وزنت لم تزد على وزنها
الأول شيئاً، وهي تحمل من الماء بوزنها. وعمل أيضاً في وقته الآنية التي إذا جعل الماء فيها
صار خمراً في لونه ورائحته وسكره.

قال: وقد وجد من هذه الآنية بإطفيح في إمارة هارون بن خمارويه بن أحمد ابن طولون
شربة جزع بعروة زرقاء ببياض. وكان الذي وجدها أبو الحسن الصائغ الخراساني هو ونفر
معه، فجلسوا ليأكلوا على عبر النيل وشربوا الماء بها فوجدوه خمراً فسكروا منه ورقصوا،
فوقعت الشربة فانكسرت على عدة قطع، فاغتم الرجل وجاء بها إلى هارون مكسورة،
فأسف عليها وقال: لو كانت صحيحة لاشتريتها ببعض ملكي.
وفي أيامه عملت الصورة الحنتمية من الضفادع والخنافس والذباب والعقارب وسائر
الحشرات، فكانت إذا جعلت في موضع من المواضع اجتمع إليها ذلك الجنس بعينه ولا
يقدر أن يفارقها حتى يقتل. وعمل في صحراء الغرب ملعباً من زجاج ملون، وجعل في
وسطه قبة من الزجاج خضراء صافية اللون؛ وكانت إذا طلعت عليها الشمس ألقت
شعاعها على المواضع البعيدة. وعمل من أربع جهاته أربعة مواضع عالية من الزجاج، كل
مجلس منها بلون، ونقش كل مجلس منها بما يخالف لونه من الطلسمات العجيبة والنقوش
الغريبة والصور البديعة؛ كل ذلك من زجاج مطابق يشف. وكان يقصد هذا الملعب ويقيم
فيه الأيام الكثيرة.
وعمل له ثلاثة أعياد في كل سنة، فكانوا يحجون إليه ويذبحون له ويقيمون فيه سبعة أيام؛
فلم يزل ذلك الملعب بحاله تقصده الأمم لتنظر إليه لأنه لم يكن له نظير ولا شكل، ولا عمل في
العالم مثله إلى أن هدمه بعض الملوك لأنه تعاطى مثله فلم يقدر على ذلك.
وكانت أم مرقونس ابنة ملك النوبة، وكان أبوها يعبد نجماً يقال له السها، ويسميه إلهاً،
فسألت ابنها أن يعمل لها هيكلاً ويفردها به، فعمله لها وصفحه بالذهب والفضة وأقام فيه
صنماً وأرخت عليه ستور الحرير، فكانت تدخل إليه مع جواريها وحشمها وتسجد له كل
يوم ثلاث مرات. وعملت في كل شهر عيداً تقرب له فيه القرابين وتبخرج ليله ونهاره،
ونصبت له كاهناً من النوبة فكان يقوم به ويبخر ويقرب له، ولم تزل حتى سجد ودعا الناس
إلى عبادته.

قال: ولما رأى الكاهن أن الأمر قد أحكم له من جهة الملك في عبادة الكواكب، أحب أن
يكون له مثالاً في الأرض على صورة شيء من الحيوان يتعبد له ليكون حذاء عينيه؛ فأقام
يعمل الحيلة في ذلك إلى أن اتفق بمصر كثرة العقبان حتى أضرت بالناس، فأحضره الملك
وسأله عن كثرتها فقال: إن إلهك أرسلها لتعمل له نظيراً يسجد له. فقال الملك: إن كان
ذلك يرضيه فأفعله، فعمل تمصال عقاب طوله ذراعان في عرض ذراع من ذهب مسبوك،
وعمل عينيه من ياقولتين، وعمل له وشاحين من لؤلؤ منظوم على أنابيب جوهر أخضر،
وجعل في منقاره كرة معلقة وسروله بادرك أحمر، وأقامه على قاعدة من فضة منقوشة،
وركبها على قائمة زجاج أزرق، وجعله في أزج عن يمين الهيكل، وألقى عليه ستور الحرير،
وجعل له دخنة معمولة من جميع الأفاويه والصمغ، وقرب له بعجل اسود وبكارة الفراريج
وبواكير الفواكه والرياحين. فلما تمت له سبعة أيام دعاهم إلى السجود له فأجابوه. ولم يزل
الكاهن يجهد نفسه في عبادته، وعمل له عيداً دعاهم فيه إلى أن يبخر له في أنصاف
الشهور بالندل وترش الهياكل بالخمر العتيقة التي تؤخذ من رءوس الجوابي، ونطق لهم
العقاب وعرفهم أنه أوال عنهم العقبان وضررها؛ وكذلك يفعل في غيرها مما يخافون؛ فسر
الكاهن بذلك ووجه إلى أم الملك فعرفها ذلك فصارت إلى الهيكل، فلما سمعت كلام
العقاب سرها ذلك وأعظمته، وبلغ الملك خبره فركب إلى الهيكل حتى خاطبه وأمره ونهاه،
فسجد له وأقام له سدنة وأمر أن يزين بأصناف الزينة، وكان الملك يقوم بذلك الهيكل
ويسجد تلك الصورة ويسألها عما يريد فتخبره.
وعمل من الكيمياء والذهب مالم يعمله أحد من الملوك. فيقال: إنه دفن في صحراء الغرب
خمسمائة دفين. ويقال: إنه عمل على باب صا عموداً وجعل عليه صنماً في صورة امرأة
جالسة وفي يدها مرآة ينظر فيها العليل أو ينظر له أحد فيها فإن كان يموت رآه ميتاً، وإن
كان يعيش رآه حياً؛ والماسفر، فإن كان مقبلاً بوجهه أنه راجع، وإن رآه مولياً علموا أنه

متماد، وإن كان مريضاً أو ميتاً رأوه كذلك. وعمل بالإسكندرية صورة راهب جالس على
قاعدة وعلى رأسه كالبرنس وفي يده كالعكاز إذا مر به تاجر جعل بين يديه شيئاً من
الذهب على قدر بضاعته، وإن حاذاه عن بعد ولم يفعل ذلك لم يقدر على الجواز ويبيت
قائماً مكانه، فكان يجتمع من ذلك مال عظيم يفرق في الزمني والفقراء.
وعمل في وقته كل أعجوبة طريفة، وأمر أن يزبر اسمه عليها وعلى كل علم وكل طلسم
وصنم. وعمل لنفسه ناووساً في داخل أرض الغرب عند جبل يقال له سدام، وعمل تحته
رحىً طوله مائة ذراع في ارتفاع ثلاثين ذراعاً في عرض عشرين ذراعاً، وصفحه بالمرمر
والزجاج الملون المسبوك وسقفه بالحجارة الصافية، وعمل فيما دار به مصاطب لطافاً
مبلطة بالزجاج، وعمل على كل مصطبة فيها أعجوبة وتمثالا مما عمل في وقته، وعمل في
وسط الأزج دكة من زجاج ملون، على كل ركن من أركانها صورة تمنع من الدنو إليها، وبين
كل صورتين كالمنارة عليها حجر مضيء، وجعل في وسط الدكة حوضاً من ذهب يكون
جسده فيه بعد تضميده بالأدوية الممسكة، ونقل إليه ذخائره من الجوهر والذهب وغير
ذلك، أمر أن يسد باب الأزج بالصخور والرصاص وتهال عليه الرمال. وكان ملكه ثلاثاً
وسبعين سنة، وعمره مائتين وأربعين سنة، وكان جميلاً ذا وفرة حسنة عامة نسائه بعده
ولزمن الهيكل.
وعهد بالملك إلى ابنه أنساد بن مرقونس؛ فملك بعد أبيه وهو غلام ابن خمس وأربعين
سنة، وكان معجباً جباراً طماح العين، فنكح امرأة من نساء أبيه وانكشف أمره معها،
وكان أكبر همه اللهو واللعب، فجمع كل ملة كان في مملكته كل من هذه سبيله، وجعل تدبير
الملك إلى وزير له يقال له مسرور، ورفض العلوم والهياكل والكهنة والنظر في أمور الناس.
وعمل قصوراً من خشب عليها قباب من خشب منقوشة مموهة وجعلها على أطراف في
النيل، فكان يشرب عليها مع من يحبه من نسائه وخدمه ومن يلهيه.

وعمل عجلاً في البر وحمل عليها الأروقة المذهبة وفرشها بفاخر الفرش، فكان يتنزه عليها
ويجرها البقر ويقيم في نزهته شهوراً لا يمر بموضع نزه إلا أقام فيه أياماً. وولد من الشجر
توليداً كثيراً. واستنفد أكثر ما في خزائن أبيه لجوائز المهين والنفقات في غير وجه. فلما
أسرف في ذلك اجتمع الناس إلى وزيره فأنكروا عليه حاله وسألوه مسألته والمشورة عليه أن
يقع عما هو عليه فضمن لهم ذلك، وفاوضه فيه فلم ينته عنه، وسلط أصحابه على الناس
فأساءوا إليهم وأضروا بهم. وخرج في بعض الأيام إلى متنزه كان له قد صفح مجالسه
بصفائح الذهب والفضة، وغريب الزجاج الملون، والجواهر المخروطة، الصهاريج المرخمة
الملونة، وأمال إليه المياه، وغرس فيه الرياحين والثمار، وفرش مجالسه بأصناف الفرش؛ وكان
إذا احب أن يخلو بامرأة من نسائه خلا بها هناك؛ فإنه في ذلك المكان، وقد أقام به أياماً،
إذ خرج غلام لبعض حرمه فأتى بعض التجار في حاجة أراد أخذها بغير ثمن، فمنعه
التجار منها، فوثب بهم فضربوه حتى أسالوا دمه وحمل، واتصل الخبر بالوزير وصاحب
الجيش فركبا إلى الموضع وأنكرا على الناس فأغلظوا لهما ، فانصرفا وعرفا الملك الخبر،
فأراهما أنه لم يحفل بذلك، وأمر بالنداء في الناس من تعرض لكم من خدم الملك وأصحابه
بأذى فاقتلوه، فشكره الناس وحمدوا فعله على ذلك، وتواصلوا بالوثوب على أصحابه،
حتى إذا مضى لذلك أسبوع وجه الملك إلى الوزير وصاحب الجيش فعرفهما أنه قد عزم
على الركوب إلى صحراء الغرب يتصيد هناك، وأمر أن يركب معه الجيش ويتزودوا لثلاثة
أيام ففعلوا، وخرج إلى البرية فسار حتى إذا اختلط الظلام رجع الجيش حتى وافى باب
المدينة، وأمر أصحابه أين يضعوا السيف في الناس فقتلوا خلقاً كثيراً، ثم أمر أن ينادي:
هذا جزاء من أقدم على الملوك من رعاياهم وأصحاب منهم، وأخرب الموضع الذي ضرب
فيه الغلام، فاستغاث به الناس، فتقدم إلى وزيره أن يطرح نفسه بين يديه ويسأله فيهم، فعل
وأمنهم وقال: من عاد إلى مثل ما كان فقد حل لنا دمه، فدعوا له وانصرفوا. ثم احتجب

عن الناس واستخف بالكهنة والهياكل فأبغضته العامة والخاصة وبغوا الغوائل فاحتال عليه
خاصته بطباخه وساقيه فسماه وهو ابن مائة وعشرين سنة فمات.
وصار الملك من بعده إلى ابنه صا بن أنساد بن مرقونس؛ قال: وأكثر القبط تزعم أن صا
بن مرقونس أخو أنساد. فملك وهنأه الناس، فوعدهم بالعدل فيهم، والإحسان إليهم،
وحسن النظر لهم، وسكن منف وحكم الأحياز كلها، وعمل بها عجائب وطلسمات،
ورد الكهنة إلى مراتبهم، ونفى الملهين وأهل الشر من كان يصحب أخاه، ونصب العقاب
الذي كان أبوه عمله، وشرف هيكله ودعا إليه. وعمل في منف مرة كان يرى منها ما
يخصب من بلده وما يجدب.
وبنى بداخل الوحات مدينة غرس حولها نحلاً كثيراً. ونصب قرب البحر أعلاماً كثيرة.
وعمل خلف المقطم صنماً يقال له صنم الحيلة، فكان كل من تعذر عليه أمر يأتيه فيبخره
عليه ذلك الأمر. وجعل على أطراف مصر أصحاب أخبار يرفعون إليه ما يجري في
حدودهم. وعمل على غربي النيل منائر يوقد عليها إذا قصدهم قاصد أو نابهم أمر.
ويقال: إنه بنى أكثر منف وكل بنيان عظيم بالإسكندرية.
قال: وكان لما ملك البلد بأسره جمع الحكماء إليه ونظر في النجوم - وكان بها حاذقاً -
فرأى أن بلده لا بد أن تغرق بالطوفان من نيلها، ورأى أنها تخرب على يد رجل يأتي من
ناحية الشام، فجمع كل فاعل بمصر وبنى في ألواح الأقصى مدينة جعل طول حصنها في
الارتفاع خمسين ذراعاً وأودعها جميع الحكم والأموال.
وبنى المدينة التي وقع عليها موسى بن نصير في زمن بني أمية، وكان قد أخذ على ألواح
الأقصى، وكان عنده علم منها، وأقام سبعة أيام يسير في رمال وصحارى سمت الغرب
والجنوب إلى أن ظهرت له مدينة عليها حصن وأبواب حديد، فاصعد إليها الرجال ليقفوا
على ما فيها لما لم يمكنه فتح أبوابها. ولغلبة الرمال على ما حولها؛ فكانوا إذا علوا الحصن
وأشرفوا عليها وثبوا إليها؛ وعرض حصنها عشرون ذاعاً؛ فلما أعياه أمرها تركها ومضى،

فهلك في تلك الطريق جماعة من أصحابه. فلم يسمع بأحد بعد موسى بن نصير ولا قبله
وقع عليها.
قال: وفي تلك الصحارى أكثر منتزهاتهم ومدائنهم العجيبة؛ إلا أن الرمال غلبت عليها.
ولم يبق بمصر إلا وقد عمل للرمال دفعا ثم تفسد طلسماتهم على تقادم الأيام.
وقال: وحكى قوم من التناء في ضياع الغرب: أن عاملاً من عمالهم عنف بهم فهربوا
ودخلوا في صحراء الغرب وحملوا معهم زاداً إلى أن يصلح أمرهم ويرجعوا إلى بلادهم،
وكانوا على يوم وبعض آخر قد لحجوا في سفح الجبل، فوجدوا عيراً أهلياً قد خرج من
بعض شعابه، فتبعه نفر منهم، فأخرجهم إلى مساكن وأشجار ونخل ومياه تطرد وقوم
يسكنون هناك ويزرعون، فخاطبوهم وعجبوا منهم وسألوهم عن حال فعرفوهم أنهم منذ
كانوا سكنوا تلك الناحية ويتناسلون ويزرعون ولا يطالبهم أحد بخراج ولا يؤذيهم، وأنهم لم
يدخلوا إلى ضياع الغرب قط، وقالوا لهم انتقلوا إلينا؛ فخرج القوم بعد أن صلحت أمورهم
واجتمعوا على الرجوع إلى ذلك الموضع والسكنيى فيه بأهليهم ومواشيهم، فخرجوا
يطلبون الطريق مدة فما عرفوا الطريق ولا تأتي لهم الوصول إليه بعد ذلك فأسفوا على
مافاتهم منه.
وحكي أيضاً عن آخرين ضلوا الطريق في الغرب، فوقفوا على مدينة عامرة، كثيرة الناس
والمواشي والنخيل والشجر، فأضافوهم وأكلوا عندهم وشربوا، وباتوا في طاحونة يعمل
فيها الخبز، فسكروا من الشراب وناموا، فلم ينتبهوا إلا عند طلوع الشمس، فوجدوا
أنفسهم في مدينة كبيرة خراب ليس فيها أحد، فارتاعوا لذلك وخرجوا على وجوههم
كالهاربين، وساروا يومهم على غير سمت حتى قرب المساء، فظهرت لهم مدينة أخرى
عظيمة أكبر من الأولى واعمر، وأكثر أهلاً ودواب ومواشي وشجرا ونخلا، فأنسوا بهم
وأخبروهم بخبر المدينة، فجعلوا يعجبون منهم ويضحكون؛ وإذا لبعض أهل المدينة وليمة
فانطلقوا بهم معهم، فأكلوا وشربوا وغنوهم بأصناف الملاهي، وسألوهم عن حالهم

فحدثوهم أنهم ضلوا عن الطريق في هذه الصحارى، فقالوا لهم: الطريق بين أيديكم واضح
مستقيم لا يمكن أن تغلطوا فيه، فإن أحببتم المسير وجهنا معكم من يوقفكم على سنن
الطريق الكبير الذي يوصلكم إلى منازلكم، وإن أحببتم أن تقيموا عندنا رفدناكم وكنتم
إخواننا وأحبابنا.
قالوا: فسررنا بذلك من قولهم، واجمع بعضنا على المقام معهم، وأجمع من كان له منا أهل
وولد على أن يسير إلى منزله ويحمل أهله وولده ويعود إليهم.
قال: وبتنا عندهم في خير
مبيت، فرحين بما ساق الله إلينا. فلما كان من الغد انتبهنا فوجدنا أنفسنا في مدينة
عظيمة ليس فيها أحد من الناس وقد تشعب بعض حصنها، إلا أن حولها نخلا قد
تساقط ثمره وتكدس حوله، فلحقنا من الخوف لذلك والارتياع ما استوحشنا له، وخرجنا
على وجوهنا هاربين مفكرين فيما عايناه من أهلها، وإنا لنجد روائح الشراب منا ومعاني
الخمار ظاهرة، فلم نزل نسير يومنا أجمع وليس بنا جوع ولا عطش، حتى إذا كان المساء
رأينا راعياً يرعى غنماً فسألناه عن العمارة وعن الطريق فدلنا على الطريق وقال: إن
العمارة حذاؤكم؛ وإذا بنقار من ماء المطر فشربنا منه وبتنا عليها، ثم أصبحنا فإذا نحن
في خلاف موضعنا الذي كنا فيه، وإذا آثار العمارة والناس فما سرنا إلا بعض يوم حتى
دخلنا مدينة الأشمونين بالصعيد، فكا نحدث الناس ولا يقبلون منا.
قال: وهذه مدائن القوم القديمة قد غلب عليها الجان ومنها ما قد سترته عن العيون فلا
ينظر إليها أحد.
قال: وذكر بعض القبط أن رجلاً نم بني الكهنة الذين قتلهم أنساد إلى ملك الإفرنجة فذكر له
كنوز مصر وعجائبها وخيرها، وضمن له أن يوصله إلى ملكها وأموالها، ويدفع عنه أذى
طلسماتها حتى يبلغ ما يريده ويعرفه مواضع الكنوز.
فلما اتصل بصا الملك أن صاحب الإفرنجة يتجهز إليه، عمد إلى جبل بين البحر المالح
وشرقي النيل فأصعد إليه أكثر كنوزه وما في خزائنه، وبنى عليها قباباً وصفحها

بالرصاص، وأمر ففتحوا جوانب الجبل إلى منتهى خمسين ذراعاً، وجعلوا في انتهاء المنحوت
منه شبه الطرر البارزة خارجة من النحت بقدر مائة ذراع وهو بين جبال وعرة، فحصن
أمواله هناك. وتجهز إليه صاحب الإفرنجة في ألف مركب، فكان لا يمر بشيء من أعلام
مصر ومناراتها وأصنامها إلا هدمه وكسره بمعونة الكاهن له.
حتى أتى الإسكندرية الأولى فعاث فيها وهدم كثيراً من معالمها إلى أن دخل النيل من
ناحية رشيد وصعد إلى منف فحاربه أهل النواحي، وجعل ينهب ما مر به ويقتل من قدر
عليه إلى أن طلب المدائن الداخلة ليأخذ كنوزها فوجدها ممتنعة بالطلسمات الشداد
والمياه العميقة والخنادق الشداخات، فأقام عليها أياماً كثيرة يعالج أن يصل إليها، فلما لم
يمكنه ذلك قتل الكاهن، وهلك جماعة من أصحابه، واجتمع أهل النواحي على مراكبه
وأصحابه فقتلوا منهم خلقاً وأحرقوا بعض المراكب. ولما تيقن أهل مصر تلف الكاهن
الذي كان معه أرسلوا إليه سحرهم وتهاويلهم، وأتت مع ذلك رياح غرقت كثيراً من
مراكبه، وكان جل مرامه أن ينجو بنفسه فما عاد إلى الإفرنجة إلا وقيذا بجراحات أصابته،
ورجع الناس إلى منازلهم وقراهم، ورجع صا إلى منف فأقام بها وترك ماكنزه على حاله.
قال: ولم يزل بعد ذلك يغزو بلاد الروم وأهل الجزائر ويخربها فهابته الملوك، وتتبع الطهنة فقتل
منهم خلقاً، وأقام سبعاً وستين سنة، وكانت سنة مائة وسبعين سنة وهلك، فدفن بمنف في
ناووس عمله وسط المدينة من تحت الأرض، وجعل المدخل إليه من خارج المدينة من الجهة
الغربية، وحمل إليه أموالاً عظيمةً وجواهر كثيرة، وتماثيل وطلسمات وغير ذلك كما فعل
أجداده. وكان فيه أربعة آلاف تمثال ذهب على صور شتى برية وبحرية، وتمثال عقاب من
جوهر أخضر جعل عند رأسه، وتمثال تنين من ذهب مشبك عند رجليه ونزبر عليه
اسمه وسيرته وغلبته للملوك.
وعهد إلى ابنه تدارس بن صا؛ فملك الأحياز كلها بعد أبيه وصفا له ملك مصر. وكان
محنكاً مجرباً ذا أيد وقوة ومعرفة بالأمور؛ فأظهر العدل، وأقام الهياكل وأهلها قياماً حسناً.

وبنى غربي منف بيتاً عظيماً للزهرة وزبر جميع الأخبار - وكان صم الزهرة من لازورد
مذهب متوجاً بذهب - وسوره بسوارين من الزبرجد الأخضر؛ وكان في صورة امرأة لها
ضفيرتان من ذهب أسود مدبر، وفي رجليها خلخالان من حجر احمر شفاف ونعلان من
ذهب، وفي يدها قضيب مرجان وهي تشير بسبابتها كالمسلمة على من في الهيكل، وجعل
حذاءها من الجانب الآخر تمثال بقرة ذات قرنين وضرعين من نحاس أحمر مموه بذهب
موشحة بحجر اللازورد، ووجه البقرة محاذياً لوجه الزهرة، وجعل بينهما مطهرة من أخلاط
للأجساد على عمود رخام مجزع فيها ماء مدبر يستشفى به من كل داء، وفرش الهيكل
بحشيشة الزهرة يبدلونها في كل سبعة أيام، وجعل فيه كراسي للكهنة مصفحة بذهب
وفضة، وقرب له ألف رأس من الضأن والمعز والوحش والطير، وكان يحضر يوم الزهرة
ويطوف به. وكانت فرش الهيكل وستوره عن يمين الزهرة ويساره. وكان في قبته صورة
رجل راكب على فرس له جناحان وله حربة في سنانها راس إنسان معلق، وبقي هذا إلى
زمان بخت نصر وهو الذي هدمه. ويقال: إن تدارس الملك هذا هو الذي حفر خليج
سخا، وارتفع مال البلد في أيامه مائة ألف ألف دينار وخمسين ألف ألف دينار. وقصده
بعض عمالقة الشام فخرج إليه واستباحه ودخل إلى فلسطين فقتل منها خلقاً كثيراً وسبى
بعض حكمائها وأسكنهم مصر وهابته الملوك.
قال: وعلى رأس ثلاثين سنة من ملكه طمع السودان من الزنج والنوبة في أرضه فعاثوا
وأفسدوا، فأمر بجمع الجيوش وأعد المراكب ووجه قائداً من قواده يقال له: بلوطس في
ثلثمائة ألف، وقائداً آخر في مثلها، ووجه في البحر ثلثمائة سفينة في كل سفينة كاهن يعمل
أعجوبة من العجائب ثم خرج في جيوش كثيرة، فلقي جموع السودان وكانوا في زهاء ألف
ألف فهزموهم، وقتلوا أكثرهم أبرح قتل، وأسر منهم خلقاً كثيراً، وتبعهم حتى وصل إلى
أرض الفيلة من بلاد الزنج فأخذ منها عدة من النمور والوحش وذللها وساقها معه إلى

مصر. وعمل على حدود بلده منارات وزبر عليها مسيره وظفره والوقت الذي سار فيه.
ولما وصل إلى مصر اعتل ورأى رؤيا تدل على موته، فعمل لنفسه ناووساً ونقل إليه شيئاً
كثيراً من أصنام الكواكب والذهب والجوهر والصنعة والتماثيل وهلك؛ فحمل إليه وزبر
عليه اسمه وتاريخ الوقت الذي هلك فيه، وجعل عليه طلسماً تمنع منه.
وعهد إلى ابنه ماليق بن تدارس؛ فملك بعد أبيه. وكان غلاماً كريماً حسن الوجه، مجرباً،
مخالفاً لأبيه وأهل بلده في عبادة الكواكب والبقر.
ويقال: إنه كان موحداً على دين أجداداً قبطيم ومصريم، وكانت القبط تذمه لذلك. وكان
سبب إيمانه فيما حكي أنه رأى في منامه أن رجلين لهما أجنحة أتياه فاختطفاه وحملاه إلى
الفلك، فأوقفاه بين يدي شيخ اسود أبيض الرأس واللحية، فقال: هل عرفتني؟ فدخلته
فزعة الحداثة، وكانت سنة نيفاً وثلاثين سنة، فقال له: ما أعرفك! فقال: أنا قرويس، يعني
زحل، فقال: قد عرفتك، أنت إلهي، فقال: إنك وإن كنت تدعوني إلهاً فإني مربوب مثلك،
وإلهي الذي خلق السموات والأرض وخلقني وخلقك، فقال: وأين هو؟ فقال: هو في العلو
لا تراه العيون، ولا تلحقه الأوهام، وهو الذي جعلنا سبباً لتدبير العالم الأسفل. قال له
ماليق الملك: فكيف أعمل؟ قال: تضمر في نفسك ربوبيته علينا. وتخلص في وحدانيته
وتعرف بأزليته. ثم إنه أمر الرجلين فأنزلاه؛ فانتبه وهو مذعور، فدعا رأس الكهنة فقص
عليه رؤياه فقال: قد نهاك عن عبادة الأوثان فإنها لا تضر ولا تنفع، فقال له: من أعبد؟
قال: الله الذي خلق السموات والكواكب التي فيها والأرض ومن عليها. فكان الملك يحضر
الهيكل فإذا سجد انحرف عن الصنم واضمر السجود لخالق السموات والأرض دون غيره،
ثم أخذ في الغزو والغيبة عن أهل مصر وجال في البلدان.
قال: وقال بعض أهل مصر: إن الله تعالى أيده بملك من الملائكة يعضده ويرشده، وربما أتاه
في نومه أن يأمر الناس باتخاذ كل فأره من الخيل، واتخاذ السلاح وما يصلح للأسفار، وإعداد
الزاد، واتخذ في بحر الغرب مائتي سفينة، وخرج في جيش عظيم في البر والبحر، فلقيه جموع

البربر في جموع لا تحصى فهزمهم واستأصل أكثرهم، وبلغ إلى إفريقية وسار منها، وكان لا
يمر بأمة إلا أبادها إلى أن قوم عدي من ناحية الأندلس يريد الإفرنجة، وكان بها ملك عظيم
يقال له: أرقيوس، فأقام يحاربه شهراً ثم طلب وأهدى له هدايا كثيرة فسار عنه، ودوخ
الأمم المتصلة بالبحر الأخضر وأطاعه أكثرها. ومر بأمة عراة لهم حوافر في أرجلهم،
وقرون صغار، وشعور كشعور الدواب، ولهم أنياب بارزة من أفواههم، فقاتلهم قتالاً شديداً
حتى أثخنهم، فنفروا منه إلى غيران لهم مظلمة عظام.
والقبط تذكر أنه رأى سبعين أعجوبة، وعمل أعلاماً على البحر وزبر عليها اسمه ومسيره،
وخرب مدن البربر حيث كانت، وألجاهم إلى قرون الجبال ورجع؛ فتلقاه أهل مصر
بأصناف اللهو والطيب والرياحين، وفرشت له الطرقات ولقوه بابنه بلهقانس وكان ولد بعد
مسيره فسر به. واتصل خبره بالملوك فهابوه وحملوا إليه الهدايا من كل وجه ومكان.
قال: وبلغه أن قوماً من البربر سحرة لم تخابيل عجيبة وبخورات يدلون بها، وانهم في مدينة
لهم يقال لها: قرميدة، في الغرب من مصر، قد ملكوا عليهم امرأة ساحرة يقال لها: اسطافا،
فاتصل به كثرة أذاهم للناس فغزاهم، فلما قرب منهم ستروا عنه مدينتهم بسحرهم فلم
يرها، وطموا مياههم فلم يعرفها، فهلك أكثر أصحابه عطشاً. فلما ستروا عنه البلد صعد
إلى ناحية الجنوب، ثم رجع على غير الطريق التي سار إليهم فيها، فمر بهيكل كان لهم
يحضرونه في أعيادهم، فهدم بعضه وسقط منه موضع على جماعة ممن تولى هدمه فأهلكه،
فلما رأى ذلك تركهم وانصرف، وخرجوا إلى هيكلهم فبنوا ما سقط منه وحرسوه
بطلسمات محكمة، ونصبوا فوق قبته طلسما من نحاس مذهب، وكان إذا قصده أحد
صياحاً منكراً يرعد منه من سمعه ويبهت فيخرجون إليه ويصطلمون. وكانت ملكتهم
أحذق منهم بالسحر فقالت: إني أعمل الحيلة في إفساد مصر وأضر وآذى أهلها، فعملت
أشياء وأرسلتها مع من ألقاها في النيل، ففاض النيل على مزارعهم وغلاتهم، وكثرت فيه

التماسيح والضفادع، وكثرت العل في الناس، وانبثت فيهم الثعابين والعقارب، فاحضر ماليق
الكهنة والحكماء وقال: أخبروني عن هذه الحوادث التي حدثت في بلادنا ما هي؟ ولم لم
تشرحوها في طالع السنة؟ فاجتمعوا في دار حكمتهم ونظروا حتى علموا أنه من ناحية
الغرب، وأن امرأة عملته وألقته في النيل، فعلم أنه من فعل تلك الساحرة، فقال لهم: اجهدوا
أنفسكم في هلاكها فقد بلغت فيكم مرادها، فاجتمعوا للهيكل الذي فيه صور الكواكب
وأصنامها، وسألوا الملك الحضور معهم فلم يمكنه الخلاف عليهم. فلما أمسى لبس مسحا
وافترش رماداً واستقبل مصلاه وأقبل على الابتهال إلى الله والتضرع وقال: يارب يا الله، أنت
إله الآلهة، وخالق الخلق، ولا يكون شيء إلا بقضائك ، أسألك أن تكفينين أمر هؤلاء القوم،
وغلبه السهر فأغفى في مصلاه، فرأى آتياً يقول له: قدر حم الله تضرعك، وأجاب دعاءك،
وهو مهلك هؤلاء القوم ومدمر عليهم، وصارف عنك الماء المفسد والدواب المضرة. فلما
أصبح الكهنة غدوا عليه وسألوه حضور هيكلهم، فقال لهم: قد كفيتكم أمر عدوكم
وأهلكتهم، وأزلت الماء الفاسد والدواب المضرة عنكم، ولن تروا بعدها شيئاً تكرهونه،
فنظر بعضهم إلى بعض كالمنكرين لقوله وقالوا: قد سررنا بما ذكره الملك، وهم يضمرون
الاستهزاء به والتكذيب له، ومضوا إلى دار الحكمة فقال بعضهم: الرأي ألا تقولوا في هذا
شيئاً فإن كان حقاً وقفتم عليه، وإن كان باطلاً اتسع لكم اللفظ في لومه، وسيتبين لكم
أمره.
فلما كان بعد يومين انكشف ذلك الماء الفاسد، وهلكت تلك الدواب المضرة، فعلموا أن
الذي أخبرهم به حق؛ وأمر قائداً من قواده ورجالاً من الكهنة أن يمضوا حتى يعلموا علم
هؤلاء القوم، فأتوا المدينة فوجدوا حصنها قد سقط وقد هلكوا بأجمعهم واحترقوا
واسودت وجوههم؛ ووجدوا الأصنام منكسة على وجوهها، وأموالهم ظاهرة بين أيديهم،
فطرقوا المدينة فلم يجدوا فيها غير رجل واحد كان مخالفاً لهم بسبب رؤيا رآها؛ ووجدوا

من الأموال والجواهر وأصنام الذهب والتماثيل ما لا يحصى ولا تعرف له قيمة، ووجدوا
صورة كاهن لهم من زبرجد أخضر على قائمة من حجر الأسباد شم، ووجدوا صورة
روحاني من ذهب، ورأسه من جوهر أحمر، وله جناحان من در، وفي يده مصحف فيه
كثير من علومهم في دفتين مرصعتين بجوهر ملون؛ ووجدوا مطهرة من ياقوت أزرق على
قاعدة من زجاج أخضر مسبوك، وفيها فضلة من الماء الدافع لأسقامهم، وفرساً من فضة
من عزم عليه بعزائمه ودخنه بدخنة وركبه طار به فيما يزعمون، وغير ذلك من العجائب
والأصنام؛ فحملوا من ذلك ما قدروا عليه من الأموال والجواهر، وسأل الملك ذلك الرجل:
ما أعجب ما رأيت من أعمالهم؟ فقال: نعم أخبرك أيها الملك؛ إنه قصدهم بعض ملوك
البربر، وكان جباراً من أهل بيت سحر، فجاء بالجموع الكثيرة وتخابيل هائلة، فأغلق أهل
مدينتنا حصنهم ولجأوا إلى أصنامهم يخضعون لها ويتضرعون إليها، وكان لهم كاهن عظيم
الشأن، فسار إليه رؤساؤهم وشكوا إليه ما دهمهم من عدوهم، فأتى إلى بركة عظيمة
بعيدة القعر كانوا يشربون منها، فجلس على حافتها وأحاط رؤساء الكهنة بها وزمزم على
ماء البركة، فلم يزل كذلك حتى فار الماء وفاض، وخرجت من وسطه نار تتأجج من
وسطها وجه كدارة الشمس وعلى صورتها وضوئها، فخر الجماعة وسجدوا لذلك الوجه،
وتجللهم نور؛ وجعل يعظم حتى ملأ البركة، وصعد حتى خرق سقف القبة، ثم ارتفع إلى
رأسها وسمعنه يقول: قد كفيتكم شر عدوكم، وأمرهم أن يأخذوا دوابهم ففعلوا ذلك،
وهلك الملك الذي قصدهم وجميع من كان معه، وانصرفوا؛ فأقبلوا يأكلون ويشربون، فقلت
لبعض الكهنة: لقد رأيت عجباً من ذلك الوجه فما هو؟ فقال: تلك الشمس تبدت لنا في
صورتها وأهلكت عدونا، صاحت بهم صيحة أحرقهم فأصبحوا خامدين.
قال: وكان هذا الرجل عاقلاً فاتخذه ماليق وزيراً. ولم يزل ماليق على التوحيد، وهو مع
ذلك يساير أهل البلد خوفاً من اضطراب ملكه، وأمر أن يعمل له ناووس، فكان يقصده

ويتعبد فيه، وأمر ألا يدفن معه ذهب ولا جوهر، فلم يدفن معه شيء سوى الطيب
وصحيفة مكتوبة بخطه فيها: هذا ناووس ملك مصر ماليق، مات مؤمناً بالله العظيم لا
يعبد معه غيره، بريئاً من الأصنام وعبادتها، مؤمناً بالبعث والحساب والمجازاة على
الأعمال، عاش كذا وكذا سنة، ملك فيها كذا وكذا، فمن أحب النجاة من عذاب الآخرة
فليدن بما دان به. وأوصى ألا يدفن معه في ناووسه أحد من أهله، وكان قد كنزل كنوزاً
عظيمة وزبر عليها أن تخرجها أمة النبي المبعوث في آخر الزمان.
واستخلف ابنه حرما بن ماليق. قال: وكان ليناً سهل الخلق، لم يمت أبوه حتى شرح له
التوحيد، وأمره أن يدين به، ونهاه عن عبادة الأصنام؛ وكان معه على ذلك في حياته، ثم
رجع عنه بعد وفاته إلى دينهم. وكان سبب رجوعه إلى عبادة الأصنام أن أمه كانت من
بنات كبار الكهان، فنقلته بعد موت أبيه إلى دينها وغلبته على رأيه، وأمرت بتجديد
الهياكل وتشددت في عبادة الأصنام. وتزوج حرماً امرأة من بنى عمه فأحبها حباً شديداً
وهام بها، فأفسدته على جميع نسائه، فاشتد ذلك على أمه، وكانت له قهرمانة من أهل
سيوط ساحرة لا تطاق، وكانت تميل إلى هذه المرأة لأنها كانت تعشق أخاها؛ فزادت في
سحرها لتلك المرأة فأوحشت ما بين الملك وأمه حتى رفضها واستخف بأمرها، وزاد
الأمر حتى حلف ألا يجاورها، وأنه يغزو وينصرف فلا يرجع إلى مصر أو يتصل به موتها،
ففعل ذلك وغزا بلد الهند وأرض السودان.
وكان سبب خروجه إلى الهند أن ملكاً من ملوكها يقال له مسور خرج في عدد كثير
وسايرته مراكبه في البحر ففتح بلدانا وجزائر، وأكثر القتل والسبي؛ وذكرت له مصر فقصدها
واعتل فرجع من طريقه، فأمر حرما الملك بعمل مائة سفينة على شكل سفن الهند، وتجهز
وركب وحمل معه ووجوه أصحابه وقواده، واستخلف ابنه كلكن على مصر وكان صبياً،
وجعل معه وزيراً يقال له لاون، وكاهناً يقال له ويسموس، وخرج فمر على ساحل اليمن

وعاث في مدائنه. وكان لا يمر بمدينة إلا أقام صنماً وزبر عليه اسمه ومسيره ووقته، وبلغ
سرنديب فأوقع بأهلها، وغنم منها مالاً وجوهراً كثيراً، وحمل معه حكيماً لهم، وبلغ جزيرة
بين الهند والصين بها قوم سمر طوال يجرون شعورهم، ورأى لهم الدواب والطيور وشجر
الطيب والنارجيل والفواكه التي لا تكون إلا عندهم، فأذعنوا له بالطاعة وحملوا إليه أموالاً
وهدايا فقبلها وسار عنهم. وأقبل يتنقل في تلك الجزائر عدة سنين؛ فقيل: إنه أقام في سفره
سبع عشرة سنة، ورجع إلى مصر بالظفر والغنيمة، ووجد أمه قد هلكت، ووجد ابنه
على الملك كما استخلفه؛ فسر بذلك وهابه من حوله من الملوك. وبنى هياكل وأقام فيها
أصنام الكواكب؛ لأنها - فيما زعم - هي التي أيدته في سفره حتى ظفر بما ظفر به وغنم
ما غنمه. وقد كان حمل معه من الهند حكيماً وطبيباً، وكان معهما من كتبهم وحكمهم
ما أظهرا به في مصر عجائب مشهورة، وحمل معه صنماً من أصنام الهند من الذهب
مقرطاً بالجوهر، فنصبه على بعض الهياكل التي عملها. وكان حكيم الهند يقوم به ويخدمه
ويقرب له. وكان يخبرهم بما يريدون منه.
قال: وأقام حرماً بعد منصرفه من الهند ثم غزا نواحي الشام فأطاعه أهلها وهادوه ورجع
إلى مصر. ثم غزا نواحي النوبة والسودان فصالحوه على خراج يحملونه له، ورفع أقدار
الكهنة وزاد في تعظيم دينهم؛ فصوروه في هياكلهم ومضاجعهم، وملكهم خمساً وسبعين
سنة. وعمل لنفسه في صحراء الغرب ناووساً، وعمل برقودة مصانع وعجائب، وأقام بها
إلى أن مات وابنه كلكن بمنف، فضمد جسده بالموميا والكافور والمر، وجعل في تابوت من
ذهب، وجعل معه مال كثير، وجوهر نفيس، وسلاح عجيب، وتماثيل وصنعة وعقاقير،
ومصحف الحكمة. وصور في جانب الناووس صوراً وزبر عليها ذكر السفن التي سار
فيها، والبلدان التي فتحها، وسد باب الناووس وزبر عليه اسمه ومدته وتاريخ الوقت الذي
هلك فيه، وقتل جماعة من نسائه أنفسهن عليه. وكان جميلاً سمح الأخلاق، واغتم عليه
الكهنة لإكرامه لهم، وأهل المملكة لأتباعه لهم.

وملك بعده ابنه كلكن بن حرما، وعقد التاج على رأسه بالإسكندرية بعد موت أبيه وأقام
بها شهراً ورجع إلى منف. وكان أصنامياً على دين أبيه وتبشر به أهل مصر. وكان يحب
الحكمة وإظهار العجائب ويقرب أهلها ويكثر جوائزهم. ولم يزل يعمل الكيمياء في مدة
ملكه؛ فخزن أموالاً عظيمة بصحارى الغرب. وهو أول من اظهر علم الكيمياء بمصر وكان
مكتوماً. وكان الملوك قبله أمروا بترك صنعتها لئلا تجتمع ملوك الأمم على غزوهم، فعملها
كلكن وملا دور الحكمة منها حتى لم يكن الذهب بمصر أكثر منه في وقته ولا الخراج؛ لأنه
كان في وقته - فيما حكاه القبط - مائة ألف ألف وبضعة عشر ألف ألف مثقال. وقال:
وكان المثقال الواحد من الصنعة يطرح على القناطير الكثيرة فيصبغها، فاستغنوا عن إثارة
المعادن لقلة حاجتهم إليها. وعمل من الحجارة المسبوكة الملونة الصم التي تشف شيئاً كثيراً
لم يعمل مثله أحد ممن تقدمه. وعمل من الأدرك الملون والفيروزج تخرج عن العقول، حتى
يسمى حكيم الملوك. وغلب جميع الكهنة في علومهم، وكان يخبرهم بما يغيب عنهم، فهابوه
واحتاجوا إلى علمه. وكان نمرود بن كنعان الذي أهلكه الله تعالى على يد إبراهيم عليه
السلام في وقته، فيقال: إنه لما اتصل بنمرود خبر حكمته استزاره فوجه إليه أن يلقاه منفرداً
من أهله وحشمه بموضع كذا، ففعل النمرود ذلك وسار إلى الموضع الذي ذكره، وأقبل
كلكن على أربعة أفراس تحمله ذوات أجنحة، وقد أحاط به نور كالنار، وحوله صور
هائلة قد خيل بها، وهو متوشح بثعبان محتزماً ببعضه، والثعبان فاغر فاه، ومعه قضيب
آس أخضر كلما حرك الثعبان رأسه ضربه بالقضيب. فلما رآه النمرود هاله أمره
وخاطبه؛ فاعترف له بجليل الملك والحكمة، وسأله أن يكون ظهيراً له.
وتقول القبط: إن كلكن الملك كان يرتفع ويجلس على الهرم الغربي في قبة تلوح على رأسه.
وكان أهل البلد إذا دهمهم أمر اجتمعوا حول الهرم. ويقولون: إنه ربما أقام على راس الهرم
أياماً لا يأكل ولا يشرب، ثم استتر عنهم مدة حتى توهموا أنه هلك. وكان يجول في الأرض

وحده حتى طمعت الملوك التي حوله في ملكه؛ فقصده ملك من ملوك الغرب يقال له سادوم
في جيش عظيم، واقبل من ناحية المغرب من نحو وادي هبيب ليكبس البلد، فأقبل حتى
وافاهم، ثم جللهم بشيء من سحره كالغمام شديد الحرارة، فأقاموا تحته أياماً لا يدرون أين
يتوجهون، فطار إلى مصر فاستأنس الناس لمقدمه، فعرفهم ما جرى وأمرهم بالخروج إليهم
ليعرفوا خبرهم، فوجدوهم ودوابهم أمواتاً فعجبوا لذلك، وهابه الكهنة هيبة لم يهابوها
أحداً قبله وصوروه في جميع الهياكل، وملكهم زماناً.
وبنى في آخر عمره هيكلاً لزحل من صوان اسود في ناحية الغرب، وجعل له عبداً،
وجعل في وسطه ناووساً، وحمل إليه ما أراد من ذهب وجوهر، وحكم وعقاقير، وعرفهم
بموته، وجعل على باب الناووس طلسمات تمنع منه، وغاب عنهم فلم يقفوا على موته.
وكان قد أوصى إلى ابنه ماليا بن كلكن فملك بعد أبيه. وكان شرهاً كثير الأكل
والشرب، منفرداً بالرفاهة، غير ناظر في شيء من الحكمة، وجعل أمر البلد إلى وزير له.
وكان معجباً بالنساء؛ وكان له ثمانون الرماة، ثم اتخذ امرأة من بنات الملوك التي بمنف
وكانت عاقلة سديدة الرأي، وكان بها معجباً فحمته النساء.
وكان له بنون وبنات، وكان
أكبر بنيه يقال له: طوطيس، فكان يستجهل أباه فأعمل الحيلة في قتله، وإنما حملته على ذلك
أمه وجماعة نسئه وبعض وزراء أبيه؛ فهجم عليه وزرائه وهو سكران وتلك المرأة عنده
فقتله وقتل المرأة وصلبها.
وملك بعده ابنه طوطيس بن ماليا وجلس على سرير الملك.
وكان جباراً جريئاً شديد
البأس مهيباً؛ فدخل عليه الأشراف وهنئوه ودعوا له، وأمرهم بالإقبال على مصالحهم وما
يعينهم، ووعدهم الإحسان.
والقبط تزعم أنه أول الفراعنة بمصر، وهو فرعون إبراهيم الخليل عليه السلام. ويقولون إن
الفراعنة سبعة هو أولهم. قال: ثم تذاكر الناس ما فعله بأبيه وأنكروه واستقبحوا صلبه
المرأة فأنزلها ودفنها، واستخف بالكهنة والهياكل.
ولنذكر خبره مع إبراهيم الخليل عليه السلام في أمر سارة، ونورد من ذلك ما أورده أهل

الأثر وما ورد في الحديث الصحيح النبوي من هذه القصة. قال إبراهيم بن القاسم الكاتب
في سياقه أخباره: لما فارق إبراهيم عليه السلام قومه والنمرود بن كنعان ونزل الشام ثم
خرج إلى مصر ومعه سارة امرأته وخلف ابن أخيه لوطا بالشام وسار إلى مصر، وكانت
سارة أحسن نساء العالمين في وقتها، ويقال إن يوسف الصديق ورث جزءاً من حسنها لأنها
جدة أبيه. قال: فلما سار إبراهيم إلى مصر وأتى مصر وأتى الحرس المقيمون على أبواب
المدينة فرأوا سارة وعجبوا من حسنها ورفعوا خبرها إلى طوطيس. وقد روينا في ذلك
حديثنا بسندنا الذي قدمناه إلى أبي عبد الله البخاري رحمه الله قال: حدثنا أبو اليمان
قال: أخبرنا شعيب قال: حدثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:
قال النبي صلى الله عليه وسلم: هاجر إبراهيم عليه السلام بسارة فدخل بها قرية فيها
ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة فقيل: دخل إبراهيم بامرأة هي من أحسن النساء؛
فأرسل إليه أن يا إبراهيم من هذه التي معك؟ قال: أختي. ثم رجع إليها فقال: لا تكذبي
حديثي فإني أخبرتهم أنك أختي؛ والله إن على الأرض من مؤمن غيري وغيرك؛ فأرسل بها
إليه فقام فقامت توضأ وتصلي، فقالت: اللهم إن كنت آمنت بك وبرسولك وأحصنت
فرجى إلا على زوجي فلا تسلط على هذا الكافر قفط حتى ركض برجله.
قال الأعرج: قال أبو سلمة بن عبد الرحمن: إنأبا هريرة قال: قالت: اللهم إن يمت يقال هي
قتلته فأرسل، ثم قام إليها فقامت توضأ وتصلي وتقول: اللهم إن كنت آمنت بك وبرسولك
وأحصنت فرجى إلا زوجي فلا تسلط علي هذا الكافر، فغط حتى ركض برجله. قال
عبد الرحمن: قال أبو سلمة: قال أبو هريرة: فقالت: اللهم إن يمت فيقال هي قتلته فأرسل في
الثانية أو في الثالثة. فقال: والله ما أرسلتم إلي إلا شيطاناً! إرجعوها إلى إبراهيم
وأعطوها آجر، فرجعت إلى إبراهيم عليه السلام فقالت: أشعرت أن الله كبت الكافر
واخدم وليدة. هذا ما رويناه من صحيح البخاري. وقد ورد في أخبار طوطيس زيادات

نذكرها؛ وهو أن الملك لما أطلقته في المرة الثالثة قال لها: إن لك رباً عظيماً لا يضيعك؛
وأعظم قدرها وسألها عن إبراهيم فقالت: هو قريبي وزوجي.
قال: فإنه ذكر أنك أخته.
قالت: صدق أنا أخته في الدين، وكل من كان على ديننا فهو أخ لنا. قال: نعم الدين
دينكم! ووجها إلى ابنته حوريا، وكانت من العقل والكمال بمكان كبير، فألقى الله تعالى
محبة سارة في قلبها فعظمتها حوريا أضافتها أحسن ضيافة، ووهبت لها جوهراً ومالاً،
فأتت به إبراهيم عليه السلام فقال لها: رديه فلا حاجة لنا به فردته؛ فذكرت حوريا ذلك
لأبيه فعجب منها وقال: هؤلاء من قوم كرام ومن أهل بيت طهارة فتحيلي في برها بكل
حيلة، فوهبت لها جارية قبطية من أحسن الجواري يقال لها آجر، وهي هاجر أم إسماعيل
عليه السلام، وعملت لها سلالاً من الحلوى وقالت: يكون معك هذا للزاد. وجعلت تحت
الحلوى جوهراً نفيساً وحلياً مصبوغاً مكللاً. فقالت: أشاور صاحبي؛ فأتت إبراهيم عليه
السلام فشاورته فقال: إذا كان مأمولاً فخذيه، فقبلته منها وخرج إبراهيم عليه السلام. فلما
أمعنوا في السير أخرجت سارة بعض تلك السلال فأصابت الجوهر والحلي، فعرفت
إبراهيم ذلك، فباع بعضه وحفر من ثمنه البئر التي جعلها للسبيل وفرق بعضه في وجوه البر،
وكان يضيف كل من مر به.
قال: وعاش طوطيس إلى أن وجهت إليه هاجر من مكة تعرفه أنها بمكان جدب
وتستغيثه، فأمر بحفر نهر في شرقي مصر يمر بسفح الجبل حتى ينتهي إلى مرفأ السفن في
البحر المالح، فكان يحمل إليهما الحنطة وأصناف الغلات فتصل إلى جدة وتحمل من هناك
على المطايا، فأحيا بلد الحجاز مدة. ويقال: إن كل ما حليت به الكعبة في ذلك العصر هو
مما أهداه ملك مصر. ويقال: إنه لكثرة ما كان طوطيس يحمله إلى الحجاز سمته العرب
جرهم الصادق وكذلك يسميه كثير من أهل الأثر. وقد تقدم في قصة إبراهيم الخليل عليه
السلام أن اسم الملك صادوق، ويقال: إنه سأل إبراهيم عليه السلام أن يبارك له في بلده،

فدعا بالبركة لمصر، وعرفه إبراهيم أن ولده سيملكها ويصير أمرها إليه.
قال: وطوطيس أول الفراعنة بمصر؛ وذلك أنه أكثر القتل حتى قتل قراباته وأهل بيته وبني
عمه وخدمه ونسائه وأكثر الكهنة والحكماء. وكان حريصاً على الولد فلم يرزقه الله ولداً
غير ابنته حوريا، وكانت عاقلة حكيمة تأخذ على يده كثيراً وتمنعه من سفك الدماء،
فأبغضته الخلق: الخاص والعام. فلما رأت أمره يزيد خافت على زوال ملكهم فسمته
فهلك. وكان ملكه سبعين سنة. ولما مات اختلفوا فيمن يملكوه عليهم بعده فقالوا: لا
يملك علينا أحد من أهل بتيه، وأرادوا تمليك بعض ولد أتريب؛ فقام بعض الوزراء ودعا
إلى تمليك ابنته لصنيعها فيه، ولما كانت تنكر عليه، وتبعه أكثر القواد والوجوه فتم لها
الأمر.
وملكت حوريا ابنة طوطيس وجلست على سرير الملك، ووعدت الناس بالإحسان،
وأخذت في جمع الأموال وحفظها، فاجتمع لها من الأموال والجوهر والحلي والطيب ما لم
يجتمع لملك، وقدمت الكهنة وأهل الحكمة ورؤساء السحرة ورفعت أقدارهم، وأمرت
بتجديد الهياكل وتعظيمها. وسار من لم يرضها إلى مدينة أتريب وملكوا عليهم رجلاً من
ولد أتريب يقال له أنداخس، فعقد على رأسه تاجاً وانضم إليه جماعة من بني عمه وأهل
بيته، فانفذت إليه جيشاً فحاربه؛ فلما رأى أنه لا طاقة له بها دعاها إلى الصلح وخطبها
إلى نفسه وقال لها: إن الملك لا يقوم بالنساء، وخوفها أن يزول ملكهم بمكانها؛ فعملت
صنيعاً وأمرت أن يحضره الناس على منازلهم، فحضروا وأكلوا وشربوا وبذلت لهم الأموال
وعرفتهم ما جرى من خطبتها، فبعض صوب الرأي، وبعض امتنع وقالوا: لا يتولى علينا
غيرها لمعرفتنا بعقلها وحكمتها، وهي وارثة الملك؛ ووثبوا على نفر ممن خالفها فقتلوهم،
وخرجوا في جيش كثيف فلقوا جيش الخارج بأتريب فهزموه وقتلوا كثيراً ن أصحابه،
فهرب إلى أرض الشام وبها الكنعانيون من ولد عمليق،
فاستغاث بملكهم وضمن له أخذ

مصر وفتحها، فجهزه بجيش عظيم إلى مصر، فاجتمع الأنس كلهم إلى حوريا، ففتحت
خزائن أبيها وفرقت ما فيها على الناس فأحبوها، وقوت السحرة بالمال ووعدتهم
الإحسان.
فلما تقدم أنداخس بالجيوش أمرت السحرة أن يعملوا له عملاً، وكان على جيوشهم قائد
من عظماء قواد ملكهم يقال له جيرون؛ فلما نزلوا أرض مصر بعثت ظئراً لها من عقلاء
الناس إلى جيرون سراً من أنداخس تعرفه رغبتها في تزويجه، لأنها لا تختار أحداً من أهل
بيتها، وأنه إن قتل أنداخس تزوجت به وسلمت إليه ملك مصر ومنعت صاحبه. فرغب
في ذلك وسم أنداخس بسم أنفذته إليه فقتله؛ فوجهت إليه أنه لا يجوز أ أتزوجك حتى
تظهر في بلدي قوتك حكمتك وتبني لي مدينة عجيبة - وكان افتخارهم حينئذ بالبنيان
وإقامة الأعلام وعمل العجائب - وقالت له: انتقل من موضعك هذا إلى غربي بلدي فثم
آثار لنا كثيرة فاقتف تلك الأعمال الغريبة وابن عليها. ففعل ذلك وبنى لها مدينة بصحراء
الغرب يقال لها تندومة وجر إليها من النيل نهراً وغرس عليها غروساً كثيرة، وأقام بها مناراً
عالياً، وعمل فوقه منظراً وصفحه بالذهب والفضة والصفر والرخام الملون والزجاج
المسبوك وأبدع في عمله. وكانت تمده بالأموال وتكاتب صاحبه عنه وتهاديه وهو لا يعلم.
فلما فرغ من بناء المدينة قالت له: إن لنا مدينة حصينة كانت لأوائلنا وقد خربت منها
أمكنه وتشعث حصنها فامض إليها واعمل في إصلاحها إلى أن انتقل إلى هذه المدينة التي
بنيتها وأنقل إليها جميع ما يحتاج إليه، فإذا فرغت من إصلاح تلك المدينة فأنفذ إلي جيشاً
حتى أصير إليك وانظر ما صنعته، وأبعد عن مدينتي وأهل بيتي فإني أكره أن آتيك بالقرب
منهم. فمضى وجد في عمل الإسكندرية الثالثة.
قال: وأهل التاريخ يسوقون شيئاً من أخبار أنداخس ويذكرون أنه الذي قصد الوليد بن
دومع العمليقي، وهو ثاني الفراعنة. وكان سبب قصده له أنه كانت به علة فوجه إلى
المواضع ليحمل إليه من مياهها حتى يعرف ما يلائم جسده، فوجه علاماً له فأتى مملكة

مصر ووقف على كثرة خيراتها وحمل إلى صاحبه من مائها وألطافا وعاد إليه، فعرفه حال
مصر فقصدها في جيش كثيف حتى حط عليها، وكاتب المملكة وخطب إليها نفسها،
فوجهت إليه من أشرف على حاله فوجد قوماً عظاماً لا يقوم بحربهم، فأجابته إلى الترويج
وألطفته وشرطت عليه أن يبنى لها مدينة يظهر فيها أيده وقوته ويجعلها مهراً لها، فأجابها
ودخل مصر وانتهى إلى ناحية الغرب ليبني لها المدينة ناحية الإسكندرية، فأمرت أن يتلقى
بأصناف الرياحين والفواكه وتخلق وجوه الخيل؛ فمضى إلى الإسكندرية - وقد خربت بعد
خروج العادية منها - فنقل منها ما كان من حجارتها ومعالمها وعمدها ووضع أساس
مدينة عظيمة وبعث إليها مائة ألف فاعل، فأقام في بنائها مدة وأنفق جميع ما كان معه من
المال، وكان كلما بنى بناء خرجت من البحر دواب تقلعه فإذا اصبح لم يجد منه شيئاً؛
فاهتم لذلك.
وكانت حوريا قد أنفذت إليه ألف رأس من المعز اللبون يستعمل ألبانها في مطبخه، وكانت
مع راع يثق به، وكان ذلك الراعي يطوف بها ويرعاها هناك، فكان إذا أراد أن ينصرف
عند المساء خرجت إليه من البحر جارية حسناء فتتوق نفسه إليها، فإذا كلمها شرطت
عليه أن تصارعه فإن صرعها كانت له وإن صرعته أخذت رأسين من المعز؛ فكانت على
طول الأيام تصرعه وتأخذ من الغنم حتى أخذت أكثر من نصفها وتغير باقيها لشغله بحب
تلك الصورة عن رعيها، وتغير هو أيضاً في جسمه ونحل، فمر به صاحبه وسأله عن حاله
وحال الغنم فخبره الخبر خوف سطوته فقال: أي وقت تخرج؟ قال: قرب المساء. فلبس
ثياب الراعي وتولى رعية الغنم يومه إلى المساء، وخرجت الجارية فشرطت عليه كما
شرطت على الراعي، فأجابها وصارعها فصرعها وقبض عليها وشدها فقالت له: إن كان
لا بد من أخذي فسلمني لصاحبي الأول فإنه ألطف بي، وقد عذبته مرة بعد مرة، فردها
إليه وقال له: سلها عن هذا البنيان الذي بنيته ويزول من ليلته من يفعل به ذلك؛ وهل في

بنائه من حيلة؟ فسألها الراعي عن ذلك فقالت: إن دواب البحر التي تنزع بنيانكم. قال:
فهل فيها من حيلة؟ قالت: نعم. قال: وما هي؟ قالت: تعمل توابيت من زجاج كثيف
بأغطية وتجعل فيها قوماً يحسنون الصناعة في التصوير، وتجعل معهم صحفاً وأنقاشاً وزاداً
يكفيهم أياماً، وتجعل التوابيت في المراكب بعد أن تشدها بالحبال، فإذا توسطوا الماء صور
المصورون جميع ما مر بهم وترفع تلك التوابيت من الماء؛ فإذا وقفتم على تلك الصور
فاعملوا لها أشباهاً من الصفر أو من الحجارة أو من الرصاص وانصبوها أمام البنيان الذي
تبنونه من جانب البحر، فإن تلك الدواب إذا خرجت ورأت صورها هربت ولم تعد.
فعرفه الراعي ذلك ففعله. وتم بناء المدينة.
وقال قوم من أهل التاريخ: إن صاحب البناء والغنم جيرون المؤتفكي وكان قصدهم قبل
الوليد، وإنما أتاهم بعد حوريا وقهرهم وملك مصر. وذكروا أن الأموال اليت كانت مع
جيرون نفذت كلها في تلك المدة ولم يتم البناء، فأمر الراعي فسأل تلك الجارية فقالت: إن
المدينة التي خربت ملعباً مستديراً حوله سبعة على رءوسها تماثيل من صفر قيام، فقرب
لكل تمثال منها ثوراً سميناً ولطخ العمود الذي عليه التمثال من دم الثور، وبخره بشعر من
ذنبه وشيء من نحاته قرونه وأظلافه، وقل له: هذا قربانك فأطلق لي ما عندك، ثم قس من
كل عمود إلى الجهة اليت يتوجه إليها وجه التمثال مائة ذراع واحفر، وليكن ذلك في وقت
امتلاء القمر واستقامة زحل؛ فإنك تنتهي بعد خمسين ذراعاً إلى بلاطة عظيمة فلطخها
بمرارة الثور وأقلعها فإنك تنزل منها إلى سرب طوله خمسون ذراعاً في آخره خزانة مقفلة
ومفتاح القفل تحت عتبة الباب فخذه ولطخ الباب ببقية مرارة الثور ودمه وبخره بنحاتة
قرونه وأظلافه وشعره، وادخل الباب بعد أن تخرج الرياح التي فيه، فإنه يستقبلك صنم في
عنقه لوح من صفر معلق مكتوب فيه جميع ما في الخزانة من مال وجوهر وتمثال وأعجوبة،
فخذ منه ما شئت ولاتتعرض لميت تجده ولا لما عليه؛ وكذلك فافعل بكل عمود وتمثاله؛

فإنك تجد في تلك الخزائن نواويس سبعة من الملوك وكنوزهم.
فلما سمع ذلك سر به وفعله
فوجد ما لا يدرك وصفه، ووجد من العجائب شيئاً كثيراً؛ فتم بناء المدينة. واتصل ذلك
بحوريا فساءها؛ وإنما كانت أرادت إتعابه وهلاكه بالحيلة عليه.
فيقال: إنه فيما وجد من
العجائب درج ذهب مختوم بطين ذهب فيه مكحلة زبرجد فيها ذرور أخضر ومعها عرق
جوهر أحمر، من اكتحل من ذلك الذرور وكان أشيب عاد شاباً وأسود شعره وأضاء
بصره حتى يدرك النظر إلى أصناف الروحانيين، ووجد تمثال من الذهب إذا ظهر غيمت
السماء وأمطرت، وتمثال غراب من حجر إذا سئل عن شيء صوت وأجاب عنه. ويقال:
إنه كان في كل خزانة عشر أعجوبات.
قال: فلما فرغ جيرون من بناء المدينة وجه إليها يعلمها ذلك ويحثها على القدوم.
فحملت إليه فرشاً فاخرة وقالت: ابسطها في المجلس الذي تجلس فيه، وأقسم جيشك
أثلاثاً وأنفذ إلى ثلثه، حتى إذا بلغت ثلث الطريق فأنفذ إلي الثلث الآخر، فإذا جزت نصف
الطريق فأنفذ إلي الثلث الباقي، ويكونون من ورائي لئلا يراني أحد إذا دخلت عليك، ولا
يكن عندك إلا صبية تثق بهم يخدمونك فإني أوافيك في جوار تكفيك الخدمة ولا
أحتشمهن؛ ففعل. وأقامت تحمل إليه الجهاز والأموال حتى علم بمسيرها ووجه إليها ثلث
جيشه فعملت لهم الأطعمة والأشربة المسمومة، فلما أتوها استنزلهم جواريها وحشمها
أقبلوا عليهم بتلك الأطعمة والأشربة والطيب والكساء واللهو فلم يصبح منهم أحد يعيش،
ولقيها الثلث الثاني والثالث بعده ففعلت بهم كذلك، وهي توجه إليه أنها أنفذت جيشه إلى
قصرها وملكتها يحفظمونه. إلى أن دخلت عليه هي وظئرها وجوار كن معها، فنفخت
ظئرها في وجهه نفخة بهت إليها رشت عليه ماء كان معها فارتعدت مفاصله فقال: من
طن أنه يغلب النساء فقد كذبنه نفسه وغلبته الناس، ثم فصدت عروقه وأسالت دمه
وقالت: دماء الملوك شفاء.
وأخذت رأسه فوجهت به إلى قصرها فنصب عليه وحملت تلك الأموال إلى منف.

وبنت مناراً بالإسكندرية وزبرت عليه اسمها واسمه وما فعلت به وتاريخ الوقت.
قال: ولما اتصل خبرها بالملوك الذين يتاخمون بلدها، هابوها وأذعنوا لها وهادوها.
وعملت بمصر عجائب كثيرة، وأقطعت أهل بيتها وقوادها وحشمها أقطاعاً كثيرة، وأمرت
أن يبني على حد مصر من ناحية النوبة حصن وقنطرة يجري ماء النيل من تحتها، واعتلت
حوريا فاجتمع إليها أهل مملكتها وسألوها أن تقدم عليهم ملكاً، ولم يكن في ذلك الوقت من
ولد أبيها وأهل بيته من يصلح لذلك، فقلدت عمتها دليفة بنت ملموم، وكانت عذراء من
عقلاء النساء وكبراهن، فعهدت إليها وأخذت لها المواثيق على أهل مصر ألا يسلموها وأن
يتبعوا أمرها، وسلمت إليها مفاتيح خزائنها، وأطلعتها على مواضع كنوز آبائها وكنوزها،
وأمرت أن يضمد جسدها بالكافور وتحمل إلى المدينة التي بنيت لها في صحراء الغرب،
وقد كانت عملت لها فيها ناووساً وعملت فيه عجائب ونقلت إليه أصنام الكواكب، وزينته
بأحسن الزينة ونصبت له قومة، وأسكنت تلك المدينة جماعة من الكهنة وأصحاب العلوم
والمهن وبعض الجيش، وعمرت تلك المدينة فلم تزل على حالها من العمارة إلى أن خربها
بختنصر وحمل بعض كنوزها.
وجلست دليفة بنت مأمون على سرير الملك بعد وفاة حوريا، واجتمعت الكلمة عليها
وأحسنت إلى الناس ووضعت عنهم خراج سنة. وقام عليها أيمين يطلب بثأر خاله
أنداخس، واستنصر بملك العمالقة فوجه معه قائداً من قواده في جيش كثيف، فأخرجت
إليه دليفة بعض قوادها فالتقوا بالعريش، وجل سحرة الفريقين يظهرون التخاييل الهائلة
والعجائب العظيمة والأصوات التي تقرع الأسماع وتؤلمها، فأقاموا مدة يتكافئون الحرب
ويتراجعون فهلك بينهم خلق كثير، ثم انهزم أصحاب دليفة إلى منف وسار أصحاب أيمين
في آثارهم، ومضت دليفة في جمع من جيوشها إلى ناحية الصعيد فنزلت الأشمونين وأنفذت
من قدرت عليه من الجيوش ووقعت الحرب بينهم بناحية الفيوم وخلى أصحاب دليفة الماء

بينهم وبين عدوهم، واستنجدت دليفة بأهل مدائن الصعيد فحاربوا أصحاب أيمين حتى
أزالوهم عن منف، وكانوا قد ضفروا بها وعاثوا فيها، فهزموهم حتى ركبوا المراكب
وعدوا إلى ناحية الحوف، وكان معهم ساحر من أهل ناحية قفط فأظهر بسحره ناراً حالت
بينهم وبين أصحاب دليفة، فلما زاد الأمر وأشفق أهل مصر من خروجها عن أيديهم سفر
السفراء بينهم على أن يجعلوا البلد قسمة بينهم فأجاب كل منهما إلى الصلح، ثم غدرت
دليفة بعد ذلك بأيمين وأخرجت الأموال والجوهر وفرقتها في الناس، وكان بعضهم قد لامها
في الصلح، فرجعت إلى الحرب فأقاموا ثلاثة أشهر ثم ظهر أيمين وهزمها إلى ناحية قوص
وسار خلفها وتمكن من المملكة، فلما رأت ذلك سمت نفسها فهلكت.
وملك بعدها أيمين، فتجبر وقتل خلقاً كثيراً ممن كان حار به.
وكان الوليد بن دزمع
العمليقي قد خرج في جيش كثيف يتنقل في البلدان ويقهر ملوكها ليسكن ما يوافقه منها؛
فلما صار بالشام انتهى خبر مصر وعظم قدرها، وأن أمرها قد صار إلى النساء وبادت
ملوكها، فوجه غلاماً له يقال له عون، فسار إلى مصر وفتحها وحوى أموالاً، ومولاه لا يعرف
خبره ولا يشك في هلاكه وهلاك الجيش الذي معه، لما كان يسمع عما بمصر من الطلسمات
والسحر؛ ثم اتصل به خبره فسار إلى مصر فتلقاه عون وعرفه أنه كان عزم على المسير إليه
وإنما أراد تعديل البلد وإصلاحه فقبل قوله ودخل.
وملك مصر الوليد بن دومع العلميقي، واستباح أهلها واخذ أموالها وقتل جماعة من
كهنتها، ثم سنح له أن يخرج فيقف على مصب النيل ويعرف ما بناحيته من الأمم
ويغزوهم، فأقام ثلاث سنين يستعد لخروجه، وأصلح ما يحتاج إليه، واستخلف عوناً على
البلد وخرج في جيش كثيف فلم يمر بأمة إلا أبادها. فيقال: إنه أقام في سفره سنين كثيرة،
وإنه مر على أمم من السودان وجاوزهم، ومر على أرض الذهب وفيها قضبان نابتة؛ ولم
يزل يسير حتى بلغ البطيخة التي ينصب ماء النيل إليها من الأنهار التي تخرج من تحت جبل

القمر؛ ثم سار حتى بلغ هيكل الشمس فدخله. ويقال: إنه خوطب فيه. وسار حتى بلغ
جبل القمر؛ وهو جبل عال. وإنما سمى جبل القمر لأن القمر لا يطلع عليه لخروجه عن
خط الاستواء. ونظر إلى النيل يخرج من تحته. وقد تقدم خير النيل.
قال: ودخل الوليد القصر الذي فيه تماثيل النحاس التي عملها هرمس الأول في وقت
البودسير الأول بن قفطريم. قال: ولما بلغ الوليد جبل القمر رأى جبلاً عالياً فأعمل الحيلة
وصعد عليه ليرى ما خلفه، فأشرف على البحر الأسود الزفتي المنتن، ونظر إلى النيل يجري
عليه كالأنهار الرقاق، أتته من ذلك البحر روائح منتنة هلك كثير من أصحابه من ريحها
فأسرع النزول بعد أن كاد يهلك.
قال: وذكر قوم أنهم لم يروا شمساً ولا قمراً وإنما رأوا نوراً أحمر كنور الشمس عند
مغيبها. وأقام الوليد في غيبته أربعين سنة. وأما عون الذي استخلفه بمصر فإنه فعل في
غيبة الوليد ما نذكره إن شاء الله تعالى.

عون

ومافعله في غيبة الوليد وخبر المدينة التي بناها
قال: ولما مضت من غيبة الوليد بن دومع سبع سنين تجبر غلامه عون بمصر، وادعى انه
الملك، وأنكر أن يكون غلاماً للوليد، وأنه أخوه وقلده الملك بعده، ووثب على الناس
وغلبهم بالسحرة وأسنى جوائزهم ولم يمنعهم محابهم؛ فمالوا إليه ووثقوا أمره، فلم يترك امرأة
من بنات ملوك مصر إلا نكحها، ولا مالاً إلا أخذه وقتل صاحبه. وكان مع ذلك يلزم
الهياكل ويكرم الكهنة، فكانوا يمسكون عنه إشفاقاً منه وخوفاً من السحرة الذين معه؛ إلى
أن رأى في منامه الوليد بن دومع وكأنه يقول له: من أمرك أن تتسمى باسم الملك، وقد
علمت أنه من فعل ذلك استحق القتل، ونكحت بنات الملوك وأخذت الأموال بغير واجب،
ثم أمر بقدور فملئت زيتاً وأحميت على أنه يغمر فيها، فلما غلت أمر بنزع ثيابه فأتى طائر
في صورة عقاب فاختطفه من أيديهم وحلق به في الجو وجعله في هوة على رأس جبل، وانه
سقط من رأس الجبل إلى واد فيه حية، فانتبه مرعوباً طائر العقل. وقد كان في فعله ذلك

وتملكه إذا خطرت بقلبه من ذكر الوليد خطرة كاد عقله يزول، خوفاً منه لما يعلمه من
فظاظته وبطشه وقوته. ولم يتيقن هلاكه وأضمر في نفسه الهرب من مصر بما معه من
الأموال.
قال: ولما رأى الرؤيا لم يشك في حياة الوليد وأنه سيعود، فأطلع بعض السحرة ممن يثق به
على أمره وقال: إني خائف من الويد وقد عزمت على الخروج من مصر فما الوجه
عندكم؟ قالوا: نحن ننجيك منه على أن تقبل منا.
قال: قولوا، قالوا: تعمل عقاباً وتعبده؛ فإن الذي حصنك منه أحد الروحانيين وهو يريد
ذلك منك. قال عون: أشهد لقد قال لي وأنا معه: أعرف لي هذا المقام ولا تنسه. قالوا:
قد بينا لك. فأجابهم إلى ذلك وعمل عقاباً من ذهب وعمل عينيه جوهرتين ووشحه
بأصناف من الجوهر، وعمل له هيكلاً لطيفاً وجعله في صدره وأرخى عليه ستور الحرير،
وأقبل أولئك يبخرونه ويقربون إليه ويسحرون إلى أن نطق لهم، فأقبل عون على عبادته ودعا
الناس إليه فأجابوه.
فلما مضى لذلك مدة أمر العقاب ببناء مدينة يحوله إليها وتكون معقلاً له وحرزاً من كل
أحد. فأمر عون أصحابه أن يخرجوا إلى صحارى الغرب ويطلبوا كل أرض سهلة حسنة
الاستواء، ويكون المدخل إليها بين هجول صعبة وجبال وعرة، ويتوخوا أن تكون قريبة من
ناحية مغيض الماء التي هي اليوم الفيوم. وكانت مغيضاً لماء النيل حتى أصلحها يوسف
عليه السلام على ما نذكره إن شاء الله. وإنما أراد عون بذلك ليجر الماء منها إلى مدينته
التي يبنيها؛ فخرج أصحابه وأقاموا شهراً يطوفون الصحارى حتى وجدوا له بغيته، ولم يبق
فاعل ولا مهندس ولا أحد ممن يبصر البناء ويقطع الصخور وينحتها إلا وجه به عون إليها،
وأنفذ معهم ألف رجل من جيشه وسبعمائة ساحر يعاونونهم بالروحانيين الذين في طاعتهم،
وأنفذ معهم جميع الآلات وأقام يحمل لهم الزاد إلى هناك شهوراً على العجل؛ وطريق العجل
على الفيوم واضحة في صحراء الغرب وخلف الأهرام - وهي التي يقصدها أصحاب
المطالب - مشهورة.

قال: فلما تكامل له ما أراد من ذلك ومن تحت الأحجار خطوا المدينة فرسخين في
فرسخين، وحفروا في الوسط بئراً وجعلوا في تلك البئر تمثال خنزير من نحاس بأخلاط
ونصبوه على قاعدة من نحاس وجعلوا وجهه إلى الشرق، وكان ذلك بطالع زحل واستقامته
وسلامته من المتضادين له في شرفه، وأخذوا خنزيراً فذبحوه له ولطخوا وجهه بدمه وبخروه
بشعره، وأخذوا شيئاً نم عظامه ولحمه ومرارته فجعلوه في جوف ذلك الخنزير والنحاس،
وجعلوا في أذنيه شيئاً من مرارته، وأحرقوا بقية الخنزير، وجعلوا رماده في قلة نحاس بين
يدي الخنزير النحاس، ونقشوا عليه آيات زحل، ثم شقوا في البئر أخدوداً من أربعة وجوه
شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً، ومدوا تلك الأخاديد إلى حيطان المدينة، وعملوا على
أفواهها مسارب تجتلب الرياح إليها، ثم سدوا البئر وعملوا عليها قبة على عمد مربعة،
وجعلوا منها شوارع كل شارع ينتهي إلى باب من أبواب المدينة وفصلوها بالطرقات
والمنازل، وجعلوا حول القبة تماثيل فرسان من نحاس بأيديها حراب ووجوهها مقابلة لتلك
الأبواب، وجعلوا أساس المدينة من حجر أسود وفوقه أحمر وفوقه أصفر وفوقه أخضر،
وفوق الجميع أبيض يشف، مثبتة كلها بالرصاص المصبوب بين الحجارة، وقلوبها أعمدة من
حديد على وضع بناء الأهرام؛ وجعل طول حصنها ستين ذراعاً في عرض عشرين ذراعاً،
ونصب على كل راس باب من أبوابها في أعلا الحصن تمثال عقاب كبير من صفر وأخلاط
ناشر الجناحين أجوف، وعلى كل ركن صورة فارس بيده حربة ووجهه إلى خارج المدينة؛
وساق الماء إلى ناحية الباب الشرقي ينحدر في صبب إلى الباب الغربي ويخرج إلى صهاريج
هناك، وكذلك من الباب الجنوبي إلى الشمالي، وقرب لتلك العقبان عقباناً ذكوراً، واجتذب
الرياح إلى أفواه التماثيل، فكانت الرياح إذا دخلتها سمعت لها أصوات شديدة لا يسمعها
أحد إلا هالته، وصمدها بعفاريت تمنع الداخل إليها إلا أن يكون من أهلها، ونصب العقاب
الذي كان يعبده تحت القبة التي في وسط المدينة على قاعدة لها أربعة أركان في كل ركن

منها وجه شيطان، وجعلها على عمود يديرها، والعقاب يدور إلى كل الجهات الأربع، ويقيم
فيها ربع السنة، يقرب إليه من جهتها.
فلما فرغ من ذلك كله حمل إليها جميع الأموال والجواهر المخزونة بمصر وما وجده في خزائن
الملوك، ومن التماثيل والحكم وتراب الصنعة والعقاقير والسلاح وغير ذلك، وحول إليها كبار
السحرة والكهنة وأصحاب الصنائع والتجار، وقسم المساكن بينهم لا يختلط أهل صنعة
بغيرها، وعمل لها ربضاً يحيط بها، وبنى فيه منازل لأصحاب المهن والزراعة، وعقد على
تلك الأنهار قناطر يمر عليها الداخل إلى المدينة، وجعل الماء يدور حول الربض؛ ونصب
عليها أعلاماً وحرساً؛ ثم غرس وراء ذلك بالبرية النخل والكروم وأصناف الأشجار، ومن
وراء ذلك مزارع الغلات من كل جهة، وكان يرتفع له بها في كل سنة نا يكفيه لعشر سنين،
كل ذلك خوفاً من الوليد.
قال: وبين هذه المدينة وبين منف ثلاثة أيام؛ فكان عون يخرج إليها فيقيم بها عشرة أيام ثم
يعود إلى منف، وكان لها رابعة أعياد في السنة؛ وهي الأوقات التي يتحول العقاب فيها.
فلما تم ذلك كله لعون اطمأن قلبه، وسكنت نفسه.

عود الوليد إلى مصر
وهرب عون إلى مدينته

قال: ثم وافا كتاب الوليد بن دومع من نواحي النوبة إلى عون يأمره أن ينفذ إليه الأزواد
وينصب له الأسواق؛ فوجه إليه ذلك في المراكب وعلى الظهر، وحول جميع عياله ومن
اصطفاه من بنات ملوك مصر وكبرائها إلى المدينة، حتى إذا قرب دخول الوليد إلى مصر
خرج عون إلى مدينته وخلف خليفة على مصر بين يدي الوليد.
ودخل الوليد مدينة منف
وتلقاه أهل مصر وشكوا إليه عوناً وما حل بهم منه. قال: وأين هو؟ قالوا: فر منك.
فغضب الوليد وأمر بجيش كثيف ينفذ إليه، فعرفوه أن الجيش لا يصل إليه، وأخبروه خبر
المدينة وكيف بناها وخبر السحرة الذين معه. فكتب إليه يأمره بالقدوم عليه ويحذره
التخلف عنه، ويقسم أنه إن لم يفعل وظفر به بضع لحمه بضعاً.
فرد جوابه يقول: ما على

الملك مني مؤنة، وأنا لا أتعرض إلى بلده ولا أعيث فيه؛ لأني عبده، وأنا له في هذا الموضع
أرد كل عدو يأتيه من نواحي الغرب، ولا اقدر على المصير إليه لخوفي منه، فليقرني الملك
بحالي كأحد عماله وأوجه إليه ما يلزمني من الخراج والهدايا. ووجه إليه بأموال جليلة
وجوهر نفيس. فلما رأى ذلك كف عنه. وأقام الوليد بمصر فاستبعد أهلها واستباح
حريمهم وأموالهم. وملكهم مائة وعشرين سنة فأبغضوه وسئموا أيامه. واتفق أنه ركب في
بعض الأيام إلى الصيد فألقاه فرسه في وهدة فهلك، وكان ابنه الريان ينكر عليه فعله ولا
يرضاه. فلما هلك عمل له ناووساً قرب الأهرام. وقيل: بل دفن في الهرم.
ثم ملك بعده ابنه الريان بن الوليد بن دومع؛ وهو فرعون يوسف عليه السلام، والقبط
تسميه نهراوش، وجلس على سرير الملك. وكان عظيم الخلق، جميل الوجه، عاقلاً
متمكناً؛ فتكلم ومني الناس وضمن لهم الإحسان وأسقط عنهم الخراج ثلاث سنين، فاثنوا
عليه وشكروه، وأمر بفتح الخزائن وفرق ما فيها على الخاص والعام، وتمكنت منه أريحية
الصبا فملك على الرعية رجلاً من أهل بيته يقال له أطفين، وقيل في اسمه: قطفير، وقيل:
قوطيفر، وهو الذي يسميه أهل الأثر العزيز. وكان من أولاد الوزراء. وكان عاقلاً أديباً
متمكناً صائب الرأي كثير النزاهة مستعملاً للعدل والعمارة والإصلاح. وأمر الريان أن
ينصب له في قصر الملك سرير من الفضة يجلس عليه ويغدو ويروح إلى باب الملك، ويخرج
بجميع الوزراء والعمال والكتاب بين يديه؛ فكفى الريان ما خلف سريره وقام بجميع أمره
وأخلاه لذاته؛ فأقام الريان منعكفاً على قصفه ولهوه منغمساً في لذته لا ينظر في عمل ولا
يظهر للناس ولا يخاطبهم، فأقاموا بذلك حيناً. هذا والبلد عامر. وبلغ الخراج في وقته سبعة وتسعين ألف ألف مثقال فجعلها أقساماً، فما كان للملك
وأسبابه وموائده حمل إليه، وما كان في أرزاق الجيش والكهنة والفلاسفة وأصحاب الصنائع
ومصالح البلد وأهل المهنة صرف إليهم، والملك مع ذلك غير سائل عن شيء؛ قد عملت له

مجالس من الزجاج الملون وأجرى حولها الماء وأرسلت فيها الأسماك المقرطة، فكانت
الشمس إذا وقعت على المجلس منها أرسل شعاعاً عجيباً يبهر العيون.
وعملت له عدة متنزهات على عدد أيام السنة، فكان كل يوم في موضع منها، وفي كل
موضع منها من الفرش والآنية والآلات ما ليس في غيره.
فلما اتصل بملوك النواحي تشاغل الريان بلذاته وتدبير العزيز لأمره، قصده رجل من العمالقة
يقال له عاكن بن بيجوم وكنيته أبو قابوس، وقصد مصر حتى نزل على حدودها، فأنفذ إليه
العزيز جيشاً كثيفاً وجعل عليه قائداً يقال له بريانس، فأقام ثلاث سنين يحاربه، ثم ظفر به
العمليقي ودخل من الحدود وهدم أعلاماً ومصانع كثيرة، وتمكن طمعه في البلد فأعظم أهل
مصر ذلك واجتمعوا إلى قصر الملك وجعلوا يصيحون ويستغيثون ويرفعون أصواهم حتى
سمعها الملك فقال: ما بال الناس؟ فأخبر خبر المعليقي وأنه قد دخل عمل مصر وعاث
وأفسد المزارع والمصانع والأعلام، وأنه سار بجيشه إلى قصر الملك، فارتاع الريان لذلك
وأنف منه وانتبه من غفلته وعرض جيوشه وأصلح أمره وخرج في ستمائة ألف مقاتل سوى
الأتباع، فالتقوا من وراء الأحواف في تلك الصحراء، واقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم العمليقي
واتبعه الريان إلى حدود الشام وقتل من أصحابه خلقاً وأفسد زرعهم وأكثر أشجار الفواكه
والزيتون، وأحرق وصلب ونصب أعلاماً على الموضع الذي بلغه وزبر عليها: إني لمن يجاور
هذا المكان بالمرصاد. فلما تم له هذا الظفر هابته الملوك ولاطفوه وأعظموه.
وقيل: إنه بلغ الموصل وضرب على الشام خراجاً وبنى عند العريش مدينة لطيفة وشحنها
هي وتلك الناحية بالرجال، ورجع إلى مصر فحشد جنوده من جميع الأعمال، واستعد
لغزو ملوك الغرب فخرج في تسعمائة ألف واتصل بالملوك خبره، فمنهم من تنحى عن طريقه،
ومنهم من دخل تحت طاعته. ومر بأرض البربر فأجلى كثيراً منهم، ووجه قائداً يقال له
مريطس في سفن فركب البحر من ناحية رقودة. ومر الريان بجزائر بني يافث فعاث فيها

واصطلم أهلها، وخرج من ناحية أرض البربر فقتل بعضهم وصالح بعضهم وحملوا إليه
الأموال، ومضى إلى إفريقية وقرطاجنة فصالحوه على أموال وألطاف كثيرة حملوها إليه، ومر
حتى بلغ مصب البحر الأخضر وهو موضع الأصنام النحاس، فأقام هناك صنماً وزبر عليه
اسمه وتاريخ الوقت الذي خرج فيه، وضرب على أهل تلك النواحي خراجاً، وعدي إلى
الأرض الكبيرة وصار في الأفرنجة، والأندلس في حوزهم وعليها لذريق الأصغر، فحاربه
أياماً وقتل من أصحابه خلقاً وصالحه بعد ذلك على ذهب مضروب، وعلى ألا يغزو مصر
ويمنع من رام ذلك من جميع أهل النواحي، وانصرف مشرقاً فشق بلد البربر فلم يمر بموضع
إلا خرج أهله بين يديه واهدوا له وأدخلوا تحت طاعته. ثم أخذ نحو الجنوب ومر ببلد
الكوسانيين فحاربوه فقتل خلقاً كثيراً، وبعث قائداً إلى مدينة على عبر البحر الأخضر
فخرج إليه ملك المدينة وأهلها فعرفهم حال الريان ومصالحة الملوك له فقالوا: ما بلغنا أحد
قط، وسألهم هلة ركب هذا البحر أحد؟ فقالوا: ما يستطيع أحد أن يركبه، وأخبروه أنه
ربما أظله الغمام فلا يرونه أياماً، وأتى الريان فتلقوه بهدايا وفاكهة أكثرها المور؛ وحجارة
سود فإذا جعلت في الماء صارت بيضاء، ثم تركهم وسار إلى أمم السودان حتى بلغ ملك
الدمدم الذين يأكلون الناس، فخرجوا إليه عراة بأيديهم العمد الحديد، وخرج ملكهم على
دابة وهو عظيم الخلق له قرون، وكان جسيماً أحمر العينين، فظفر بهم فانهزموا إلى أوحال
وأدغال فلم يتهيأ له أتباعهم فيها، وجازهم إلى قوم على خلق القرود لهم أجنحة صغار
يثبون بها من غير ريش. ومر على عبر البحر المظلم فغشيهم منه غمام فرجع شمالاً حتى
انتهى إلى جبل يقال له وسن، فرأى فوقه تمثالاً من حجر أحمر يومي بيده: إرجعوا وعلى
صدره مزبور: ما ورائي أحد. فتركه وسار راجعاً فانتهى إلى مدينة النحاس فلم يصل
إليها. ومضى حتى بلغ الوادي المظلم فكانوا يسمعون منه جلبة عظيمة ولا يرون أحداً
لشدة ظلمته. وسار حتى انتهى إلى وادي الرمل ورأى على عبرة أصناماً عليها أسماء

الملوك قبله فأقام معها صنماً وزبر عليها اسمه. فلما أسبت الرمل جاز عليه إلى الخراب
المتصل بالبحر الأسود، وسمع جلبة وصياحاً هائلاً فخرج في شجعان أصحابه حتى
أشرف على السباع المقرنة الأنوف، فإذا بعضها تهتر وتأكل بعضها بعضاً، فعلم أنه لا
مذهب له من ورائها فرجع، وعدى وادي الرمل ومر بأرض العقارب فهلك بعض أصحابه
ورفعوها عنهم بالرقي التي يعرفونها، ثم جاوزهم حتى انتهى إلى مكان صلوفة وهي حية
عظيمة، فهجموا عليها ولم يعرفوها وظنوا أنها جبل، ثم عرجوا عنها وتعوذوا منها بالرقي.
قال: ويزعم القبط أنه منعها من الحركة بسحره وتركها فهلكت. وقيل: إن تعريج هذه الحية
ميل وأنها كانت تبتلع السباع هناك.
وسار حتى بلغ مدينة الكند، وهي مدينة الحكماء، فتهاربوا منه إلى جبل صعدوه من
مواضع يعرفونها من داخل مدينتهم لم يعرفها غيرهم، ولم يجد الريان ومن معه إلى الصعود
إليها سبيلاً، فأقاموا عليها أياماً وكادوا يهلكون من العطش، فنزل إليهم من الجبل رجل يقال
له مندوس، كان من أفاضل الحكماء وقد لبس شعره جسده، فقال: أين تريد أيها المغرور
الممدود له في الأجل! المرزوق الكفاية! أتعبت نفسك وجيشك! ألا اقتنعت بما تملكه
واتكلت على خالقك وربحت الراحة وتركت العناء والغرور بهذا الخلق. فعجب الملك من
قوله وسأله عن الماء فدله عليه، وسأله عن موضعهم فقال: موضع لا يصل إليه أحد ولا
بلغه قبلك أحد. قال: فما عيشكم؟ قال: من أصول نبات لنا نعتصم به ونقنع بأكله
ويكفينا اليسير. قال: فمن أين تشربون؟ قال: من نقار الماء من الأمطار. قال: فلم هربتم
منا؟ قال: رغبة عن خلطتكم وإلا فليس لنا ما نخاف عليه. قال: فكيف تكونون إذا
حميت عليكم الشمس؟ قال: في غيران تحت هذه الجبال. قال: فهل تحتاجون إلى مال
أخلفه لكم؟ قال: إنما يريد أهل البذخ ونحن لا نستعمل منه شيئاً، استغنينا عنه بما قد
اكتفينا به، وعندنا منه مالو رأيته لحقرت ما عندك. قال: فأرنيه، فانطلق به مع نفر من

أصحابه إلى أرض في سفح جبلهم فيها قضبان الذهب نابته، وأراهم وادياً حافتاه حجارة
الزبرجد والفيروذج، فأمر الريان أصحابه أن يأخذوا من كبار تلك الحجارة ففعلوا؛ ورآهم
الحكيم يصلون إلى صنم يحملونه معهم، فسألهم ألا يقيموا بأرضهم خوفاً من عبادة
الأصنام؛ فسأله الملك أن يدله على الطريق ففعل، وودع الحكيم وسار على السمت الذي
وصفه له. فلم يمر بأمة إلا أبادها وأثر فيها إلى أن بلغ بلد النوبة، فصالح أهلها على مال
يحملونه إليه، ثم أتى دنقلة فأقام بها علماً وزبر عليه اسمه وميسره. ومر يريد منف؛ فكان
أهل كل مدينة من مدائن مصر يتلقونه بالفرح والسرور والطيب والرياحين والملاهي إلى أن
بلغ منف، فلم يبق أحد من أهلها إلا خرج إليه مع العزيز وتلقوه بأصناف الطيب
والبخورات والرياحين.
وكان العزيز قد بنى له مجلساً من الزجاج الملون وفرشه بأحسن الفرش المذهبة، وغرس
حوله جميع الأشجار والرياحين، وجعل فيه صهريجاً من زجاج سمائي، وجعل في أرضه
شبه السمك من زجاج أبيض وأنزله فيه، وأقام الناس يأكلون ويشربون أياماً كثيرة. وأمر
بعرض جيشه فوجد أنه قد فقد منهم سبعون ألفاً، وكان قد خرج في ألف ألف، ووجد من
انضاف إليه من الغرباء والمأسورين نيفاً وخمسين ألفاً، وكان مسيره وغيبته إحدى وعشرين
سنة. فلما سمع الملوك بذكره وما فتح من البلاد وما أسر هابوه، وخافوا شدة باسه وعظم
سلطانه. وتجبر وبنى بالجانب الشرقي قصوراً ن الرخام ونصب عليها أعلاماً، فكان يقيم
بها الأيام الكثيرة. وكان الخراج قد بلغ في وقته سبعة وتسعين ألف ألف فأحب أن يتمه مائة
ألف ألف دينار، فأمر بوجوه العمارات وإصلاح الجسور والزيادة في استنباط الأراضي
حتى بلغ ذلك وزاد عليه.
ثم كان من خبر يوسف الصديق عليه السلام وبيعه بمصر وخبره مع امرأة العزيز وسجنه
وقصته مع صاحبي الملك ورؤيا الملك وتعبيرها وتولية الريان بن الوليد يوسف عليه السلام
رتبة العزيز وخبر القحط، ماقدمنا ذكره في أخبار يوسف عليه السلام، وهو في السفر

الحادي عشر من نسخة الأصل. فلا فائدة في إعادته. إلا أنه قد وردت زيادات أخر لم ترد
هناك نحن نذكرها الآن، وهو ما حكاه مؤلف هذا الكتاب الذي نقلنا إبراهيم بن القاسم
الكاتب عن إبراهيم بن وصيف شاه قال: إن يعقوب عليه السلام لما قدم مصر بأهله
وولده، خرج يوسف عليه السلام في وجوه أهل مصر فتلقاه وأدخله على الملك؛ وكان
يعقوب عليه السلام مهيباً جميلاً فقربه الملك وعظمه وقال له: يا شيخ، كم سنوك وما
صناعتك وما تعبد؟ فقال: أما سني فعشرون ومائة سنة، وأما صناعتي فلنا غنم نرعاها
وننتفع بها، وأما الذي أعبد فرب العالمين، وهو الذي خلقني وخلقك، وهو إله آبائي وإلهك
وإله كل شيء.
قال: وكان في مجلس فنيامين، وهو كاهن جليل القدر، فلما سمع كلام يعقوب ضاق به ذرعاً
وقال للملك بلغتهم: أخاف أن يكون خراب مصر على يد ولد هذا.
فقال له الملك: فأني لنا خبرة، فقال الكاهن: أرنا إلهك أيها الشيخ. قال: إلهي أعظم من
أن يرى. قال: فإنا نحن نرى آلهتنا. قال: لأن آلهتكم ذهب وفضة ونحاس وخشب، وما
يعمله بنو آدم عبيد إلهي الذي احتجب عن خلقه بعز ربوبيته، لا إله إلا هو العزيز الحكيم.
قال له فنيامين: إن لكل شيء دليلاً، وكل شيء لا تراه العيون فليس بشيء، فغضب يعقوب
وقال: كذبت يا عدو الله وطغيت في هذه الدنيا؛ إن الله سبحانه وتعالى شيء وليس
كالأشياء، وهو خالق كل شيء لا إله إلا هو. قال: فصفه لنا.
قال: إنما يوصف المخلوقون
ولا يوصف الخالق عز وجل؛ لأنه يرتفع عن الصفات؛ لأنه واحد ثديم مدبر للأشياء في كل
مكان يرى ولا يرى. ثم قام يعقوب مغضباً، فأجلسه الملك وأمر فنيامين أن يكف عنه
ويكون بين يديه، ويأخذ في غير هذا. ثم قال الملك: كم عدة من دخل معك إلى مصر؟ قال
ستون رجلاً. قال الكاهن: كذلك نجده في كتبنا؛ إن خراب مصر يجري على أيديهم. قال
الملك: فهل يكون في أيامنا؟ قال: لا، ولا إلى مدة كبيرة. والصواب أن يقتله الملك ولا
يستبقي من ذريته أحداً. قال الملك: إن كان الأمر كما تقول فما يمكننا أن ندفعه ولا نقتل

هؤلاء، وإن لهم إلهاً عظيماً، وقد قبل قلبي هذا الشيخ، ومالي إلى قتله من سبيل، فخاطبه
بألين الكلام؛ فجرت بينهما بعد ذلك مخاطبات ألان له فيها القول.
قال: ثم إن يعقوب عليه السلام أحب أن يعرف خبر مصر ومدائنها وكيف بنيت وخبر
طلسماتها وعجائبها. فسأله عن ذلك بحق الملك ألا يكتمه شيئاً من أمرها فأخبره. قال:
وأقام يعقوب عليه السلام مع الريان بن الوليد الملك يعظمه ويتجله إلى أن حضرته الوفاة،
فأوصى أن يحمل إلى مكانه من الشأم، فحمل في تابوت وخرج معه يوسف عليه السلام
ووجوه مصر حتى بلغ إلى موضعه ورجعوا. وقيل إن عيصو منعهم من دفنه هناك لأن
إسحاف عليه السلام كان قد وهبه الموضع فاشتراه يوسف عليه السلام منه. ويقال: إن
الريان آمن بيوسف وكتم إيمانه خوفاً من فساد ملكه.
وملك الريان مائة وعشرين سنة. في وقته عمل يوسف عليه السلام الفيوم لابنة الملك،
وكان أهل مصر قد وشوا به وقالوا: قد كبر ونقص نفعه فاختبره. فقال له الملك: قد وهبت
هذه الناحية لابنتي، وكانت مغايض للماء فدبرها. قال: فقلع أدغالها، وساق المنهى، وبنى
اللاهون، وجعل الماء فيه مقسوماً موزوناً، وفرغ من ذلك كله في أربعة أشهر، فعجبوا من
حكمة يوسف عليه السلام.
قال: ولما مات الريان بن الوليد ملك بعده ابنه دريموس بن الريان ابن الوليد ويسميه أهل
الأثر دارم، وهو الفرعون الرابع عندهم. قال: ولما ملك خالف سنة أبيه، وكان يوسف
عليه السلام خليفته كما كان مع أبيه، وذلك بأمر الريان. وكان يوسف يسدده فربما قبل منه
وربما خالفه، وظهر في وقته معدن فضة على ثلاثة أيام من النيل فأبان منه شيئاً عظيماً،
وعمل منه صنماً على اسم القمر؛ لأن طالعه كان بالسرطان، ونصبه على القصر الرخام
الذي كان أبوه بناه في شرقي النيل، ونصب حوله أصناماً كلها من الفضة وألبسها الحرير
الأحمر، وعمل لها عيداً في كل سنة، وهو إذا نزل القمر السرطان.
وكان يتنقل إلى مواضع شتى يتنزه فيها، وإذا أراد أن يضر الناس بشيء منعه يوسف عليه

السلام ودفعه عنه أن توفي يوسف عليه السلام، كما تقدم في خبر وفاته، فاستوزر الملك
دارم بعده بالطس بن منسا الكاهن، فكان بالطس يطلق له ما كان يوسف يمنعه عنه،
وحمله على أذى الناس وأخذ أموالهم فبلغ منهم كل مبلغ.
وعمل الوادي المنحوت بين الجبلين في الناحية الغربية وكنز الأموال فلا يوصل إليها، وجعل
صقالة من الوادي إلى باب الخباء، وجعل لهه باباً من الحديد يتوصل إليه من تلك الصقالة،
وصمده بجماعة من العفاريت يمنعون من ذلك الخباء، فمن رامه من الناس سقط في
الوادي. وقال آخرون: كنزها في موضع منه يدخل إليه وينظر إلى الأموال مكشوفة
مضروبة، في كل دينار عشرة مثاقيل عليها صورته، فإن أخذ الداخل منها شيئاً انطبق
عليه الباب فلم يقدر على الخروج، فإذا رده إلى موضعه انفتح له الباب. وهو بحاله إلى هذا
الوقت كما زعموا.
قال: ثم زاد دارم في التجبر إلى أن اختلع كل امرأة جميلة بمدينة منف من أهلها؛ ولا يسمع
بأمرأة حسناء في ناحية من النواحي إلا وجه فحملت إليه. وفشا ذلك في المملكة
واضطراب الناس من فعله وشق عليهم أمره إلى أن شغبوا عليه وعطلوا الصنائع والأعمال
والأسواق فعدا على جماعة منهم فقتلهم. وزاد الأمر حتى اجتمعوا على خلعه، فخاف
بلاطس أن يفسد أمر المملكة فدخل على الملك وأشار عليه أن يتودد إلى الناس ويعتذر
إليهم ويرد نساءهم فأبى إلا مخالفته، وهم أن يخرج إلى الناس في خاصته ويقتل منهم وقال:
إنما هم عبيدي وعبيد آبائي.
فلم يزل يرفق به إلى أن سكن غضبه؛ فأمره أن يعتذر إلى الناس عنه، ففعل الوزير ذلك
وذكر عنه جميلاً، فأبى الناس أن يقبلوا منه دون مخاطبتهم الملك فضمن لهم ذلك وخاطبه
وأشار به عليه، فأمره أن ينادي في الناس بالحضور في يوم عينه، ثم لبس ارفع ثيابه وأكبر
تيجانه ودخل الناس عليه فذكروا ما حل بهم من اخذ أموالهم، وعرفوه أنه لم يجر عليهن
من ملك قبله مثل هذا، فاعتذر إليهم ووعدهم الإقلاع عما شكوا منه وأسقط عنهم
خراج ثلاث سنين.

ثم أمر بعمل قصر من خشب على أساطين خشب ممدودة بأضلاع مسمرة يتنزه فيه، فعمل
ودهن بالأدهان والأصباغ الملونة المذهبة، وضبب بالفضة والنحاس المذهب، وعمل فوقه
قبة من الفضة المذهبة مصورة بالزجاج الملون وعلق فيها الحجر المضيء الذي أتى به أبوه
من المغرب. فلما فرغ القصر فرشه بأحسن الفرش وجعله طبقتين: طبقة له يجلس فيها مع
من يحبه، وطبقة لحشمه، وجعل حول ذلك أروقة ملصقة بالمجلس يجلس فيها من يريد؛
فكان يركب فيه بمن احبه من خاصته ونسائه ويصعد فيه في الماء إلى ناحية الصعيد
وتتبعه المراكب فيها أصحابه وغلمانه بالعدد والسلاح وينحدر إلى أسفل الأرض، فإذا مر
بمكان يستحسنه أقام فيه أياماً.
واتفق أنه خرج في بعض الأيام مصعداً فوثب رجل من الإسرائيلين على رجل من سدنة
الهياكل فضربه حتى أدماه وعاب دين الكهنة، فغضب القبط لذلك وخاطبوا خليفة الملك
أن يخرجهم من مصر فامتنع دون مشاورة الملك، وكتب إليه يعرفه ذلك، فكتب إليه ألا
يحدث في القوم حادثة دون موافاته، فشغبوا وأجمعوا على خلعه وتمليك غيره، وتعرض
بعضهم إلى ذكر الملك فحشد أهل الصعيد وانحدر إليهم، فحاربوه فهلك بينهم خلق كثير.
وعاونته امرأة أبيه، وكانت ساحرة، فأظهرت من سحرها وتخاييلها ودخنها ما أعماهم عن
النظر، أضعف حواسهم وأسكرهم، فقتل خلقاً منهم وصلب خلقاً على عبر النيل، ورجع
إلى أكثر مما كان عليه من ابتزاز النساء ونهب الأموال واستخدام الأشراف والوجوه من
القبط ومن بني إسرائيل؛ فأجمع الكل على ذمه. وكانت الساحرة لا تخليه من معونتها إلى
أن ركب في ذلك القصر في بعض الليالي وقد أحذق النيل بالبلد، وهو من الجبل إلى الجبل،
وامتد القمر على الماء، فأراد أن يعدي من العدوة إلى العدوة الأخرى فلم يتهيأ له سوق
القصر بسرعة لعظمه، فركب مركباً لطيفاً مع ثلاثة من خدمه والساحرة، فلما توسط البحر
هاجت ريح عاصف فغرق هو ومن معه، وأصبح الناس شاكين في أمره ما نزل له، إلى أن

وجدت جثته بسطنوف فعرف بخاتمه وبجوهر كان يتقلد به فحمل إلى منف.
وملك بعده ابنه معاديوس بن دريموس؛ ويسميه أهل الأثر معدان ابن دارم، وهو الفرعون
الخامس، وذلك بتدبير الوزير؛ فأجلسه على سرير الملك وبايعه الجيس، وكان صبياً فكرهه
الناس ثم رضوا به، فأسقط عن الناس الخراج الذي كان أبوه أسقطه، وزادهم سنة
وأحسن إليهم فأطاعوه؛ واستقام له الأمر ورد نساءهم. وكان ينكر على أبيه فعله ولا
يرضاه؛ فلذلك رضوا به.
قال: وفي زمانه كان طوفان أضر ببعض البلد فلزم الملك الإقبال على الهياكل والتعبد،
وطلب القاطر ووجوه الكهنة بالحضور معه، وأنصف بعض الناس من بعض. وكثر بنو
إسرائيل وعابوا الأصنام وثلبوها. وكان الوزير قد هلك فاستوزر كاهناً يقال له املاده، فلما
رأى ما فعله بنو إسرائيل أنكره وأمر أن يفردوا بناحية من البلد لا يختلط بهم أحد
غيرهم، فأقطعهم موضعاً في قبلي منف، واجتمعوا إليه وعملوا لأنفسهم معبداً كانوا يتلون
فيه صحف إبراهيم عليه السلام، واتفق أن رجلاً ن أهل بيت الكهنة عشق امرأة من بني
إسرائيل كانت قد جاءته لتشتكي أخاها أنه غصبها ميراثها، وأرادت أن يعتني بأمرها عند
وزير الملك، فرآها ابنه فأحبها وسأل والده أن يزوجه منها، فخطبها من أهلها فأبوا ذلك،
فأنكر الناس فعلهم واجتمعوا إلى الوزير وقالوا: هؤلاء قوم بعيبونا ويرغبون عنا، ولا نحب أن
يجاورونا إلا أن يدينوا بديننا. فقال الوزير: قد علمتم إكرام الريان لملك لجدهم يوسف عليه
السلام، وقد وقفتم على بركة جدهم يوسف عليه السلام حتى جعلتم قبره وسط النيل
فأخصب جانباً مصر بمكانه فلا تخوضوا في هذا، فأمسكوا.
قال: وتغلب أحد ملوك الكنعانيين على الشام وامتنع أهله أن يحملوا الضريبة التي كانت
عليهم لملك مصر، فأنكر أهل مصر ذلك أشفقوا من غلبة صاحب الشام على بلدهم،
فحضوا الملك على غزو الشام فقال: إن رام أحد حدود بلدنا غزوناه، وما لنا في ذلك البلد
من حاجة؛ فاستنقصوا رأيه. وأقام على ملازمة الهياكل والتعبد فيها؛ فيزعم القبط أنه

بينا ذان يوم قائم في هيكل زحل حذاء صورته، وقد أجهد نفسه في التعبد، إذ تغشاه النوم
فتجلى له زحل وخاطبه وقال: قد جعلتك رباً على أهلك وأهل بلدك، وحبوتك بالقدرة
عليهم وعلى غيرهم، وسأرفعك إلي فلا تخل من ذكرى؛ فعظم عند نفسه، واتصل خبره
بأهل البلد، واخبرهم سدنة الهيكل أنهم رأوا النور وسمعوا الخطاب، وأعظم الناس أمره،
فتجبر في نفسه وأمر الناس أن يسموه رباً، وترفع أن ينظر في شيء من أمر الملك، وأحضر
الناس وقال: قد وقفتم على ما خصصت به دون الملوك، وهذه موهبة يلزمني الشكر
لواهبها عليها، ولست أتفرغ للنظر في أموركم، وقد رأيت أن أجعل الملك إلى ابني
اكسامس، وأكون من ورائه إلى أن يغيب شخصي عنكم كما وعدت، وقد أيدته بالقاطرين،
فانظروا كيف تكونون، ولا تتظالموا فإنكم مني بمرأى ومسمع، فرضوا بذلك وقالوا: نحن
عبيد الملك ومن رضيته الآلهة فحكم الخلق أن يرضوه ولا يخالفونه.
فملك ابنه أكسامس ين معاديوس؛ ويسميه أهل الأثر كاسم ابن معدان، وهو الفرعون
السادس، وجلس على سرير الملك وتوج بتاج أبيه وقام القاطرون بين يديه، فجعل لكل
واحد منهم رتبة، ورتب الناس مراتب، وقسم الكور والأعمال، وأمر باستنباط العمارات
وإظهار الصناعات، ووسع على الناس في أرزاقهم وعلى حاشيته وحاشية أبيه، وأمر
بتنظيف الهياكل وتجديد لباسها ووانيها، وزاد في القرابين؛ وكلما أتى شيئاً من ذلك لم تخالفه
الكهنة وقدروا أن ذلك عن أمر أبيه برضى الكواكب، واحتجب أبوه عن الناس. وأقام
كاسم أعلاماً كثيرة حول منف وجعل عليها أساطين يمر عليها من بعضها إلى بعض.
وعمل برقودة وصا ومدائن الصعيد واسفل الأرض مدناً كثيرة وأعلاماً ومناثر للوقود
والطلسمات. وعمل من الفضة على عمل البيضة الفلكية ونقش عليها صور الكواكب
الثابتة ودهنها بدهن الصيني وركبها على منار في وسط منف. وعمل في هيكل أبيه
روحاني زحل من ذهب اسود مدبر. وعمل في وقته الميزان الذي يعتبر به الناس، وجعلت

كفتاه من ذهب وعلائقه من فضة وخيوطه سلاسل ذهب، وكان معلقاً في هيكل الشمس،
وكتب على إحدى كفتيه حق، والأخرى باطل، وتحته فصوص قد نقش عليها أسماء كل
شيء من الكواكب؛ فيدخل الظالم والمظلوم ويأخذ كل واحد منهما فصاً من تلك الفصوص
ويسمي عليها ما يريد، ويجعل أحد الفصين في كفه والآخر في الأخرى، فتثقل كفة الظالم
وترتفع كفة المظلوم. وكذلك من أراد سفراً أخذ فصين فذكر على واحد اسم السفر،
والآخر اسم الجلوس، ويجعل كل واحد في كفه، فغن لم يرتفع أحدهما على الآخر جلس،
وإن ارتفعا خرج، وإن ارتفع أحدهما مكث شهراً. ومن نحو هذا من غائب ودين وفساد
وصلاح. ويقال إن بختنصر لما ظفر بمصر حمله في جملة ما حمل إلى بابل وجعله في بيت من
بيوت النار.
قال: وطالب كاسم الناس بلزوم الأعمال وإظهار الصنائع، فعملت كل غريبة منها: التنور
الذي يشوى من غير نار فيه، والقدور التي يطبخ فيها من غير نار، والسكين التي تنصب
فإذا رآها شيء من البهائم أقبل حتى يذبح نفسه بها، والماء الذي يستحيل ناراً، والزجاج
الذي يستحيل هواء، وأشياء من ذلك.
قال: فأقام في أول ولايته ثلاث سنين بأجمل أمر واصلح حال، ومات وزير أبيه الذي كان
معه فاستخلف رجلاً من أهل بيت المملكة يقال له طلما، وكان شجاعاً فارساً كاهناً
حكيماً متصرفاً في كل فن، وكانت نفسه تنازعه الملك فصلح أمر المملكة بمكانه وأحبه
الناس، فعمل معالم كثيرة وعمر خراباً وبنى مدناً من الجانبين. ورأى في نجومه أن ستكون
شدة فاستعمل ما استعمله نهراوش، وبنى بناحية رقودة والصعيد ملاعب ومصانع.
وشكا القبط إليه حال الإسرائيلين فقال: هم عبيد لكم، فكان القبطي إذا أراد حاجة
سخر الإسرائيلي، وكان القبطي يضرب الإسرائيلي فلا ينكر عليه أحد، وإن ضرب
الإسرائيلي القبطي قتل، فكان أول من أذى بني إسرائيل، ويفعل نساء القبط بنساء بني
إسرائيل ما يفعل الرجال بالرجال من السخر والضرب.

قال: وفي أيام اكسامس بنيت منارة الإسكندرية. وفي زمانه هاج البحر المالح فغرق كثيراً
من القرى والجنان والمصانع. وحكى أن أكسامس تغيب عن الناس مدة. وقيل: مات
وكتموا موته. وكانت مدة ملكه إلى أن غاب إحدى وثلاثين سنة، وأقام طلما إحدى عشرة
سنة يدبر المملكة ثم اضطرب الناس على طلما وتغيروا واتصل بهم أنه قتل الملك بسم
سقاه إياه فاجتمعوا وقالوا: لا بد لنا من النظر إلى الملك، فعرفهم أنه قد تخلى عن الملك
وولى ابنه لاطس فلم يقبلوا ذلك.
فأمر طلما الجيوش فركبت في السلاح وأجلس لاطس بن أكسامس على سرير الملك ولبس
التاج. وكان جريئاً معجباً فوعد الناس جميلاً وقال: أنا مستقيم لكم ما استقمتم، وإن ملتم
عن الواجب ملت عنكم، وأمر ونهى وألزم الناس أعمالهم، وحط جماعة من الوجوه عن
مراتبهم، وصرف طلما عن خلافة المملكة واستخلف رجلاً يقال له لاهوق من ولد صا
الملك ودفع إليه خاتمه، وأنفذ طلما عاملاً على الصعيد وأنفذ معه جماعة من الإسرائيليين،
وعمل الأعلام واصلح الهياكل وبنى قرى كثيرة، وأثيرت في أيامه معادن كثيرة وكنوز في
صحراء المشرق، واستعمل آنية كثيرة من الجوهر الأخضر وأصناف الزجاج. وكان محباً
للحكم ثم تجبر وعلا، وأمر ألا يجلس أحد في مجلسه ولا في قصر الملك من الكهنة
وغيرهم، بل يقومون علت أرجلهم إلى أن ينصرفوا، وزاد في أذى الناس والعنف بهم، ثم
منع الناس فضول ما بأيديهم وقصرهم على القوت، وجمع أموالهم وطلب النساء فانتزع كثيراً
منهن، وفعل في ذلك أكثر من فعل من تقدمه من الملوك، وقهر الناس بالسطوة واستعبد بني
إسرائيل وقتل جماعة من الكهنة فأبغضه الخاص والعام.
وكان طلما لما صرفه لاطس عن خلافته وجد في نفسه وأضمر الغدر به. فلما خرج إلى
الصعيد احتجز الأموال فلم يحملها، وحال بين الملك وبين المعادن، وأراد أن يقيم ملكا من
ولد قبطريم ويجلسه في الملك، فأشار بعض الكهنة على طلما أن يطلب الملك لنفسه وعرفه
أنه سيكون له حال. فلما شجعه الكاهن وجرأه على ذلك دعا إلى نفسه وكاتب وجوه

أهل البلد، فبعض أجابه وبعض توقف، ورفع كل واحد من ولد الملوك رأسه وطمع في
الملك.
قال: وفي بعض كتبهم أن بعض الروحانيين ظهر له وقال: إني أطيعك إن أطعتني، وأقلدك
مصر زماناً طويلاً، فأجابه إلى ما سأله وقرب له أشياء ذكرها له، منها غلام إسرائيلي؛
فعاونه حينئذ وكان له رسولاً إلى رؤساء مصر، فكان يتصور بصور بعضهم ويشير بتمليكه
عليهم إلى أن استقام له الأمر، قال: ولما منع طلما لاطس من مال الصعيد كتب بصرفه عن
العمل فأبى أن ينصرف، فوجه إليه قائداً من أهل بيته وقلده مكانه وأمره أن يحمله إليه،
فحاربه وأعانه الروحاني فظفر به طلما واعتقله ثم خلاه وقربه وأدخله في جملته، واتصل
الخبر بالطس فأنفذ إليه قائداً آخر فهزمه طلما وسار في أثره بجيش كثيف، وكاتب جميع
القواد وأهل البلد وبذل لهم الأموال، وخرج إليه لاطس فحاربه طلما وعاونه الروحاني فظفر
به طلما وقتله وسار حتى دخل منف وعاث فيها.
وملك طلما بن قومس؛ ونزل قصر المملكة وجلس على سرير الملك وحاز جميع ما كان في
خزائنهم. قال: وطلما هذا هو ابن قوميس، وهو الذي يذكر القبط أنه فرعون موسى عليه
السلام. وأهل الأثر يسمونه الوليد بن مصعب وأنه من العمالقة. وذكروا أن الفراعنة سبعة
فأولهم: طوطيس بن ماليا، ثم الوليد بن دومع، ثم ابنه الريان بن الوليد، ثم دريموس بن
الريان، ثم معاديوس بن دريموس، ثم أكسامس بن معاديوس، ثم طلما.
قال: وكان طلما فيما زعموا قصيراً. قيل: كان طوله أربعة أشبار، طويل اللحية، أشهل
العينين، صغير العين اليسرى، في جبينه شامة. ويقولون: إنه كان أعرج. وزعم قوم أنه من
القبط. قال: والدليل على ذلك سيله إليهم ونكاحه فيهم؛ ونسب أهل بيته مشهور
عندهم.
وقد اختلف الناس في سبب ملكه وعمن تلقى الملك، فقيل ما ذكرناه وقيل ما قدمناه في
قصة موسى بن عمران عليه السلام، والله تعالى أعلم.
قال: ولما جلس طلما على سرير الملك اضطرب الناس عليه فبذل الأموال وأرغب من

أطاعه، وقتل من خالفه، فاعتدل الأمر له. وكان أول ما عمل أن رتب المراتب، وشيد
الأعلام، ونى المدن، وخندق الخنادق، وعمل بناحية العريش حصناً، وكذلك على حدود
مصر، واستخلف هامان، وكان يقرب منه في نفسه ونسبه، فأثار بعض الكنوز وصرفها في
بناء المدن والعمارات، وحفر خلجاناً كثيرة. ويقال: إنه الذي حفر خليج السردوس، وكان
كلما عرجه إلى قرية من قرى الحوف حمل إليه أهلها مالاً؛ فاجتمع له من ذلك شيء كثير،
فأمر برده على أهله.
وانتهى الخراج في وقته إلى سبعة وتسعين ألف ألف دينار، وكان يغزل الناس على مراتبهم.
وهو أول من عرف العرفاء على الناس، وكان ممن صحبه من الإسرائيليين رجل يقال له
امرئ، وهو عمران أبو موسى عليه السلام، وهو أخو مزاحم لأبويه، ومزاحم أبو آسية،
فهي ابنة عم موسى وبنت خالته، فجعل فرعون عمران حارساً لقصره يتولى حفظه وفتحه
وإغلاقه. وكان رأى في كهانته أن هلاكه على يد مولود من الإسرائيليين، فمنعهم المناكحة
ثلاث سنين؛ لأنه رأى أن ذلك المولود يكون فيها. ثم كان من خبر موسى في حمل أمه به
وولادته وغير ذلك من أمره ما قدمنا ذكره في قصة موسى عليه السلام فلا فائدة في إعادته.
وقد نقل أن موسى عليه السلام لما كبر عند فرعون عظم شأنه ورد فرعون إليه كثيراً من
أمره وجعله من قواده، وكانت له سطوة؛ ثم وجهه فرعون لغزو الكوثانيين، وكانوا قد عاثوا
في أطراف مصر، فخرج في جيش كثيف فرزقه الله عز وجل الظفر، فقتل منهم خلقاً واسر
خلقاً وانصرف سالماً فسر به فرعون وآسية. قال: واستولى موسى وهو غلام على كثير
من أمر فرعون وأراد أن يستخلفه حتى قتل رجلاً من أشراف القبط فكان من أمره ما
تقدم ذكره. والله أعلم.
هذا ما أورده إبراهيم في كتابه ولم يذكر من أخبار ملوك مصر بعد غرق فرعون شيئاً ولا
ذكر من ملك بعده. وقد أشار المسعودي في مروج الذهب إلى نبذة من أخبار من ملك
مصر بعد غرق فرعون نحن نذكرها. وأما سياقه أخباره فيما كان قبل فرعون فهذا الذي

ذكرناه أتم منه وأكثر استيعاباً.
ملوكها بعد غرق فرعون
قال أبو الحسن على علي بن عبد الله المسعودي في كتابه
مروج الذهب ومعادن الجوهر:
لما أهلك الله تعالى فرعون وقومه بالغرق خشي من بقي بمصر
من الذراري والنساء
والعبيد أن يغزوهم ملوك الشام والمغرب؛ فملكوا عليهم امرأة
يقال لها دلوكة؛ فبنت على
أرض مصر حائطاً يحيط بجميع البلاد من حد أرض رفح إلى برقة،
وجعلت الحراس على
مسافة كل ميل منها يصل أخبار بعضهم إلى بعض، فإذا حدث
أمر في أول ملكها بليل
رفعت النيران في وقت حدوثه فعلم في آخر المملكة بالخبر من
ليلته، وإن كان بالنهار
دخن. وهذا الحائط موجود إلى حين وضعنا لهذا الكتاب ويسمى
حائط العجوز. وقيل
فيه: حائط الحجوز. وقيل: إنها بنت هذا الحائط من خوفها على
ودها.
واتخذت دلوكة بمصر البرابي وصورت فيها الصور، وأحكمت
آلات السحر، وجعلت في
البرابي صور من يرد في البر ودوابهم إبلاً كانت أو خيلاً، ومن
يرد في البحر في المراكب من
بلاد الغرب وسواحل الشام، وأحكمت جميع ذلك بحركات فلكية.
فكان إذا ورد عليها
عدو من نحو الحجاز واليمن عورت تلك الشخوص التي في
البرابي من الإبل وغيرها
فيحدث العور في ذلك الجيش وتهلك دوابهم، وكذلك كل من
يقدم عليها من البر والبحر إذا
بلغها خبر مقدمه صنعت في تلك الصور ما يحدث مثله في ذلك
الجيش من الآفات، فهابها
سائر ملوك الأمم. وخبر هذه المرأة مشهور. وأكثر هذه البرابي
باق إلى وقتنا هذا وفيها
التصاوير إلا أنها لا فعل لها. وقد قيل في البرابي: إنها اتخذت
مع الأهرام قبل الطوفان.
والله تعالى أعلم.
وقيل أيضاً: إن مما أنشأته هذه المرأة منارة الإسكندرية، وقد
تقدم ذكر خبرها في المباني
القديمة وهو في السفر الأول من كتابنا هذا من هذه النسخة.
قال: وملكت هذه المرأة نحواً من ثلاثين سنة، وقيل أقل من
ذلك.
ولما هلكت دلوكة ملك بعدها دركوس بن بلوطس. ثم ملك بعد
ولده بورش. ثم ملك

بعده ولده بغاش بن بورش نحواً من خمسين سنة. ثم ملك بعده دنيا ابن بورش نحواً من
عشرين سنة. ثم ملك بعده بلوطس عشرين سنة. ثم ملك بعده بلوطس بن متنا كيل
أربعين سنة. ثم ملك بعده مالس بن بلوطس. ثم ملك بعده بوليه بن متنا كيل؛ وكانت له
حروب وسير في الأرض وهو فرعون الأعرج الذي غزا بني إسرائيل وخرب بيت المقدس.
ثم ملك بعده وينوس بن مرينوس ثمانين سنة. ثم ملك بعده قومس بن بغاس عشر سنين.
ثم ملك بعده مكاييل وكانت له حروب مع ملوك الغرب، وهو الذي غزاه بختنصر فقتله وقتل
رحاله وخرب أرض مصر، فقيل إنها خربت مدة أربعين سنة. وانقرض ملك الفراعنة.
وملك الروم أرض مصر فتنصر أهلها؛ ولم تزل بيد ملوك الروم إلى أن ملك كسرى أنوشروان
فارس فغلبت جيوشه على الشام وسارت نحو مصر، فملك الفرس أرض مصر، وغلبوا
عليها نحواً من عشر سنين. وكانت بين الروم وفارس حروب كثيرة، فصار أهل مصر يؤدون
خراجين: للروم وللفرس، ثم انجلت الفرس عن الشام ومصر لأمر حدث في بلادهم، فغلبت
الروم على مصر والشام وأظهروا النصرانية، واستمر ذلك إلى أن جاء الله تعالى بالإسلام.
وكان المقوقس ينوب عن ملك الروم، وهادى رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولم تزل
الديار المصرية والشام بيد ملوك الروم إلى أن فتحت في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله
عنه ما سنورد ذلك إن شاء الله تعالى في خلافة عمر في الباب الثاني من القسم الخامس
من هذا الفن، وهو في السفر السابع عشر من هذه النسخة.
قال المسعودي رحمه الله: والذي اتفقت عليه التواريخ، مع تباين ما فيها، في عدد ملوك
مصر إلى آخر أيام الفراعنة أنهم اثنان وثلاثون ملكاً. قال: فمن ملوك بابل إلى آخر أيام ابنة
مأموم - يشير إلى دليفة - أحد عشر ملكاً وملكة. ومن العماليق أربعة ملوك. ومن
الفراعنة من لدن الوليد بن مصعب فرعون موسى بن عمران عليه السلام، وإلى أن خرج
بختنصر الفارسي على مكاييل وقتله سبعة عشر ملكاً بما في ذلك من ملك دلوكة، وهو إنما

يشير إلى من ملكها بعد الطوفان، وأما من ملكها قبل الطوفان فإنه لم يتعرض إلى ذكرهم.
قال: وملكها من الروم سبعة ملوك. ومن اليونان عشرة ملوك.
قال: وذلك قبل ظهور
المسيح عليه السلام.
قال: وملكها أناس من الفرس فكانت مدة من ملكها من الفراعنة ومن بعدهم والعماليق
والفرس والروم واليونان ألفى سنة وثلثمائة سنة. والله أعلم بالصواب.
الباب الثالثمن القسم الرابع من الفن الخامس
ملوك الأعاجم
وهم من ملوك الفرس الأول، وملوك الطوائف من الفرس، والملوك الساسانية واليونان
والسريان والكلوانين والروم والصقالبة والنوكبرد والإفرنجة والجلالقة وطوائف السودان
ملوك الفرس
وهم الفرس الأول
وقد اختلف الناس في الفرس وأنسابهم وكم من دولة كانت لهم. وسنذكر هاهنا مقالاتهم
في ذلك واختلافهم. فمن الناس من زعم أنهم من فارس بن ياسور ابن سام بن نوح، وهذا
قول هشام بن محمد. ومنهم من زعم أنهم من ولد يوسف ابن يعقوب بن إسحاق بن
إبراهيم عليهم السلام. ومنهم من زعم أنهم من ولد هدرام ابن أرفخشد بن سام بن نوح،
وأنه ولد له بضعة عشر رجلاً كلهم كان فارساً شجاعاً؛ قسموا الفرس لفروسيتهم، وفي
ذلك يقول حطان بن المعلى الفارسي:

وبنا سمى الفوارس فرساً ناومنا مناجب الفتيان

وزعم قوم أن الفرس من ولد لوط من ابنتيه رشا ورغوشا.
وذكر آخرون انهم من ولد
بوان بن أران بن الأسود بن سام بن نوح، ولبوان هذا ينسب شعب بوان وهو أحد
متنزهات الدنيا. وقد تقدم ذكره في باب الرياض من الفن الرابع.
ومن الناس من يرى أن الفرس من ولد غيران بن أفريدون، ولا خلاف بين الفرس اجمع انهم
من ولد كيومرث وهو الأشهر، وإليه يرجع جميع الفرس الأول وملوك الطوائف والملوك
الساسانية.
وأما التنازع في دولهم فمن الناس من زعم أنهم أربعة أصناف، وأن الصنف الأول منهم

كان من كيومرث إلى أفريدون وهم الجرهانية، وقيل الجهدهانية. والصنف الثاني من كيان
إلى دارا ابن دارا وهم الكيانية. والصنف الثالث ملوك الطوائف. والصنف الرابع
الساسانية. ومن الناس من جعلهم صنفين: فجعل الصنف الأول من كيومرث إلى دارا بن
دارا. والصنف الثاني من أردشير بن بابك إلى يزدجرد ابن شهريار المقتول في خلافة
عثمان رضي الله عنه. فمدة ملكهم في الدولة الأولى ثلاثة آلاف سنة وثلثمائة وستة
وعشرون سنة. وعدة ملوكهم عشرون ملكاً فيهم امرأة واحدة.
فأول ملك ملك من الفرس الأول كيومرث وقيل فيه جيومرث.
وقد اختلف في نسبه، فمن الناس من قال: إنه ولد آدم لصلبه. ومنهم من قال: إنه ولد
لاوذ بن غرم بن سام بن نوح. وقد قيل: إنه أول ملك ملك من بني آدم. وكان السبب في
ملكه أنه لما كثر البغي والظلم في الناس اجتمع أكابر أهل زمانه ورأوا أنه لا يقيم أمرهم غلا
ملك يرجعون إليه فيما يأمر وينهي، فأتوه وقالوا: أنت أكبر أهل زمانك وبقية أبينا، والناس
قد بغى بعضهم على بعض، وأكل القوي الضعيف، فضم أمرنا إليك وكن القائم بصلاحنا.
فأخذ عليهم العهود والمواثيق بالسمع والطاعة له وترك الخلاف عليه. فصنعوا له تاجاً
ووضعوه على رأسه. وهو أول من وضع التاج على رأسه. فاستوثق له الأمر وقام بأمر
الناس وحسنت سيرته فيهم. وكانت مدة ملكه عليهم أربعين سنة. وكان ينزل إصطخر
من ارض فارس حتى مات. واختلف في مقدار عمره، فقيل: إنه عاش ألف سنة، وقيل
غير ذلك. والله تعالى أعلم.
فلما مات قام بالأمر من بعده أوشهنج ابنه وقيل: أخوه، وقيل: أوشهنج ابن فيشداد بن
كيومرث. وفي الناس من يزعم أنه أول ملك ملك من الفرس، وهو الذي جمع الأقاليم
السبعة، ورتب الملك ونظم الأعمال، ولقب بقيشداد، وتفسيره بالعربية أول سيرة العدل.
ويقال: إن أوشهنج هذا كان بعد الطوفان بمائتي سنة، وهو أول من قطع الحجر وبنى به،
واستخرج المعادن، وبنى مدينتي بابل والسوس.
وكان فاضلاً حسن السياسة محمود الأثر. قال: ونزل الهند وتنقل في البلاد وعقد التاج

وجلس على السرير. وكان من حسن سياسته أنه نفى أهل الفساد والدعارة من البلدان
وألجأهم إلى رءوس الجبال وجزائر البحر، واستخدم منهم من كان يصلح للخدمة وسماهم
الشياطين والعفاريت، وقرب أهل الخبر والصلاح. وكانت مدة ملكه أربعين سنة.
ولما مات ملك طهمورث وقيل فيه طهورث بن أنوجهان بن أوشهنجن وقيل بل بينهما عدة
آباء. قال: ولما ملك سار في الناس سيرة جده أوئهنج. وكان ينزل نيسابور. وقيل إنه الذي
أنشأها ثم جددها بعد ذلك سابور. وقيل: إنه أول من كتب بالفارسية ونفى أهل الدعارة
والشر واستقام له نظام الملك. قيل: وفي أيامه ظهر بوداسف الذي أحدث دين الصابئة.
وكان ملكه ثمانين سنة. وقيل ثلاثين سنة.
ولما مات ملك بعده أخوه جمشيد، وتفسير شيد: الشعاع، سمى بذلك لوضاءة وجهه.
قال: ولما ملك سيرة من تقدم وزاد عليها بأن صنف الناس وطبقهم ورتب منازل الكتاب
وأمر لكل واحد وظيفة وأمره أن يلزمها. وعمل أربعة خواتيم: خاتماً للحرب والشرط
وكتب عليه الأناة، وخاتماً للخراج وجباية الأموال وكتب عليه العمارة، وخاتماً للبريد وكتب
عليه الوحا، وخاتماً للمظالم وكتب عليه العدل. فبقيت هذه الرسوم في ملوك الفرس إلى أن
جاء الإسلام.
وكان ملكه ستمائة سنة. وقيل سبعمائة سنة وستة أشهر. وقيل ألف سنة إلا عشر
سنين. وفي أيامه أحدث النيروز وجعله عيداً، وأمر الناس أن يتنعموا فيه. ثم بدل سيرته
بالجور بعد الإنصاف، والظلم بعد العدل، والإساءة بعد الإحسان، فثقلت وطأته على
أناس. ثم أظهر الكبر على وزرائه وكتابه وقواده.
ثم انهمك على لذاته وترك مراعاة كثير من السياسة الملوكية التي جرت عادة الملك أ،
يتولاها بنفسه. وقيل: إنه ادعى الإلهية فخرج عليه بيوارسب، وكان من جملة عماله،
واستجلب الناس وجمعهم عليه واستصلحهم لنفسه، وقصد جمشيد يعد أن كثرت أتباعه
وقويت شوكته، فهرب منه فاتبعه حتى أدركه وظفر به ونشره بمنشار.

وملك بعد جمشيد بيوراسب؛ وهو الذي يسميه العرب الضحاك.
قالوا: وهو بيوراسب
بن أروندا سف بن بغلداس بن طوخ بن قروال بن ساعل بن
فرس ابن كيومرث، وهو
الدهاك، فعرب اسمه فقيل الضحاك. وقيل: انه ملك ألف سنة.
وزعم أنه نمرود. وزعم
قوم آخرون أنه كان من عمال بيوراسب على كثير من أعماله.
قال: ولما ملك بيوراسب ظهر منه خبث شديد، وفجور كثير،
وملك الأرض كلها، فسار
فيها بالجور والعسف وسفك الدماء والصلب، وهول على الناس
ومحا سيرة من تقدمه من
الملوك، وسن الأعشار، واتخذ المالهي والغناء. وكان على
منكبيه سلعتان يحركهما إذا
شاء كما يحرك يده، فادعى أنهما حيتان تهويلاً على ضعفاء
الناس. وقد تقدم ذكره في
الباب الرابع من القسم الثالث من الفن الأول، وهو في السفر
الأول من نسخة الأصل في
أخبار أعياد الفرس، فلا حاجة إلى إعادة ما قدمنا ذكره من أمره.
قال: ولما عم الناس جوره كان من سوء عاقبة ذلك أن ظهر
بأصبهان رجل يقال له كابي
من عوام الناس. ويقال: إنه كان حداداً. وكان الضحاك قتل
لكابي ابنين، فبلغ به الجزع
على ولديه عظيماً، فقام وأخذ عصا وعلق عليها جراباً وقيل: بل
علق النطع الذي كان
يشده على وسطه يتقي به النار إذا صنع الحدادة.
وقيل: بل كان جلد أسد. وقيل: بل جلد نمر، ودعا الناس إلى
مجاهدة بيوراسب، فحمل
الأنس ما كانوا فيه من البلاد إن اتبعوه وأطاعوه، فاستفحل
أمره، وكثرت أتباعه، واجتمع
عله أشراف الناس وأكابرهم؛ فقصد بيوارسب. فلما اشرف
عليه هرب عن منازله،
فجاء أشراف الناس إلى كابي الأصبهاني واجتمعوا عليه
ليملكوه، فامتنع من ذلك وقال:
إني لست من بيت الملك، ولكن التمسوا من هو من بيت الملك
فنوليه علينا. وكان
أفريذون بن أثفيان قد استخفى من الضحاك في بعض النواحي،
فجاء إلى كابي الأصبهاني
ففرح الناس به واستبشروا بمقدمه، وكان مرشحاً للملك
فملكوه عليهم، صار كابي من
جملة أعوان أفريدون.
قال: وتفاءل الفرس وتبركوا بذلك العلم الذي كان قد رفعه
كابي الأصبهاني وعظموه،

ورصعوه بعد ذلك بالجواهر وسموه الدرفس وجعلوه علمهم الأكبر الذي يتبركون به، وهو
الذي صار إلى المسلمين في وقعة القادسية. وكانت الفرس لا ينشرونه إلا في الأمور
العظيمة.
قال: ولما هرب بيوراسب ملك بعده أفريذون؛ وهو التاسع من ولد جمشيد. قال: فأول ما
بدا به أن اتبع بيوارسب فأدركه بدنباوند وقتله. وفي يوم قتله أحدث المهرجان على ما
قدمناه. قال: ثم رد أفريذون مظالم الناس وأمر بالإنصاف وبسط العدل، ونظر إلى ما كان
بيوارسب قد اغتصبه من أموال الناس وأملاكهم أراضيهم، فرد ذلك على أهله، وما لم يجد
أهله وقفه على المساكين ومصالح العامة. وكان مؤثراً للعلم وأهله. وكان صاحب طب
وفلسفة ونجوم. وزعن بعض الفرس أن بيوارسب الضحاك هو النمروذ، وأن أفريذون هو
إبراهيم عليه السلام. قال: ودام ملكه خمسمائة سنة. وقال: هو أول من تسمى بكى،
فكان يقال له: كي أفريذون، وهي كلمة يراد بها التنزيه؛ أي روحاني منزه متصل
بالروحانية. وهو أول من ذلل الفيلة وقاتل بها الأعداء. قال: وكان لأفريذون ثلاثة أولاد
وهم: سرم وقيل فيه سلم، وطوخ، وإيرخ وقيل فيه إيران؛ فخشي أفريذون ألا يتفقوا بعده
وأن يبغي بعضهم على بعض، وظن أنه قسم الملك بينهم في حياته بقي الأمر بعده على
انتظام واتساق فقسمه بينهم. فجعل الروم والشام وناحية المغرب لسرم. وجعل الترك
والصين لطوخ. وجعل العراق والهند لإيرج، وهو صاحب التاج والسرير. ففي ذلك يقول
شاعرهم:

وقسمنا ملكنا في دهرنا قسمة اللحم على ظهر الوضم
فجعلنا الروم والشام إلى مغرب الشمس إلى الملك سرم
ولطوخ جعل الترك له فبلاد الصين يحويها ابن عم
ولإيران جعلنا عنوة فارس الملك وفرنا بالنعم

فلما مات أفريذون وثب طوخ وسرم بأخيهما إيران فقتلاه وملكا الأرض بينهما، ولذلك
نشأت العداوة بين الترك والروم، وقامت الحروب، وطلب بعضهم بعضاً بالدماء. فكان من
سوء عاقبة غدرهما بأخيهما وتغلبهما على ملكه أن نشأ ابن لإيران أفريذون يقال له

منوجهر، وقيل اسمه منواشجهر، وقيل فيه منوشهر، فغلب على ملك أبيه إيران.
وملك منوجهر بن إيران بلاد فارس، ثم نشا ابن لطوخ التركي فنفى منوجهر عن بلده
وجرت بينهما حروب، ثم ظفر منوجهر وعاد إلى ملكه، ونفى ولد طوخ وقوى أره وظهر
اسمه. وكان منوجهر موصوفاً بالعدل والإحسان في مملكته.
ويقال: إنه أول من خندق الخنادق، وجمع آلة الحرب، وأول من وضع الدهقنة، وجعل لكل
قرية دهقاناً، وجعل أهلها عبيداً وخولا وألبسهم لباس المذلة.
ولما قوي أمره سار نحو
الترك وطلب بدم أبيه فقتل عميه اللذين قتلا أباه، وأدرك ثأره وانصرف إلى بلاده.
ثم نشأ فراسباب بن ترك من ولد طوخ بن أفريذون وإليه ينسب الترك، فحارب منوجهر
وحاصره بطبرستان، ثم اصطلحا وضربا بينهما حداً لا يجاوزه واحد منهما، وهو نهر
بلخ، فانقطعت الحرب بين فراسياب ومنوجهر. وكان لمنوجهر هذا خطب تدل على سداد
رأيه، ووفور عقله، وجودة فهمه؛ قد ذكرنا بعضها في الباب الرابع من القسم الخامس من
الفن الثاني في وصايا الملوك. قال: وفي أيام منوجهر ظهر موسى بن عمران عليه السلام.
قال: ولما مات منوجهر تغلب فراسياب على إقليم بابل اثنتي عشرة سنة، وأكثر الفساد،
وخرب البلاد، وطم الأنهار ودفن القني، فقحط الناس إلى أن ظهر زوبن طهماسب
فأخرجه عن بلاد فارس إلى تركستان.
وملك زوبن طهماسب وقيل فيه: زاع، وقيل فيه: زاب، وقيل: راسب، وهو من أولاد
منوجهر، وبينه وبين منوجهر عدة آباء. قال: ولما ملك ابتدأ في عمارة ما خربه فراسياب،
وأمر ببناء ما هدم من الحصون، وحفر الأنهار والقنى، حتى عادت البلاد إلى أحسن ما
كانت عليه، ووضع عن الناس الخراج سبع سنين، فعمرت البلاد في أيامه، ودرت معايش
الناس، واحتفر بالسواد نهراً وسماه الزاب، وبنى على حافيته مدينة وهي التي تسمى
المدينة العتيقة، وكورها كوراً وجعلها ثلاثة طساسيج: الزاب الأعلى، والزاب الأوسط،
والزاب الأسفل، ونقل إليها بذور الرياحين، وأصول الأشجار.

وزو هذا أول من اتخذ ألوان الطبيخ، وأنواع الأطعمة، وقسم الغنائم على جنوده. وكانت
مدة ملكه ثلاث سنين.
ثم ملك بعده كرشاسب بن أسباس؛ وأمه من سبط يامين بن يعقوب عليه السلام. قال:
وكان مسكنه ببابل. ومدة ملكه عشرون سنة. وبعض المؤرخين لم يذكره في الملوك. وقال
الشيخ أبو علي أحمد بن محمد بن مسكويه في كتابه المترجم بتجارب الأمم: إن كرشاسب
كان وزيراً لزوبن بن طهماسب، وأنه من أولاد طوخ ابن أفريذون. قال: وقد حكى أن زوا
وكرشاسبا اشتركا في الملك. قال: والصحيح من أمره أنه كان وزيراً لزو ومعيناً له، والذي
أثبت كرشاسب ففي الملوك الشيخ عبد الملك بن عبد الله بن عبدون الحضرمي الشلبي في
كتابه المترجم بكمامة الزهر وصدفة الدرر، وقال: ولم يذكره بعض المؤرخين.
ثم ملك بعده كيقباذ بن زو؛ وقيل فيه: ابن زاب بن تور، وسلك سبيل أبيه فكور الكور،
وبين حدودها، وأمر الناس بالعمارات، واخذ العشر من الغلات لأرزاق الجند. وكان
حريصاً على العمارة، مانعاً لحوزته. والملوك الكيية من نسله. وكان بينه وبين الترك حروب
كثيرة. وكانت إقامته في الحد الذي بين مملكة الفرس والترك بناحية بلخ. وكان ملكه مائة
وعشرين سنة ثم مات.
وملك بعده كيقابوس بن كينة بن كيقباذ الملك. قال: ولما ملك شدد على أعدائه، وقتل
خلقاً كثيراً من عظماء البلاد وسكن بلخ، وولد له ابن لم ير مثله في عصره جمالاً وتمام
خلقة، وسماه سياوخش وضمه إلى رستم الشديد بن دستان من ولد كرشاسب. وكان
أصبهبذا بسجستان وما يليها من قبل كيقابوس وأمره بتربيته. فمضى به رستم إلى
سجستان وتخير له الحواضن والمراضع إلى أن عقل، فجمع له المعلمين، ثم علمه الفروسية
حتى فاق فيها، فقدم به على أبيه وهو كامل الصفات من العقل والأدب والفروسية،
فامتحنه والده فوجده فوق ما يحب.
قال: وكان لكيقابوس زوجة بارعة الجمال يقال إنها بنت فراسياب ملك الترك؛ ويقال: إنها

ابنة ملك اليمن، فهويت سياوخش وهويها، ويقال: إنها كانت ساحرة فسحرته، وآل أمرهما
إلى أن انكشف لأبيه كيقابوس واطلع على ما كان من أمر ابنه وزوجته، فأشفق
سياوخش على نفسه وخشي عاقبة أبيه فتلطف في البعد عنه، فسأل رستم أن يشير على
أبيه لإرساله لحرب فراسياب ملك الترك، وكان قد تجددت بين فراسياب وكيقابوس حشة،
ففعل رستم ذلك وخاطب كيقابوس فيه واستأذن له في جند يضمهم إليه، فأذن له وضم
إليه جنداً كثيفاً وأشخص سياوخش إلى بلاد الترك، فسار حتى التقى بفراسياب فانتظم
الصلح بينهما من غير حرب، فكتب سياوخش إلى أبيه يخبره بما كان بينه وبين فراسياب
من الصلح والاتفاق، فكتب إليه كيقابوس بإنكار ذلك عليه وأمره بمناهضته ومناجزته
الحرب، فرأى سياوخش أنه إن فعل ما أمره به والده من الحرب ونقض الهدنة من غير
سبب وقع يوجب نقضها، يكون ذلك عاراً عليه ومنقصة، فامتنع من إنفاذ أمر أبيه وأجمع
رأيه على الهرب منه، فكتب إلى فراسياب ملك الترك يطلب منه الأمان لنفسه، وعرفه أنه
آثر اللحاق به فأجابه إلى ذلك. وكان السفير بينهما أحد عظماء الترك وأكابرهم يسمى
قيران. فلما استوثق سياوخش من ملك الترك سار نحوه وانصرف من كان معه من جند
أبيه ورجعوا إليه. قال: ولما وصل سياوخش إلى راسياب ملك الترك أكرمه وعظمه
وزوجه بابنته، وهي أم كيخسرو الذي ملك الفرس. ولم يزل على إكرامه إلى أن ظهر له من
أدبه وحسن سياسته، وجميل تلطفه ما أشفق منه وخشي على ملكه لميل الناس إليه
فقتله. وكانت ابنة الملك قد اشتملت من سياوخش على حمل، فقصد أن يسقطه وتحيلوا
في ذلك فلم تسقط؛ ثم جاء قيران، وهو الذي كان السفير في الصلح بين الترك وسياوخس،
وأنكر ما كان من فعل الملك وحذره عاقبة الغدر والطلب بالثأر، وأشار عليه أن يدفع ابنته
زوجة سياوخش إليه لتكون عنده إلى أن تضع وقال: إذا أردت بعد ذلك قتل ولدها
فاقتله؛ فأجابه الملك إلى ذلك وسلم إليه ابنته، فكانت عنده إلى أن وضعت كيخسرو؛

فلما وضعته امتنع قيران من قتله وستر أمره، فكان عند ثيران حتى بلغ، ثم احتال جده
كيقابوس إلى أن أخرجه هو وأمه من بلاد الترك.
قال أبو علي أحمد بن مسكويه في كتابه المترجم بتجارب الأمم: وللفرس في أمر كيقابوس
خرافات كثيرة منها: انهم يزعمون أن الشياطين مسخوه، وقوم منهم يزعمون أن سليمان بن
داود عليهما السلام أمرهم بذلك في خرافات كثيرة ظاهرة الإحالة: من الصعود إلى السماء،
وبناء مدينة كنكر بأسوار من ذهب وفضة وحديد ونحاس وانهار، وأنها ما بين السماء
والأرض؛ وأشباه ذلك مما تحيله العقول السليمة؛ لأن ذلك في قدرة البشر.
قال: ولما تم لكيقابوس أكثر ما كان يقصده سار من خراسان ونزل بابل وترك ما كان يتولاه
بنفسه من السياسات، واحتجب عن الناس وتعاظم عليهم، وآثر الخلوة، فكان من عاقبة
ذلك أن فسد عليه ملكه وغزته الملوك؛ فكان بعد ذلك يغزوهم فيظفر بهم مرة وينكب
أخرى، إلى أن غزا بلاد اليمن، والملك بها يومئذ ذو الأذعار بن أبرهة بن ذي المنار. فلما
أتاه كيقابوس خرج إليه ذو الأذعار في جموعه من حمير وولد قحطان، فظفر به ذو الأذعار
وأسره واستباح عسكره وحبسه في بئر وأطبق عليه طبقاً، فخرج رستم الشيديد من
سجستان في جموع كثيرة من الفرس؛ فالفر ستزعم أنه أوغل في بلاد اليمن واستخرج
كيقابوس من محبسه، واليمن تقول غير ذلك، وأن ملكهم ذا الأذعار لما بلغه إقبال رستم
خرج إليه في جموعه وجنود عظيمة، وخندق كل منهما على نفسه وعسكره، وانهما أشفقا
على جنديهما من البوار، فاتفقا على أن دفع لهم ملك اليمن كيقابوس وانصرف رستم من
غير حرب ورجع بكيقابوس إلى بابل، فكتب له كيقابوس كتاباً بالعتق وأقطعه سجستان.
ونسخة الكتاب الذي كتبه: من كيقابوس بن كيقباذ إلى رستم. إني قد أعتقك من
العبودية، وملكك بلاد سجستان، واجلس على سرير من فضة مموه بالذهب، والبس
قلنسوة من الحرير منسوجة بالذهب متوجة. قال: ومما دل على صحة ما نقل من أمر
كيقابوس قول الحسن بن هانئ:

وقاظ قابوس في سلاسلنا سنين سبعاً وفت لحاسبها
ولما مات كيقابوس ملك بعده ولد ابنه كيخسور بن سياوخش بن كيقابوس. قال: ولما
ملك عقد التاج على رأسه وخطب رعيته خطبة بليغة أعلمهم فيها أنه على الطلب بدم
أبيه سياوخش قبل فراسياب ملك الترك، وكتب إلى جوذرز بأصبهان - وكان أصبهبذا
على خراسان - يأمره بالمسير إليه، وأمره أن يعرض جنده وأن ينتخب ثلاثين ألف راجل
ويضمهم إلى طوس بن نوذران وكان فيمن أشخص معه برزافره بن كيقاوس عم كيخسرو
وابن جوذرز وجماعة من إخوته، وتقدم كيخسرو إلى طوس، وأمره أن يقصد فراسياب
وطراختته وحذره من ناحية ببلاد الترك فيها أخ له من أبيه سياوخش يقال له فروذ، وكان
قد رزقه من بعض نساء الأتراك، كان سياوخش قد تزوجها لما سار إلى فراسياب فولدت
له فروذ، وأقام بموضعه إلى أن شب، فسار طوس وكان من غلطه الذي فعله أنه لما صار
بالقرب من المدينة التي فيها فروذ حار به فقتل فروذ في الوقعة. فلما اتصل الخبر بكيخسرو
غضب لذلك وشق عليه، فكتب إلى عمه برزافره ذلك كتاباً غليظاً يخبره بما ورد عليه من
خبر طوس ومخالفته له ومحاربته لأخيه فروذ وقتله إياه، وأمره بإشخاص طوس إليه مقيداً
مغلولاً، وان يتقدم هو على العسكر ويتوجه. ففعل برزافره ذلك وتولى أمر العسكر، وسار
وعبر النهر المعروف بكاشرود، وانتهى خبره إلى فراسياب فوجه للقائه وحربه جماعة من
إخوته وطراختنه، فالتقوا وفيهم قيران وإخوته، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وظهر من برزافره عم
كيخسرو في ذلك اليوم فشل لما اشتدت الحرب، فهرب وانحاز بالعلم إلى رءوس الجبال،
واضطرب على ولد جوذرز الأمر، فقتل منهم في تلك الملحمة في وقعة واحدة وسبعون
رجلاً، وقتل خلق كثير، وانصرف برزافره ومن أفلت معه إلى كيخسرو، فرئيت الكآبة في
وجهه وامتنع عن الطعام والشراب أياماً، ثم أتاه جوذرز وشكا إليه عمه برزافره وأنه كان
سبب الهزيمة، لاطفه كيخسرو وقال: إن حقك لازم لنا لخدمتك إيانا، وهذا جندنا

وخزائننا مبذولة لك فاطلب ترتك واستعد وتجهز للتوجه إلى فراسياب. فنهض جوذرز
وقبل يده وقال: نحن رعيتك وعبيدك أيها الملك، فإن كانت آفة أو نازلة فلتكن بالعبيد دون
الملوك، وأولادي الذين قتلوا فداؤك، ونحن من وراء الانتقام من فراسياب والاستيفاء من
الترك. فكتب كيخسرو إلى وجوه عساكره وأكابر أجناده يأمرهم بموافاته في صحراء
تعرف بشاه أسطون من كورة بلخ في وقت وقته لهم، فوافوه في ذلك الوقت، وشخص
كيخسرو بأصبهبذيته وأصحابهم وفيهم برزافره عمه وجوذرز وولده، فعرض كيخسرو
الجند بنفسه حتى عرف عدتهم واطلع على أحوالهم، ثم أحضر جوذرز وثلاثة نفر معه
من القواد فأعلمهم أنه يريد إدخال العساكر على الترك من أربعة وجوه ليحيطوا بهم من
جميع جهاتهم، وقود على تلك العساكر، وجعل أعظمها إلى جوذرز، ودفع إليه يومئذ
درفس كابيان، ولم يكن يدفع قبل ذلك لأحد من القواد، بل مع أولاد الملوك.
قال: وأمر أحد القواد بالدخول مما يلي الصين وضم إليه ثلاثين ألف رجل، وأمرهم بالدخول
من ناحية الخزر من طريق بين جوذرز وبين الذي دخل من طريق الصين، ودخل جوذرز من
ناحية خراسان وبدا بقيروان والتحمت بينهما الحرب واشتد القتال، فقتل جوذرز أخا
لقيران، ثم قتل قيبران مبارزة، ثم قصد فراسياب والتحمت عليه العساكر من كل جهة،
واتبع كيخسرو القوم بنفسه وقصد الوجه الذي كان فيه جوذرز، وقد أثخن في القتل وقتل
اصبهبنذ فراسياب والمرشح للملك بعده، وجماعة كثيرة من إخوته وأولاده، وأسر برويز
وهو الذي قتل سياوخش.
قال: ولما جاء كيخسرو وجد جوذرز قد أحصى الأسرى والقتلى وما غنم من الكراع
والأموال، فوجد ما في يده من الأسرى ثلاثين ألفاً، ومن القتلى خمسمائة ألف ونيفاً وستين
ألفاً على ما تزعم الفرس، وحاز من الكراع والأموال مالا يحصى كثرة، وأمر كل واحد من
الوجوه الذين كانوا معه أن يجعل أسيره ورأس قتيله عند علمه لينظر إلى ذلك كيخسرو

عند موافاته. فلما وافى كيخسرو موضع الملحمة تلقاه جوذرز وعرض عليه الأسرى
والقتلى، فرأى قيران قتيلاً، وأتى بقاتل أبيه الذي مثل به بعد قتله. فقتله كيخسرو شر
قتلة؛ قطعه عضواً عضواً ثم ذبحه، وأحسن صلة جوذرز وفوض الوزارة التي يقال لها بزر
جفر مذار وجعل إليه مع ذلك أصبهان وجرجان، وأحسن لكل من أبلى من قواده
ورجاله، ثم أتته أخبار قواده الثلاثة أنهم قد أحاطوا بفراسياب، وبرز فراسياب ومن بقي
من ولده وعساكره وتوجه نحو كيخسرو بجيوش عظيمة، فيقال إن كيخسرو أشفق منه
وهابه حتى ظن أنه لا قبل له به، ودام القتال بين العسكرين أربعة أيام، فقتل شيده مقدم
عسكر فراسياب، وكانت هذه الحرب معه، ثم أقبل فراسياب في جمع عظيم من الأتراك
والتقى هو وكيخسرو ونشبت بينهما حروب عظيمة يقال إنه لم ير مثلها قبلها قط على وجه
الأرض، فكانت الدائرة على الترك، وانهزم فراسياب وكثر القتل في أصحابه وأتبعه كيخسرو
حتى أدركه بأذربيجان فظفر به واستوثق منه بالحديد ووبخه على ما كان منه من قتل
سياوخش، فلم يكن له حجة، فذبحه ثم انصرف. وقد غنم غنائم عظيمة لا تحصى
وأدرك بثأره.
قال: ولما فرغ كيخسرو من أمر الترك ورجع إلى بلاده واستقر بدار ملكه زهد في الملك
وتنسك، وأعلم وجوه أهل بيته وأكبر مملكته أنه قد عزم على التخلي والانفراد وترك الملك،
فجزعوا من ذلك وسألوه ألا يفعل، فأبى عليهم. فلما أيسوا منه سألوه أن ينصب في الملك
من يراه له أهلاً، فأشار بيده إلى لهراسف وأعلمهم أنه خاصته ووصيته، فقبل لهراسف
ذلك وأقبل الناس عليه. وفقد كيخسرو. فمنهم من يقول: إنه غاب للتنسك، وبعضهم يقول
غير ذلك، إلا أنه لم تعلم جهة وفاته. قال: وكان ملكه ستين سنة. قال: وفي أيام ملكه كان
سليمان بن داود عليه السلام.
ثم ملك بعده لهراسف؛ وقيل فيه بهراسف بن تنوفي بن كيمش وهو ابن أخي كيقابوس
ويلقب بكى لهراسف. قال: ولما ملك اتخذ سريراً من ذهب مكللاً بالجوهر للجلوس عليه،

وبنيت له بأرض خراسان مدينة، وسماها بلخ الحسناء.
قال: وهو أول من دون الدواوين، وقوى ملكه بانتخاب الجنود، وعمر الأرض. وكانت
شوكة الأتراك اشتدت في زمانه، فنزل بلخ لمقاتلتهم، ووجه بختنصر أصبهبذاً ما بين الأهواز
إلى أرض الروم، من غربي الفرات. وسنذكر أخباره إذا انتهت أخبار لهراسف.
قال: وكان لهراسف بعيد الهمة، طويل الفكرة، شديد القمع للملوك المحيطة لإيران شهر.
وكانت ملوك الروم والمغرب والهند يؤدون إليه إتاوة معلومة في كل سنة، ويقرون له أنه ملك
الملوك هيبة له، واستمر في الملك إلى أن كبرت سنه وأحس بالضعف فاعتزل الملك ونصب
ابنه بشتاسب. وكان ملكه فيما ذكر مائة وعشرين سنة.
أخبار بختنصر
ويقال في اسمه بالفارسية بخترشه، وكان مرزبانا ببهراسف، ومعنى الورزبان أنه ملك على
ربع من أرباع المملكة. وقد قدمنا أن الملك لهراسف كان قد جعله أصبهبذا ما بين
الأهواز إلى أرض الروم. قال: فسار حتى أتى دمشق فصالحه أهلها، ووجه قائداً له فأتى
بيت المقدس فصالح ملك بني إسرائيل، وهو رجل من بني داود النبي عليه السلام، وأخذ
منه رهائن وانصرف. فلما بلغ طبرية وثب بنو إسرائيل على ملكهم فقتلوه وقالوا له: إنك
هادنتن أهل الكفر وخذلتنا واستعدوا للقتال؛ فكان عاقبة ذلك أن قائد بختنصر - لما بلغه
ما كان من بني إسرائيل - كتب إليه يخبره بقتلهم ملكهم، فأجابه بختنصر أن يقيم بموضعه
حتى يوافيه، وأمره بضرب أعناق الرهائن الذين معه. وسار بختنصر حتى أتى بيت
المقدس فأخذ المدينة عنوة وقتل المقاتلة وسبي الذرية وهرب الباقون إلى مصر، فكتب
بختنصر إلى ملك مصر: أن عبيدا لي هربوا مني إليك فسرحهم إلي وإلا غزوتك وأوطأت
خيلي بلادك، فكتب إليه ملك مصر: إنهم ليسوا عبيدك، ولكنهم الأحرار أبناء الأحرار،
وامتنع من إنفاذهم إليه، فغزاه بختنصر وقتله وسبى أهل مصر، ثم سار في أرض المغرب
حتى بلغ أقصى نواحيها. قال صاحب كتاب تجارب الأمم: وقد حكى أهل التوراة

وغيرهم في أمر بختنصر أقوالاً مختلفة، فذكروا منها: أن بختنصر لما خرب بيت المقدس أمر
جنوده أن يملأ كل رجل منهم ترسه تراباً ثم يقذفه في بيت المقدس، فقذفوا فيه من التراب
ما ملأه. قال: ولما انصرف إلى بابل اجتمع معه سبايا بيت المقدس من بني إسرائيل
وغيرهم، فاختار منهم سبعين ألف صبي، فلما فرق الغنائم على جنوده سألوه أن يقسم
فيهم الصبيان، فقسمهم في الملوك منهم، فأصاب كل رجل منهم أربعة، وكان من أولئك
الغلمة الذين سباهم، دانيال النبي وحنين ومنشايل، وسبعة آلاف من أهل بيت داود،
وأحد عشر ألفاً من سبط بشر بن يعقوب. ثم غزا بختنصر العرب، وذلك في زمن معد بن
عدنان.
قال: وكانت مدة غلبة بختنصر إلى أن مات أربعين سنة، ثم قام ابن له يقال له أونمروذ ثم
هلك، وملك مكانه ابن له يقال له بلتنصر، وذلك في زمن بهمن، فلم يرض بهمن أمره فعزله
وملك مكانه كيرش، وتقدم إليه بهمن أن يرفق ببني إسرائيل ويمكنهم من النزول حيث
سألوا، أو الرجوع إلى أرضهم، وأن يولي عليهم من يختارونه، فاختاروا دانيال فولاه أمرهم.
فكانت مدة خراب بيت المقدس سبعين سنة. وقيل غير ذلك.
ولنرجع إلى أخبار الفرس.
ولما اعتزل لهراسف الملك كما ذكرناه ملك بعده كي بشتاسف بن كي لهراسف. قال: ولما
ملك بنى مدينة فسا، وهو أول من بسط دواوين الكتاب لا سيما ديوان الرسائل. وكان له
ديوانان أحدهما: ديوان الخراج، والآخر ديوان النفقات، فكل ما يرد فإلى ديوان الخراج، وكل
ما يصرف فمن ديوان النفقات. وكان له كاتب موكل بدار المملكة، فإن وقع تقصير بأحد في
منزلته، أو حط من ردجته رجع إلى ذلك الكاتب ليبين له حال مرتبته فيجري على رسمه
وعادته.
وفي أيامه ظهر زرادشت بعد ثلاثين سنة من ملكه فادعى النبوة فأراده على قبول دينه
فامتنع من ذلك ثم صدقه وقبل دعواه، وأتاه بكتاب يكتب في جلد اثنتي عشرة ألف بقرة
حفرا في الجلود ونقشا بالذهب، فصير بشتاسف ذلك الكتاب بإصطخر ووكل به الهرابذة،

ومنع من تعليمه العامة. وبنى ببلاد الهند بيوتاً للنيران، وتنسك واشتغل بالعبادة، وهادن
كي خرزاسف بن كي سواسف ابن أخي فراسياب ملك الترك على ضروب من الصلح،
وفي جملة شريطة الصلح ألا يكون ببلاد خرزاسف دابة موقوفة في منزلة الدواب التي تكون
على أبواب الملوك، وغير ذلك مما وقعت عليه المهادنة. فأشار زرادشت على بشتاسف
بنقض الهدنة ومفاسدة ملك الترك، فبلغ ملك الترك ذلك، فغضب وكتب إليه كتاباً غليظاً
من جملته أن يوجه إليه زرادشت، وأقسم إن امتنع أن يغزوه حتى يسفك دمه ودماء أهل
بيته؛ فأجابه بشتاسف بجواب أغلظ من كتابه وآذنه بالحرب وأعلمه أنه غير ممسك عنه إن
أمسك هو. فسار كل منهما إلى الآخر، ومع كل واحد منهما إخوته وأهل بيته، والتقوا
واقتتلوا قتالاً شديداً، فكانت الدائرة على الترك، وقتل اسفنديار بن بشتاسف بيدرفش
الساحر مبارزة؛ وقتلت الترك قتلاً ذريعاً، وهرب ملكهم خرزاسف ورجع بشتاسف إلى
بلخ.
قال: فلما مضت لتلك الحرب سنون سعى رجل يقال فروخ بإسفنديار إلى بشتاسف
ونسبه أنه تطاول للملك، وزعم أنه أحق به، فأفسد بذلك قلب بشتاسف عليه، وصدق
مقالة فروخ، فأخذ في التدبير على إسفنديار وجعل يرسله إلى حرب بعد حرب، وهو يظفر
وينجح ويرجع بالغنائم، ثم أمر بتقييده فقيد، وصيره في الحبس في حصن من حصونه،
وسار بشتاسف إلى جبل يقال له طميدر لدراسة دينه والتنسك هناك، وخلف أباه
لهراسف في مدينة بلخ، وقد كبرت سنة وهرم وعجز.
قال: فاتصل هذا الخبر بخرزاسف ملك الترك، فجمع من الجنود ما لا يحصى كثرة،
وشخص من بلاده نحو بلخ حتى إذا انتهى إلى تخوم ملك فارس قدم أمامه جوهر مز أخيه،
وكان مرشحاً للملك، في جماعة كثيرة من المقاتلة، وأمرهم أن يغذوا السير حتى يتوسطوا
المملكة، ثم يواقعوا بأهلها ويشنوا الغارة على المدن والقرى. ففعل جوهرمز ذلك وسفك
الدماء واستباح الحرم، وسبى ما لا يحصى، وأتبعه خرزاسف ملك الترك حتى انتهى إلى

مدينة بلخ، فاحرق الدواوين وقتل لهراسف والهرابذة، وهدم بيوت النيران، واستولى على
الأموال والكنوز، وسبى ابنتين لبشتاسف وأخذ درفس كابيان، وسار في طلب بشتاسف
فتحصن منه في جبل طميدر؛ فعند ذلك ندم بشتاسف على ما كان منه في حق ابنه
إسفنديار؛ فيقال: إنه وجه من استخرجه من محبسه، وجاءه به؛ فلما دخل عليه اعتذر
منه ووعده عقد التاج على رأسه، وأن يفعل معه كما فعل لهراسف به. وقلده أمر عساكره
وندبه لحرب ملك الترك. فطابت نفس إسفنديار بكلام أبيه له، وتأهب لوقته، وسار بالجنود
صبيحة النهار نحو الترك. فلما قرب منهم تبادروا بحربه؛ فكان ممن خرج إليه منهم
جوهرمز واندرمان، فالتقوا والتحمت بينهم الحرب، فانقض إسفنديار على عساكر الترك
بنفسه واختلط بهم، وقاتل حتى ثلم فيهم ثلمة عظيمة، وفشا في الترك أن إسفنديار قد
أطلق من محبسه، وأنه الذي يقاتلهم، فانهزموا لا يلوون على شيء. واسترجع إسفنديار
من الترك الدرفس وعاد إلى أبيه، فاستبشر وأمره باتباع القوم وقتال خرزاسف وقتله - إن
ظفر به - بجده لهراسف، وقتل جوهرمز واندرمان بمن قتل من ولده، وأن يهدم حصون
الترك ويحرق مدنهم ويقتل أهلها بمن قتلوا من أهل بلاده، ويستنقذ من سبوه من بناته.
فدخل إسفنديار بلاد الترك ورام مل لم يرمه أحد قبله، واعترض العنقاء ورماها على ما
يزعم الفرس، ودخل مدينة الصفر عنوة، وقتل ملكها وأخوته ومقاتلته، واستباح أمواله
وسبى ذراريه ونساءه واستنقذ أختيه، وكتب بالفتح إلى أبيه. ولم يستقل إسفنديار هذا
بالملك.
والذي ملك الفرس بعد بشتاسف أردشيربهمن بن إسفنديار بن بشتاسف. وتفسير بهمن
بالعربية: الحسن النية.
قال: ولما ملك أردشير انبسطت يده وتناول الممالك حتى ملك الأقاليم. وكانت ملوك
الأرض تحمل إليه الإتاوة، وابتنى بالسواد مدينة وهي المعروفة بهيمنيا، وهو أبو دارا الأكبر،
وأبو ساسان. قال: وكان بهمن كريماً متواضعاً. وكانت تخرج كتبه: من اردشير بهمن عبد

الله وخادم الله والسائس لأمركم. ويقال: إنه غزا رومية الداخلة في ألف ألف مقاتل. ومن
المؤرخين من ذهب إلى أن بهمن هذا هو الذي جهز بختنصر لغزو العرب وغيرهم. وكانت
مدة ملك أردشير مائة واثنتي عشرة سنة.
ولما مات ملكت بعده ابنته جماز هرازاد، وهي جماني أم ابنه دارا. قال: وكانت قد
حملت منه بدارا الأكبر وسألته أن يعقد التاج للذي في بطنها ويؤثره بالملك، ففعل أردشير
ذلك. وكان ابنه ساسان يتصنع للملك ولا يشك أنه يكون هو الملك بعد أبيه. فلما رأى ما
فعل أبوه شق ذلك عليه، فلحق بإصطخر وتزهد، وخرج عن حلية الملوك، واتخذ غنيمة
وكان يتولاها بنفسه، فاستشنع الناس ذلك من فعله وقالوا: صار ساسان راعياً؛ ولم تزل
جماني قائمة بأمر الملك، ضابطة له، وأغزت الروم جيشاً بعد جيش وأوتيت ظفراً، فقمعت
الأعداء وشغلتهم من التطرق إلى شيء من بالدها، ونال رعيتها بتدبيرها رفاهية وأمن إلى
أن كبر ابنها.
فملك دارا بن أردشير بهمن. قال: ولما كبر حول للتاج إلى رأسه ونزل بابل. وكان ضابطاً
لملكه، قاهراً لمن حوله من الملوك، يؤدون إليه الخراج. وابتنى بفارس مدينة وسماها دارا
بجرد. ورتب دواب البريد. وكانت مدة ملكه اثنتي عشرة سنة.
وملك بعده ابنه دارا ابن دارا بن أردشير، وكان دارا هذا حقوداً جباراً، فمله قومه،
وغزاه الإسكندر بن فيلبس اليوناني، والتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً، فقتل دارا بن دارا.
وسنذكر خبر مقتله في أخبار الإسكندر.
فهؤلاء ملوك الفرس الأول. ثم تبدد ملك الفرس وانتثر لقتل دارا بن دارا، واستقل
الإسكندر بالملك. وملك بعده من نذكره من ملوك اليونان، وتفرق ملك الفرس أربعمائة
سنة إلى أن عاد إلى بني ساسان، وهأنا ذاكر خبر موك الوائف ما بين دارا بن دارا
وأردشير بن بابك.

ملوك الطوائف

وملوك الطوائف هم الذين ملكوا بلاد فارس ما بين دارا بن دارا وأردشير ابن بابك الذي
جمع ملك الفرس بعد تبدده، ونظمه بعد انتثاره. وكان من خبرهم أن الإسكندر لما قتل

دارا بن دارا وغلب على بلاد الفرس هم بقتل أكابرهم، فكتب إلى معلمه أرسطاطاليس
يستشيره في ذلك، فنهاه عن قتلهم وقال: هذا من الفساد في الأرض، وإذا قتلتهم أنبتت
أرض بابل أمثالهم؛ وأشار عليه أن يفرق المملكة بين أولاد الملوك، فإنهم يتنافسون الملك فلا
يجتمعون على ملك واحد منهم، فمتى خالفك واحد كانت مؤنته عليك خفيفة؛ ففعل ذلك،
وفرق الملك حتى أمكنه أن يتجاوز أرض فارس إلى بلاد الهند والصين. فكانت ملوك
الطوائف في إقليم بابل لا يدين بعضهم إلى بعض.
فكان من ملوكهم الذين ملكهم الإسكندر: أشك بن دارا الأكبر؛ فقوى أشك هذا
وعظمته الملوك وقدموه على أنفسهم، وبدأوا به في كتبهم إليه إجلالاً له، وبدأ في كتبه إليهم
بنفسه، وسموه ملكاً، وأهدوا إليه من غير أن يطيعوه أو يستعمل أحداً منهم أو يعزله،
وكثرت جموعه إلى أنطيخس، وكان مقينماً بسواد العراق من قبل الروم، وتقدم أنطيخس
إليه والتقيا ببلاد الموصل واقتتلا فقتل أنطيخس وغلب أشك على السواد، وصار في يده
من الموصل إلى الري وأصفهان، ولذلك عظمته ملوك الطوائف.
ثم ملك جوذرز بن أشكان. وهو الذي غزا بني إسرائيل المرة الثانية؛ وذلك بعد قتلهم
يحيى بن زكرياء عليهما السلام، فسلطه الله تعالى عليهم فأكثر فيهم القتل فلم يعد لهم
جماعة بعد ذلك، ورفع الله عنهم وانزل بهم الذل.
وكان من سنة الفرس بعد الإسكندر أن يخضعوا لمن ملك بلاد الجبل، وهم الأشغانية؛
فأولهم أشك بن أشكان، ثم سابور بن أشكان، وفي أيامه ظهر المسيح عيسى بن مريم
عليه السلام بأرض فلسطين. ثم ملك جوذرزبن أشغانان الأكبر.
ثم ملك بيزن الأشغاني.
ثم ملك جوذرز الأشغاني. ثم نرسي الأشغاني. ثم هرز. ثم أردوان الأشغاني. ثم
كسرى الأشغاني. ثم بلاش الأشغاني. ثم أردوان الأصغر الأغاني. ثم أدرشير بن بابل.
فكانت مدة هؤلاء، إلى أن وثب أردشير بن بابك على الأردوان فقتله، مائتين وستاً وستين
سنة.

وفي أيام ملوك الطوائف اصطلمت طسم وجديس. وسنذكر إن شاء الله خبرهم.
الملوك الساسانية
وهم الفرس الأخر. وألو من ملك منهم أردشير بن بابك بن ساسان الأصغر. وكان من
أعظم ملوك الطوائف وملوك الأشغانية، فوثب بالأردوان وقتله واستولى على الممالك وقاد
الملوك إلى طاعته رغبة ورهبة. وكتب إلى ملوك الطوائف يدعوهم إلى الاجتماع إليه: بسم
الله ولي الرحمة. من أردشير المستأثر دونه بحقه المغلوب على تراث آبائه، الداعي إلى قوام
دين الله وسنته، المستنصر بالله، الذي وعد المحقين الفلح، وجعل لهم العواقب؛ إلى من بلغه
كتابي هذا من ملوك الطوائف. سلام عليكم بقدر ما تستوجبون بمعرفة الحق، وإنكار
الباطل والجور. ودعاهم إلى الطاعة: فمنهم من أقر له بالطاعة، ومنهم من تربص حتى قدم
عليه، ومنهم من عصاه فكانت عاقبة أمره إلى القتل والهلاك؛ حتى استوثق له الأمر.
فكانت طائفة الأشكانية ممن امتنعت من طاعة أردشير، فاقسم أنه لا يبقى منهم - إن قدر
عليهم - رجلاً ولا امرأة. فلما غلب عليهم ما نجا منهم إلا من أخفى اسمه ونسبه. وقد
كان أخذ في جملة من أخذ منهم ابنة ملكهم، وكانت بارعة الجمال، وافرة العقل. فلما رآها
قال لها: أنت من بنات ملوكهم؟ قالت: بل من خدمهم. فاصطفاها لنفسه، فحملت منه.
فلما علمت بالحمل شهرت نفسها وقالت: أنا ابنة ملكهم. فعند ذلك أمر شيخاً من رجاله
الذين يثق لهم يقال له هرجند بن سام بأن يودعها في بطن الأرض إشارة إلى قتلها. فقالت:
أيها الشيخ، إنني قد حملت من الملك فلا تبطل زرعه، فعمل لها سرباً تحت الأرض وجعلها
فيه، ثم عمد إلى مذاكيره فجبها ووضعها في حق وختم عليه ورجع إلى الملك وقال: قد
أودعتها بطن الأرض؛ ودفع له الحق وقال: إن فيه وديعة وأحب أن يكون عند الملك إلى أن
أحتاج إليه، فاستودعه الملك؛ وأقامت الجارية في السرب حتى كملت مدة حملها، فوضعت
غلاماً فسماه الشيخ: شاه بور، أي ولد الملك؛ فسماه الناس سابور. وبقي أردشير هذا

دهراً لا يولد له، فرآه الشيخ في بعض الأيام وقد ظهر عليه الحزن، وكان خاصاً به، فقال له:
ما هذا الحزن سرك الله أيها الملك وعمرك.
فقال: من أجل أنه ليس لي ولد يرث ملكي. فقال له الشيخ: إن لك عندي ولداً طيباً فادع
بالحق. وأمر أردشير بإحضاره فأحضر، ففض ختمه فإذا فيه مذاكير الشيخ وكتاب فيه:
إنه لما أمرني الملك بقتل المرأة الأشكانية التي علقت من ملك الملوك أردشير لم أر أن أبطل
زرع الملك الطيب فأودعتها بطن الأرض كما أمرني، وتبرات إليه من نفسي لئلا يجد عائب
إلى عيبها سبيلاً؛ فسر أردشير بذلك، وأمر الشيخ أن يجعل الغلام بين مائة غلام من
أشباهه في الهيئة وأقرانه في السن، ثم يدخلهم عليه، فعل ذلك، فعرفه أردشير من بينهم
وقبلته نفسه، ثم أمرهم أن يلعبوا في حجرة الإيوان بالصوالج، فدخلت الأكرة الإيوان،
فأحجم الغلمان عن دخولهم وأقدم سابور، فأمر أردشير عند ذلك بعقد التاج له.
وكان اردشير من أهل العقل والمعرفة وحسن التدبير، وله وصايا ومكاتبات صدرت عنه
تدل على حكمة ورجاحة عقل. وقد تقدم إيرادها في الباب الرابع من القسم الخامس من
الفن الثاني في وصايا الملوك. وكانت مدة ملكه أربع عشرة سنة وستة اشهر.
ثم ملك بعده ابنه سابور بن أردشير؛ والعرب تسميه سابور الجنود. وسابور هذا هو
الذي حصر الضيزن، وملك الحضر، وهو من مباني العرب المشهورة. وقد تقدم ذكره في
الباب الثالث من القسم الخامس من الفن الأول هو في السفر الأول. فلا حاجة إلى إعادة
ذكره.

وفي أيامه ظهر ماني الزنديق تلميذ قاردون وقال بالاثنين، فرجع سابور إلى مذهب ماني
والقول بالنور والبراءة من الظلمة، ثم عاد إلى دين المجوسية وترك المانوية، وهو المسمى
عندهم بدين الثنوية. وكانت مدة ملكه ثلاثين سنة. وقيل إحدى وثلاثين سنة ونصف
سنة وثمانية عشر يوماً.
ثم ملك ابنه هرمز بن سابور؛ وهو الذي يدعى هرمز البطل، ويلقب أيضاً بالجرئ. وبنى

رامهرمز بين كور الأهواز. وكانت مدة ملكه سنة وعشرة اشهر.
ثم ملك ابنه بهرام بن هرمز. قال: ولما ملك جاءه ماني الزنديق فعرض عليه مذاهب
الثنوية فأجابه إلى ذلك احتيالاً منه عليه، إلى أن أحضر له دعاته المتفرقين في البلاد الذين
يدعون الناس إلى مذاهب الثنوية. فلما أحضرهم إليه قتلهم وقتل ماني وسلخه.
وفي أيام ماني هذا ظهر اسم الزنادقة الذين أضيفتع إليهم الزندقة. وذلك أن الفرس كان لهم
كتاب يسمونه السنا، وكان له شرح يسمى الزند. فكان من أتاهم بزيادة على ما في كتابهم
زنديا. فلما جاءت العرب أخذت هذا المعنى من الفرس فعربته وقالت زنديق. فالثنوية هم
الزنادقة، فألحق هذا السام بسائر من اعتقد القدم وأبى حدوث العالم وأنكر البعث.
والذي أتى الفرس بهذا الكتاب زرادشت في زمن الفرس الأول. وقد قدمنا ذكره في أخبار
بشتاسف. وهذا زرادشت هو الذي تزعم المجوس أنه نبيها الذي أرسل إليها. وكان
زرادشت خادم شعيا فدعا شعيا عليه فبرص. وكان صاحب نيرجات وسحر. وكان
يحرز بعض الكوائن قبل أن تقع مما كان قد سمعه من شعيا وقت خدمته له، وادعى النبوة
في المجوس وعمل لهم الكتاب الذي قدمنا ذكره، وزعم أنه أنزل عليه من السماء، وجعل
كلامه فيه يدور على نيف وسبعين حرفاً، فلم يقدر أحد منهم على قراءته فاختصره لهم
وسمى مختصره الزند.
فلما قام ماني بدين الثنوية سمته المجوس زندين وسموا أصحابه الزنادنة لأنه زاد في شرعهم
الذي شرعه لهم زرادشت، فقتل بهرام هذا مانياً وصلبه على باب من أبواب مدينة من
مدنه بالعراق؛ فيدعى ذلك الباب إلى آخر وقت باب ماني، وكانت مدة ملك بهرام ثلاثاً
وثلاثين سنة وثلاثة اشهر.
ثم ملك بعده ابنه بهرام بن بهرام. قال: ولما ملك أقبل في أول ملكه على اللهو والصيد
والنزه، وترك ملكه لا يفكر فيه ولا في رعيته، فخربت البلاد ونقصت بيوت الأموال. فلما
كان في بعض الأحيان ركب إلى بعض متنزهاته وصيده فجنه الليل وهو يسير نحو المدائن،

وكانت ليلة قمراء. فدعا بالموبذ لأمر خطر بباله، والموبذ عند المجوس كالقسيس عند
النصارى، فجعل يحادثه فتوسطا في مسيرهم بين خرابات كانت من أمهات الضياع فخربت
في ملكه، وإذا بوم يصيح وآخر يجاوبه، فقال الملك: أترى أحداً من الناس أعطي فهم ما
يقول هذا الطائر؟
فقال الموبذ: أنا أيها الملك ممن خصه الله تعالى بذلك. قال: فما يقول هذا الطائر، وما يقول
الآخر؟ فقال الموبذ: هذا بوم ذكر يخاطب بومة أنثى ويقول: متعيني من نفسك حتى يخرج من بيننا أولاد يسبحون الله تعالى.
فأجابته البومة: إن الذي
دعوتني إليه هو الحظ الأكبر، والنصيب الأوفر، إلا أنني أشترط عليك شرائط. فقال: وما
هي؟ فقالت: أن تقطعني من خرابات أمهات الديار عشرين قرية مما خربت في أيام هذا
الملك السعيد. فقال له الملك: فما الذي قال الذكر؟ قال الموبذ: كان من قوله لها: إن دامت
أيام هذا الملك السعيد أقطعتك منها ألف قرية، فما تصنعين بها؟ قالت: في اجتماعنا
ظهور النسل وكثرة الولد، فنقطع كل واحد من الأولاد ضيعة. فقال الذكر: هذا سهل ما
حيي الملك.
فلما سمع الملك هذا الكلام من الموبذ عمل في نفسه وفكر فيما خوطب به، فنزل من
ساعته وخلا بالموبذ وقال له: ما هذا الكلام الذي خاطبتني به؟ فقد حركت مني ما كان
ساكناً. فقال: صادفت من الملك وقت سعد بالعباد والبلاد، فجعلت الكلام مثلاً وموقظاً
على لسان الطائر عند سؤال الملك إياي. فقال له الملك: أيها الناصح للملك، المنبه على ما
أغفله من أمور ملكه، وأضاعه من أمور بلاده ورعيته، اكشف لي عن هذا الغرض ما
المراد منه. فقال له: أيها الملك! إن الملك لا يتم إلا بالشريعة والقيام لله بطاعته، ولا قوام
للشريعة إلا بالملك، ولا عز للملك إلا بالرجال، ولا قيام للرجال إلا بالمال، ولا سبيل للمال إلا
بالعمارة، ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل، والعدل هو الميزان المنصوب بين البرية، نصبه الرب
وجعل له قيماً وهو الملك.
قال: أما ما وصفت فحق، فأبن لي عما إليه تقصد، وأوضح لي في البيان. قال: نعم أيها

الملك! عمدت إلى الضياع فأقطعتها الخدم وأهل البطالة فعمدوا إلى ما تعجل من غلاتها
فاستعجلوا المنفعة وتركوا العمارة والنظر في العواقب وما يصلح الضياع، وسومحوا في الخراج
لقربهم من الملك، ووقع الحيف على الرعية وعمار الضياع فانجلوا عن ضياعهم، وقلت
الأموال، وهلكت الجند والرعية، وطمع في ملك فارس من طمع فيه من الملوك والأمم،
لعلمهم بانقطاع المواد التي بها تستقيم دعائم الملك. فلما سمع الملك ذلك أقام في موضعه
ثلاثة أيام، وأحضر الوزراء والكتاب وأرباب الدواوين، فانتزعت الضياع من أيدي الخاصة
والحاشية وردت إلى أربابها، وحملوا على رسومهم السالفة، وأخذوا بالعمارة، وقوى نم
ضعف منهم، وعمرت البلاد، وكثرت الأموال، وقويت الجند، وانتظم ملكه حتى كانت أيامه
تدعى بالأعياد، لما عم الناس من الخصب، وشملهم من العدل. وكان ملكه سبع عشرة
سنة.
ثم ملك ابنه بهرام بن بهرام بن بهرام البطل، وكان يدعى شكان شاه، وهو الذي يقال له
شاهنشاه. فكان ملكه أربعين سنة وأربعة اشهر.
ثم ملك بعده أخوه نرسي بن بهرام الثاني فكان ملكه تسع سنين. وقيل سبع سنين
وخمسة اشهر.
ثم ملك بعده ابنه هرمز بن نرسي. قال: فظاً إلا أنه كان يرفق بالرعية، وكان حسن السيرة
فيهم. وكان ملكه سبع سنين وخمسة أشهر.
ثم ملك بعده ابنه سابور بن هرمز؛ وهو الملقب بذي الأكتاف. وكان هرمز قد تركه حملاً
في بطن أمه، فعقدوا التاج على بطنها، وقام الوزراء بتدبير الأمر مدة حملها، وفي مدة رضاع
سابور وطفولته وصغره حتى كبر؛ فكتب إليه الناس الكتب من الآفاق وأجابهم، ووجه
البريد إلى الآفاق والأطراف، ورتب الوزراء والكتاب وقرر العمال.
قال: وكان قد شاع في الممالك أن ملك الفرس صغير السن، وأنه يتدبر برأي وزرائه، ولا
يدري ما يراد منه، ولا ما يكون من الأمر، فطمع في مملكة الفرس الترك والروم والعرب.
وكانت أدنى بلاد الأعداء إلى الفرس بلاد العرب. وكانت العرب من أحوج الأمم إلى تناول

شيء من المعاش لسوء حالهم وشظف عيشهم، فانبسطت أيديهم في البلاد وغلبوا أهلها
عليها واتسعت حالهم وكثرت مواشيهم، وأفسدوا في بلاد فارس، ومكثوا كذلك حيناً،
وقد أمنوا جانب الفرس واطمأنوا من قتالهم لقلة هيبتهم.
وكان الذي غلب على سواد
العراق من العرب جمرة العرب ولد إياد بن نزار. وكان يقال لها طبق لإطباقها على البلاد،
وملكها يومئذ الحارث بن الإر الإيادي. قال: ولما ترعرع سابور جعل الوزراء يعرضون عليه
أمر الجنود الذين في الثغور، وأن الأخبار وردت عليهم أن أكثرهم قد أخل، عظموا عليه
الأمر وهولوه، فقال لهم: لا يهولنكم ذلك، فالخطب فيه غير جسيم، والحيلة في ذلك
يسيرة. وأمر الكتاب أن يكتبوا إلى أولئك الجنود أنه قد انتهى إلى طول مكثكم في النواحي
التي أنتم فيها، وعظم عنائكم وذبكم عن إخوانكم وأوليائكم، فمن أحب منكم الانصراف
إلى أهله فلينصرف مأذوناً له في ذلك، ومن أحب أ، يستكمل الفضل بالصبر في موضعه
عرفنا له ذلك؛ وتقدم إلى من اختار الانصراف منهم بلزوم أهله وبلاده إلى وقت الحاجة
إليه. فلما سمع الوزراء قوله ورأيه استحسنوه وقالوا: لو كان هذا قد أطال تجربة الأمور
وسياسة الجنود ما زاد على ما سمعناه. ثم تتابعت آراؤه في تقويم أصحابه وقمع أعدائه؛
حتى إذا تمت له ست عشرة سنة جمع أسورته وأمرهم بالاستعداد لقتال العرب. وكانت
إياد تصيف بالجزيرة وتشتو بالعراق. وكان في جيش سابور رجل منهم يقال له لقيط،
فكتب إلى إياد شعراً بنذرهم وهو:

سلام في الصحيفة من لقيط إلى من بالجزيرة من غياد
بأن الليث آتيكم دليفاً فلا يحبسكم سوق النقاد
أتام منهم سبعون ألفاً يزجون الكتائب كالجراد

فلم يعبئوا بكتابه، وسراياهم تكر نحو العراق وتغير على السواد. فلما تجهز القوم نحوهم
ظفر بهم سابور فعمهم بالقتل، وما أفلت منهم إلا نفر لحقوا بأرض وبار، وخلع سابور
أكتاف كثير منهم، فلذلك سمي ذا الأكتاف. وكان سابور في مسيره أتى البحرين وفيها بنو
تميم فهربوا، وشيخها يومئذ عمرو بن تميم بن مرة وعمره ثلثمائة سنة، وكان يعلق في عمود

البيت في قفة، فأرادوا حمله فأبى عليهم إلا أن يتركوه في ديارهم وقال لهم: أنا هالك اليوم أو
غدا فتركوه. فلما صبحت خيل سابور الديار لقوها خالية، فلما سمع عمرو صهيل الخيل
جعل يصيح بصوت ضعيف، فحمل إلى سابور، فلما نظر إلى دلائل الهرم ومرور الأيام عليه
قال له: من أنت أيها الفاني؟ قال: أنا عمرو بن تميم بن مرة، قد بلغت من الكبر ما ترى،
وقد هرب الناس منك لإسرافك في القتل، فآثرت الفناء على يديك ليبقى من بقى من قومي،
ولعل الله يجري على يديك فرجهم، وأنا سائلك عن أمر إن أذنت فيه؛ فقال سابور: قل
نسمع؛ فقال ماالذي حملك على قتل رعيتك من رجال العرب؟ فقال سابور: أقتلهم لما
ارتكبوا في بالدي وأهل مملكتي؛ فقال عمرو: فعلوا ذلك ولست بقيم عليهم؛ فلما ملكت
وقفوا عما كانوا عليه من الفساد هيبة لك؛ قال سابور: وأقتلهم لأنا نجد في مخزون علمنا
وما سلف من أبناء أوائلنا أن العرب ستدال علينا. فقال عمرو: هذا أمر تظنه أم
تتحققه؟ قال: بل أتحققه ولا بد أن يكون؛ فقال عمرو: فلم تسيء إليها؟ والله لئن تبقي
عليها وتحسن إليها ليكافئون قومك عند إدالة الدولة إليهم بإحسانك، وإن أنت طالت بك
المدة كافئوك عند مصير الأمر إليهم إن كان حقاً، وإن كان باطلاً فلم تتعجل الإثم وتسفك
دماء رعيتك؟ فقال سابور: الأمر صحيح والحق ما قلت، ولقد صدقت في القول
ونصحت. فنادى منادي سابور بأمان الناس ورفع السيف.
ويقال إن عمرا بقي بعد هذا
الوقت ثمانين سنة.
ثم سار سابور إلى أرض الروم ففتح المدن وقتل خلائق من الروم وقال لمن معه: إني أريد أن
أدخل بلاد الروم متنكراً لأتعرف أحوالهم وسيرهم ومسالك بلادهم، فإذا بلغت من ذلك
حاجتي انصرفت إلى بلدي فسرت إليهم بالجنود؛ فحذروه التغرير بنفسه فلم يقبل قولهم.
وسار متنكراً إلى أرض القسطنطينية فصادف وليمة لقيصر اجتمع فيها الخاص والعام،
فدخل في جملتهم وجلس على بعض موائدهم، وقد كان قيصر أمر مصوراً أتى عسكر

سابور فصوره وجاء إلى قيصر بالصورة، فأمر بها فصورت على آنية الشراب من الذهب
والفضة، وأتى بعض من كان على المائدة التي عليها سابور بكأس، فنظر بعض الخدم إلى
الصورة التي على الكأس، وسابور مقابل له، فانطبعت مثالاً لصورة سابور، فقام إلى الملك
فأخبره، فمثل بين يدي الملك، فسأله عن خبره فقال: أنا من أساورة سابور وهربت منه لأمر
خفته منه. فلم يقبل ذلك منه، وقدم إلى السيف فأقر بنفسه، فجعل في جلد بقرة، وسار
قيصر في جنود حتى توسط العراق، فافتتح المدن، وشن الغارات، وعقر النخل، وانتهى إلى
مدينة نيسابور، وقد تحصن بها وجوه فارس، فنزل عليها وحضر عيداً للنصارى فأغفل
الموكلون بسابور أمره، وأخذ منهم الشراب، وكان بالقرب من سابور أساري من الفرس،
فراطنهم بالفارسية أن يحل بعضهم بعضاً، وأمرهم أن يصبوا عليه زقاق الزيت ففعلوا، فلان
عليه الجلد وتخلص، وأتى المدينة فراطنهم فرفعوه بالحبال، ففتح خزائن السلاح وخرج على
الروم فكبس جيشهم عند ضرب النواقيس، فانهزم الروم، وأتى بقيصر أسيراً، فأبقى عليه
وضم إليه من اسر من أصحابه، وأخذهم بغرس الزيتون بالعراق بدلاً من النخل التي
عقروها؛ ولم يكن الزيتون بالعراق قبل ذلك. وفي فعل سابور ودخوله إلى أرض الروم يقول
بعض شعراء الفرس:

وكان سابور صفوا في أرومته اختير منها فأضحى خير مختار
إذ كان بالروم جاسوساً يجول بها حوم المنية من ذي كيد مكار
فتسأسروه، وكانت كبوة عجباً وزلة سبقت من غير عثار
وأصبح الملك الرومي مغتربا أرض العراق على هول وأخطار
فراطن الفرس بالأبواب فافترقوا كما تجاوب أسد الغاب بالغار
فجذ بالسيف أصل الروم فامتحقوا لله درك من طلاب أوتار
إذ يغرسون من الزيتون ما عضدوا من النخيل وما حفوا بمنشار

وسابور هذا هو الذي بنى الإيوان المعروف بإيوان كسرى، وبنى السوس والكرج

ونيسابور. قال صاحب كتاب تجارب الأمم: وبنى بالسواد مدينة نرجس سابور، وبنى
الأنبار. قال: وبنى مدائن أخر بالسند وسجستان، ونقل طبيباً من الهند وأسمنه السوس،
فورث أهل السوس. وهلك سابور بعد اثنتين وسبعين سنة من ملكه.
ثم ملك بعده أردشير بن هرمز وهو أخو سابور بن هرمز هذا.
قال: ولما ملك ظهر منه
شر كثير وقتل من العظماء وذوي الرياسة خلقاً كثيراً، فاجتمع الناس على خلعه فخلعوه
بعد أن ملك أربع سنين.
ثم ملكوا عليهم بعده سابور بن سابور. قال: ولما ملك استبشرت الرعية برجوع ملك
أبيه إليه، فأحسن السيرة ورفق بالرعية. وكانت له حروب كثيرة مع إياد بن نزار وغيرها
من العرب، وفيه يقول شاعر إيادي:
على رغم سابور بن سابور أصبحت قباب إياد حولها الخيل والنعم
وكان ملكه خمس سنين وأربعة أشهر، وسقط عليه فسطاط كان ضرب عليه فمات.
وملك بعده أخوه بهرام بن سابور ذي الأكتاف، وهو الملقب كرمان شاه؛ لأن سابور كان
ولاه كرمان. قال: وكان حسن السيرة، جميل السياسة، محمود الأثر، محبباً للرعية. وكان
ملكه عشر ينين. وقيل إحدى عشرة سنة وخمسة أشهر وثمانية عشر يوماً.
وملك بعده ابنه يزدجرد بن بهرام المعروف بالأثيم. قال: وكان فظاً غليظاً، ذا عيوب
كثيرة، وكان من أشد عيوبه وضعه ما آتاه الله من ذكاء ذهن وحسن أدب في غير
موضعهما؛ وذلك أنه كان كثير الروية في المضار ن الأمور، واستعمل الذي أوتيه في الدهاء
والحيل، واستخف بكل علم كان من عند الناس، واحتقر آدابهم وتعاظم عليهم واستطال
بما عنده. وكان معجباً بنفسه سيء الخلق، حتى بلغ من شدته وحدته انه كان يستعظم
صغار الزلات، ولا يرضى في عقوبتها إلا بما لا يستطاع.
وكان لا يقدر أحد من بطانته - وإن كان لطيف المنزلة منه - أن يشفع عنده لمن ابتلى به
وإن كان ذنب المبتلى به يسيراً، ولم يكن يأتمن أحداً على شيء ألبتة، ولا يكافئ على

حسن البلاء، وكان يعتد بالخسيس من المعروف إذا أولاه ويستجزل ذلك، فإن جسر على
كلامه أحد في أمر قال له: ما قدر جعالتك في هذا الأمر الذي كلمتنا فيه، وماالذي بذل لك
بسببه؟ وما أشبه ذلك. فلما اشتدت بلية الناس به، وكثرت إهانته للعظماء، وأكثر من
سفك الدماء، واستعمل الضعفاء في الأعمال الشاقة وحملهم ما لا طاقة لهم به، تضرعوا إلى
الله عز وجل وسألوه أن ينقذهم منه. فزعم الفرس أنه كان ذات يوم مطلعاً من قصره غذ
رأى فرساً عائراً لم ير مثله قط في الخيل من حسن الصورة وتمام الخلقة حتى وقف على
بابه، فتعجب الناس من ذلك، فأمر يزدجرد أن يسرج ويلجم ويدخل عليه به، فحاول
السواس وأصحاب المراكيب أن يلجموه أو يسرجوه فعجزوا عن ذلك، ولا مكنهم الفرس
من نفسه، فخرج يزدجرد بنفسه إلى الفرس وتقدم إليه وأسرجه وألجمه ولببه وهو لم يتحرك،
فلما استدار ورفع ذنبه ليثفره رمحه الفرس على فؤاده رمحة فهلك منها لساعته، ثم لم يعاين
الفرس بعد ذلك؛ فأكثرت الفرس في حديثه فظنوا الظنون. وكان أحسنهم مذهباً أمثلهم
طريقه من قال: إنما استجاب الله عز وجل دعاءنا. فكان ملكه إلى أن هلك إحدى عشرة
سنة وخمسة أشهر وثمانية عشر يوماً. وقيل اثنتين وعشرين سنة غير شهرين.

قال: وكان ابنه بهرام جور في حجر النعمان بن المنذر بن ماء السماء أسلمه أبوه إليه ليربيه
بالحيرة لصحة هوائها. وقد تقدم خبره في ذكر بناء الخورنق والسدير.

فعدل الفرس عنه لسوء أثر يزدجرد فيهم وملك عليهم كسرى، وهو رجل من عترة
ساسان، فاستعان بهرام جور بالعرب وأرسل إلى الفرس وأعلمهم إنكارة سيرة أبيه،
ووعدهم بإصلاح ما فسد، وأنه مضى لملكه سنة ولم يف لهم بما بذل تبرأ من الملك طائعاً،
فمال إليه قوم وبقيت طائفة مع كسرى، فتراضوا أو يوضع تاج الملك بين أسدين مشبلين فمن
تناوله فهو الملك. وكان بهرام جور شجاعاً بطلاً، فلما وقف هو وكشرى وعصر جنبيه
بفخذيه، فلام تمكن منه قبض على أذنيه، ولم يزل يضرب راس الأسد براس الآخر حتى

قتلهما. فكان كسرى أول من هتف به وأذعن له.
فملك بهرام جور بن يزدجرد؛ فأحسن السيرة، وجلس سبعة أيام متوالية للجند والرعية،
يعدهم الخير من نفسه ويحضهم على تقوى الله وطاعته. وكان جلوسه على سرير الملك
وهو ابن عشرين سنة، فغبر زماناً وهو يحسن السيرة، ويعمر البلاد، ويدر الأرزاق، ثم آثر
اللهو على ذلك وكثرت خلواته بأصحاب الملاهي حتى كثرت عليه الملامة من أرباب دولته،
وطمع من حوله من الملوك في استباحة بلاده والغلبة على ملكه. وكان أول من سبق إلى
مغالبته ومكاثرته خاقان ملك الترك، وغزاه في مائتي ألف وخمسين ألفاً من الأتراك، فبلغ
الفرس إقبال الترك في هذه الجموع العظيمة فهالهم ذلك، ودخل على بهرام جور جماعة من
عظماء الفرس وأهل الرأي والنجدة وقالوا: أيها الملك، قد أرهقك من بائقة عدوك ما
يشغلك عما أنت فيه من اللهو والتلذذ، فتأهب له لئلا يلحقك منه أمر يلزمك فيه مسة
وعار. وكان بهرام لثقته بنفسه ورأيه يجيب القوم بأن يقول: الله ربنا قوي ونحن أولياؤه. ثم
يقبل على ما هو عليه من اللهو والصيد.
قال: ثم اظهر بهرام جور التجهز إلى أذربيجان ليتنسك في بيت نارها، ويتوجه منها إلى
أرمينية ويتصيد في آجامها، وسار في سبعة رهط من عظماء الفرس وأهل البيوتات.
وثلثمائة رجل من رابطته ذوي باس وشدة ونجدة، واستخلف أخاً له يقال له نرسي على
ملكه، فما شك الناس - لما بلغهم ذلك - أنه هرب من خاقان، فتآمر الفرس في مراسلة
خاقان والانقياد إلى طاعته والإقرار له بالخراج؛ فخافة منه أن يستبيح بلادهم، فاتصل هذا
الخبر بخاقان فاطمأن وترك التحفظ والاستعداد وآثر المسالمة. وتعرف بهرام خبر خاقان
وحال جنده وما هم عليه من الطمأنينة والفتور وعدم الاستعداد، فسار بمن معه وبيت
خاقان وقتله بيده. فلما علم الأتراك أن ملكهم خاقان قد قتل انهزموا لا يلوون على شيء
وخلفوا أثقالهم وأموالهم. فأكثر بهرام فيهم القتل وأمعن في طلبهم، وحاز غنائم لم يسمع
بمثلها، وسبى من ذريتهم كثيراً.

وكان مما غنمه تاج خاقان وإكليله، وغلب على بلاد الترك وانصرف بالظفر والغنائم،
وكتب إلى أهل مملكته يعلمهم بما حصل له من الظفر بخاقان وجموعه بمن كان معه من أولئك
القوم الذين ستصحبهم معه.
وكان بهرام يتكلم بلغات كثيرة، منها اللغة العربية. ومما حفظ من شعره يوم ظفره بخاقان:

أقول لما فضضت جموعه كأنك لم تسمع بصولات بهرام
وأني حامي ملكٍ فارس كلها وما خير ملك لا يكون له حامي

ومن شعره أيضاً:

لقد علم الأنام بكل أرض بأنهم قد أضحوا لي عبيدا
ملكت ملوكهم وقهرت منهم عزيزهم المسود والمسودا
فتلك أسودهم تبغي حذارى وترهب من مخافتي الرودا
وكنت إذا تشاوس ملك أرض غبأت له الكاتب والجنودا
فيعطيني المقادة أو أوافي به يشكو السلاسل والقيودا

قال: ولما قتل خاقان بعث بهرام أحد قواده إلى ما وراء النهر فغزاهم وأقروا لبهرام
بالعبودية وأداء الجزية. قال: وأسقط بهرام جور عن رعيته إثر هذا الظفر خراج ثلاث
سنين، وترك ما كان قد بقي من الخراج ولم يستخرج من قسط تلك السنة، وكان سبعين
ألف ألف درهم، وقسم في الفقراء مالاً عظيماً وفي أهل البيوتات والأحساب عشرين ألف
ألف درهم؛ ونحل بيت النار بأذربيجان جميع ما غنمه من الترك من اليواقيت والجواهر
والتاج والإكليل.
ويقال إن بهرام دخل إلى أرض الهند متنكراً فمكث حيناً لا يعرف حتى بلغه أن فيلاً قد
هاج وقطع السبل وأهلك الناس، فسألهم أن يدلوه عليه، فرفع أمره إلى الملك فأرسل معه
رسولاً، فلما انتهى إليه أوفى الرسول على شجرة لينظر ما يصنع بهرام مع الفيل، فصرخ
بالفيل فخرج إليه، فجعل يرميه ويثبت النشاب بين عينيه، ثم دنا وأخذ بمشفره وجذبه
جذبةً خر منها الفيل، ثم احتز رأسه وأقبل به إلى الملك فحباه وأحسن إليه.
ثم إن ملكاً من أعداء ذلك الملك أقبل لغزوه فجزع ذلك الملك من كثرة جنود الملك الذي
أتى نحوه، فقال له بهرام: لا يهولنك أيها الملك أمره؛ فركب بهرام وقال السورة الهند: احموا
ظهري، وانظروا إلى عملي، وكانوا لا يحسنون الرمي، وأكثرهم رجالة، فحمل عليهم حملة

هدهم بها، ثم جعل يضرب الرجل فيقطعه نصفين، ويأتي الفيل فيضرب مشفره ويكبه
ويأخذ من عليه فيقتله، ويأخذ الفارس فيذبحه على قربوس سرجه، ويتناول الرجلين
فيضرب أحدهما بالآخر فيموتان جميعاً، ويرمي فلا تقع له نشابة إلا في رجل، فولوا أمامه
منهزمين، وحمل الذين كانوا يحرسون ظهره عليهم فأكثروا القتل فيهم، فزوجه ملك الهند بنته
ونحله الديبل ومكران وما يليهما من ارض السند وأشهد له بذلك، وانصرف بهرام جور إلى
مملكته وضم ذلك إلى بلاده وحمل خراجها إليه، ثم أغزى بهرام جور أخاه نرسي إلى بلاد
الروم في أربعين فدخل القسطنطينة وهادن ملك الروم على إتاوة يحملها إلى أخيه. ثم
مضى بهرام جور إلى أرض السودان على طريق اليمن فأوقع بهم وعاد إلى مملكته وهلك
بعد ذلك في ماء. وذلك أنه توجه إلى الصيد فشد على عير وأمعن في طلبه، فارتطم في
ماء في سبخة فغرق فيه، فسارت أمه إلى ذلك الموضع بمال عظيم ونزلت بالقرب منه،
وأمرت بإنفاق تلك الأموال على من يخرجه، فنقلوا طيناً عظيماً وحمأة كثيرة حتى صار من
ذلك آكاماً عظاماً ولم يقدروا على استنقاذ جثته. وكان ملكه ثلاثاً وعشرين سنة.
وحكى عنه في صغره ما يدل على نباهته، وجودة فكرته وجميل رأيه. فمن ذلك أنه قال
للنعمان بن المنذر لما بلغ خمس سنين: أحضر لي مؤدبين ليعلموني الكتابة والفقه والرمي
والفروسية. فقال له المنذر: إنك بعد صغير السن، ولم يأن لك ذلك بعد. فقال له بهرام: أما
تعلم أيها الرجل أني من ولد الملوك، وأن الملك صائر إلي، وأولى ما كلف به الملوك وطلبوه
صالح العلم؛ لأنه زين لهم وركن، وبه يعرفون. أما تعلم أن كل ما يتقدم في طلبه، ينال في
وقته، وما لم يتقدم فيه ويطلب في وقته، ينال في غير وقته، وما يفرط فيه وفي طلبه يفوت ولا
ينال؟ عجل علي بما سألتك. فبعث المنذر من ساعته إلى باب الملك من أتاه برهط من
المعلمين الفقهاء والرماة، وجمع له حكماء الروم وفارس وغيرهم، وألزمهم إياه، ووقت أوقاتاً
لكل منهم؛ فتعلم بهرام من كل علم أحسنه، وسمع الحكمة ووعى ما سمع منها، وثقف كل

ما علم بأيسر شيء، وبلغ أربع عشرة سنة، وقد فاق معلميه، وحفظ للنعمان حق التربية،
فملكه على العرب لما صار الملك إليه.
ولما هلك بهرام ملك بعده ابنه يزدجرد بن بهرام جور؛ فسار بسيرة أبيه؛ ولم يزل قامعاً
لعدوه، كثير الرفق برعيته. وكان له ابنان أحدهما يسمى هرمز، والآخر فيروز. ودام ملك
يزدجرد تسع عشرة سنة، وقيل ثماني عشرة سنة وأربعة اشهر وثمانية عشر يوماً ثم هلك.
فتغلب على الملك بعده ابنه هرمز بن يزدجرد. ولما ملك هرمز هرب منه فيروز ولحق
ببلاد الهياطلة، وأخبر ملكها بقصته وقصة أخيه هرمز، وذكر أنه أحق منه بالملك، وسأله
أن يمده بجيش يقاتل به أخاه، فأبى عليه ملك الهياطلة وقال: سأعلم خبره ثم آمرك بعد
ذلك بما تفعل. وكشف ملك الهياطلة عن خبر هرمز وتعرف أحواله فبلغه أنه غشوم ظلوم؛
فقال عند ذلك: إن الجور لا يرضاه الله تعالى، ولا يصلح عليه الملك، ولا تقوم به سياسته؛
وأمد فيروز بالعساكر ودفع له الطالقان؛ فأقبل فيروز من عنده بجيش طخارستان وطوائف
خراسان، فظفر بأخيه فحبسه. وملك فيروز بن يزدجرد. ولما ملك أظهر العدل وحسن
السيرة، وكان يتدين إلا أنه كان مشئوماً على رعيته، فقحط الناس في زمانه سبع سنين،
فأحسن فيها إلى الناس، وقسم ما في بيوت الأموال. ويقال: إن الأنهار غارت في مدة
القحط، وكذلك القنى والعيون، وقحلت الأشجار والغياض، وهلكت الوحوش والطير،
وجاعت الدواب حتى كادت لا تطيق الحمولة، وعم أهل البلاد الجهد والمجاعة، فبلغ من
حسن سياسة فيروز لهذا الأمر أن كتب إلى جميع الرعية: أنه لا خراج عليكم ولا جزية
ولا سحرة، وانه قد ملكهم أنفسهم، وأمرهم بالسعي فيما يقوتهم ويصلحهم، وكتب بإخراج